



جامعة دمشق - كلية الشريعة

الدراسات العليا

قسم علوم القرآن والحديث

دلالة التقديم والتأخير وأثرها في التفسير

الزمخشري وابن عاشور نموذجا

رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة:

مروة محمد فيصل شريك

إشراف الدكتور:

حازم زكريا محي الدين

الإهداء

إلى من كبرتُ بركة دعائها، إلى من لانرمني طيفها أُملاً يحثني على المضيّ في طريق
الخير..... أُمي الغالية مرحمك الله

إلى من لا توفيه الكلمات حقّه، ولا يسعنا العمر إيفاء لحقّه، إلى من علّمنا بالصبر والحكمة،
إلى من أنهضنا من عسراتنا، إلى من لم يتوان عن قراءة أيّ سطر من أبحاثنا بعقله وقلبه ناصحاً ومقوماً،
إلى أبي العزيز وأُمي بعد أُمي..... والدي الغالي مرزقنا الله رضاك

إلى من شاركني لحظات العسر واليسر، وكان خير عون لي في طريق
العلم..... رفيق الدرب

شكر وامتنان

أتوجّه بجزيل الشكر والامتنان إلى من جاد بعلمه ووقته وصبره في إشرافه على هذا العمل، إلى من كانت توجيهاته وملاحظاته أساساً في التكوين المنهجي تعين الباحث على مواصلة السير في طريق العلم، إلى الدكتور المعطاء حازم نركرياً محي الدين . . . حفظه الله

والشكر موصول إلى كلية الشريعة، بعمادتها وأساتذتها بآراء الله بجهودكم وأبقاكم ذخراً للأمة . . .

وخالص الشكر والحب والامتنان لعائتي الحبيبة . . . ولكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل . . . هذه كلمات لا توانري فضلكم . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

فإنَّ القرآن الكريم كلام عربيٍّ في مفرداته، وجمله وتراكيبه، وأساليبه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، أنزله الله عَزَّوَجَلَّ على معهود أساليب العرب في كلامهم، وفصاحتهم، وبلاغتهم، فأعجزهم بياؤه، وسحرهم بلاغته، ولم يستطيعوا الإتيان بسورة من مثله. وإنَّ البلاغة القرآنية تستحثُّ الباحث على النظر في القرآن الكريم، وسير أغواره، واستنباط أسرارهِ. وقد كثرت الأساليب البلاغية وتنوّعت، فاختارت هذه الدراسة أحد هذه الأساليب وهو (أسلوب التقديم والتأخير) وأفردته بالبحث. وهذا الأسلوب يهتم بموقع الكلمة في الكلام، ويبحث في بناء الجمل وصياغة العبارات، ويطيل النظر في التراكيب ليكشف ما تخفيه بين طياتها من معاني وأسرار بلاغية. فدلالة الكلمة تختلف حسب الموقع الذي تكون فيه، والمتكلم المبدع يرتب كلامه على النحو الذي يعكس فيه المعنى الذي يريد به بأجلى صورة. لذا فإنَّ هذا الترتيب هو ترتيب مقصود له قواعده وضوابطه لتحقيق أغراض يسعى إليها المتكلم. فمعنى الجملة لا يتكون من مجموع معاني مفرداتها فحسب، وإنما من دلالة ترتيب هذه المفردات حسب قواعد لغوية محدّدة. فالمعنى هو نتيجة ترتيب معيّن للألفاظ والعبارات، وإنَّ أيَّ تغيير محلٍّ في هذا الترتيب ينعكس على تغيّر المعنى، ويُفقد النص بلاغته وجماله.

- مشكلة البحث وحدوده:

تتمثّل إشكالية البحث في الكشف عن جهود العلماء السابقين في دراستهم لنظرية النظم، ثمّ بيان موقع أسلوب التقديم والتأخير فيها، وتوضيح مفهوم هذا الأسلوب البلاغي، وأنواعه، وبيان الأغراض البلاغية (المعنوية واللفظية) التي تقتضي التقديم والتأخير أو ترتّب عليه.

وتسعى الدراسة إلى الكشف عن دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وذلك من خلال دراسة تطبيقية على سورتين (مكية "سورة هود"، ومدنيّة "سورة النساء") عند كلّ من الزمخشري وابن عاشور في تفسيريهما (الكشاف) و(التحرير والتنوير). والمقصود بالدلالة هو المعنى الذي يؤدّيه اللفظ من خلال مكانه، ولو تغيّر اللفظ عن موضعه لتغيّرت دلالته، ولفقد المعنى الذي أدّاه في حالته الأولى، بالإضافة إلى فقدانه للرونق والسحر الذي أضفاه اللفظ بموضعه الأوّل. فالتقديم والتأخير ليس بحثاً جمالياً، وإن كان هذا الجانب أحد وظائفه، وإنّما هو يهتمّ بالدرجة الأولى بالدلالة على المعاني التي يريدّها المتكلّم من خلال تقديمه لبعض الألفاظ والعبارات بعضها على بعض.

وبالنسبة للجانب التطبيقي فقد اتّبع في تقسيم الأمثلة فيه، طريقة تقسيم الزركشي لأنواع التقديم والتأخير، حيث جعلها ثلاثة أنواع: تقديم على نية التأخير، وتقديم ليس على نية التأخير، وما قُدّم في آية وأُجّر في أخرى. وإن كان النوع الثالث منه ما يدخل تحت التقديم الذي على نية التأخير، ومنه ما يدخل تحت التقديم الذي ليس على نية التأخير، إلا أنّ إفراده بالبحث يعود إلى أهمية هذا النوع في الكشف عن عظيم بلاغة القرآن الكريم، وبديع نظمه.

— أهمية البحث وسبب اختياره:

تكمن أهمية البحث في كونه يتناول جانباً مهماً من جوانب البلاغة في القرآن الكريم، وهو أسلوب التقديم والتأخير، الذي هو من أهمّ مباحث علم المعاني، حيث يبحث في بناء الجمل وصياغة العبارات لتحقيق معاني وأغراض، ويكشف ما وراءها من أسرار ولفترات بلاغية. وقد كثر في آيات الكتاب العزيز، وكانت له أغراض شتى، بمعرفتها تتضح دقائق المعاني. فالتقديم والتأخير في القرآن من أعظم الأدلّة على عظيم بلاغة الكلام العزيز، فكلّ تقديم له حكمة بالغة، وفائدة فائقة، تبهر السامع وتؤثّر فيه، وليس في القرآن تقديم يفسد المعنى أو يخلو عن فائدة، لذا كان من مهام المفسّر أن يكشف عن دلالة هذا التقديم، ويحلّي حكمه البليغة، فاخترت الدراسة من أبرز من اعتنى بالجانب البلاغي في تفسيره، (الزمخشري) من المتقدمين، و(ابن عاشور) من المعاصرين، للكشف عن أثر التقديم والتأخير في تفسيريهما.

كما أنَّها عمدت إلى دراسة هذا الأسلوب في القرآن المكي والمدني، للكشف عن أثر التقديم والتأخير في كلٍّ منهما. فاختارت من السور المكية سورة هود لعظيم مكانة هذه السورة فقد قال فيها النبي عليه السلام: (شيتني هود وأخواتها)، كما أنَّ جانب التقديم والتأخير _موضوع البحث_ كان بارزاً فيها، بالإضافة إلى وضوح الجانب الحجاجي في القصص الواردة في السورة، وهو أحد وظائف أسلوب التقديم والتأخير.

أما بالنسبة للسورة المدنية فكانت سورة النساء التي حظيت بنصيب أقل من الدراسة بالنسبة لسورتي البقرة وآل عمران، رغم أهميَّة موضوعاتها، وتغطيتها لما يتعلَّق بأحكام المرأة في زمن ما أحوجنا فيه إلى معرفتنا لهذه الأحكام وتطبيقها.

- أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- الكشف عن مراحل تطور دراسة النظم القرآني.
- بيان محلِّ أسلوب التقديم والتأخير في نظرية النظم.
- توضيح دلالات أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم.
- الكشف عن طريقة كلٍّ من الزمخشري وابن عاشور في تعاملهما مع التقديم والتأخير في تفسيريهما، وبيان أثره في تفسيريهما.
- ملاحظة التطور الذي لحق دلالة التقديم والتأخير عند ابن عاشور عما كانت عليه عند الزمخشري.

- الكشف عن أثر أسلوب التقديم والتأخير في كلٍّ من القرآن المكي والمدني.

– طريقة العمل والمنهج المتبع في البحث:

مهّدت الدراسة لأسلوب التقديم والتأخير بالحديث عن نظرية النظم القرآني، فعرفت بها وتحدثت عن نشأتها، وأوضحت المراد بالنظم الذي سعى الجرجاني إلى بيانه، ثم بيّنت موقع أسلوب التقديم والتأخير من النظم، من خلال ما فصّله الجرجاني في (دلائل الإعجاز) ومن جاء بعده من العلماء.

ثم شرعت بدراسة أسلوب التقديم والتأخير فحدّدت مفهومه، وبيّنت أغراضه، وأنواعه، وبعدها كان الجانب التطبيقي من الدراسة.

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن، ففي القسم الأول: وصف وتحليل لجهود السابقين في دراستهم لأسلوب التقديم والتأخير.

أمّا القسم الثاني من الدراسة فهو: وصف لجهود الزمخشري وابن عاشور في تناوُلهما لأسلوب التقديم والتأخير في تفسيريهما (الكشاف، والتحرير والتنوير) من خلال استقراء مواضع التقديم والتأخير الواردة عند كلٍّ منهما في سورتي (هود والنساء)، وتحليل تلك المواضع، لاستنباط الغرض البلاغي منها. ثمّ تعقد الدراسة مقارنة بين عمل كلٍّ منهما مع غيره من المفسرين، ومقارنة أخرى بين الزمخشري وابن عاشور في تعاملهما مع التقديم والتأخير، للوصول إلى الأهداف المنشودة من الدراسة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تداخل بعض موضوعات هذه الدراسة قد اضطرّني لتكرارها، وقد حاولت تجنّب ذلك قدر الإمكان، ففصّلت في موضع وأجملت في آخر، ولم يكن بالإمكان تلافيه، فطبيعة البحث هي التي تحتم على الباحث ما سيذكره، وأين.

– الدراسات السابقة:

تناول الباحثون موضوع التقديم والتأخير بالدراسة سواء من جانبه اللغوي أو البلاغي، ومن هذه الدراسات:

– التقديم والتأخير في القرآن الكريم بلاغة وإبلاغ، للدكتور خلدون صبح، وهي رسالة ماجستير في جامعة دمشق، مطبوعة في دار الينابيع، دمشق، سنة ٢٠٠٢م. درس فيها التقديم

والتأخير عند النحاة والبلاغيين، ثمّ درس بلاغة التقديم والتأخير في كلّ من الجملة الاسمية والجملة الفعلية، ثمّ التقديم والتأخير بين الجملة والمفرد. وعقد فصلاً للتقديم والتأخير وعلاقته بالسياق، ذكر فيه: أغراض التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وتحدّث عن أثر التقديم والتأخير في التصوير، وفي القصص القرآني، وفي التنعيم.

- **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، للدكتور منير المسيري، وهي رسالة دكتوراه في جامعة أتونوما _ إسبانيا، طبعت في مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م. درس في الباب الأول منها: أثر التقديم والتأخير في الإخلال بفصاحة الكلام، وأثره في المعاني، وذكر ضوابطه، وتحدّث عن أثر الترجمة في أسلوب التقديم والتأخير. أمّا الباب الثاني: فتحدّث فيه عن أنواع التقديم والتأخير، وأسبابه في القرآن الكريم، وأفرد فصلاً للتقديم والتأخير في القرآن الكريم، ذكر فيه مواضع التقديم والتأخير في جميع سور القرآن الكريم، تناولها سورة سورة، يحدّد موضع التقديم والتأخير ويذكر أقوال العلماء فيه دون أن يلتزم بتقسيم محدّد في ذكر المواضع، بل كان يسردها سرداً من أوّل السورة إلى آخرها.

- **بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، للدكتور علي أبو القاسم عون، وهي رسالة دكتوراه في جامعة محمد الخامس في الرباط، طبعت في دار المدار في لبنان، ٢٠٠٦م. اهتمّت الدراسة بالتأصيل لأسلوب التقديم والتأخير، فجاءت مفصّلة مستوعبة لجميع مظاهره. وكان الجانب التطبيقي منها استقراء جميع آيات القرآن الكريم، وتوضيح بلاغة التقديم والتأخير فيها.

أمّا عن جديد هذا البحث الذي أُقَدِّمُ له، فإنّه اهتمّ بالكشف عن مراحل تطوُّر دراسة هذا الأسلوب البلاغي، من خلال الكشف عن طريقة تعامل مفسِّرين (من أبرز المفسرين البلاغيين) مع أسلوب التقديم والتأخير، في سورتين (مكيّة، ومدنيّة) للكشف عن أثر هذا الأسلوب في كلّ من القرآن المكيّ والمدنيّ.

ومن جانب آخر هناك دراسات تناولت النظم القرآني في سورة هود، كرسالة الدكتوراه (سورة هود عليه السلام دراسة لخصائص نظمها وأسراره البلاغية) لدخيل الله بن محمد الصحفي، إشراف الأستاذ الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني، في جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، سنة ١٩٩٣ م.

ورسالة ماجستير (النظم القرآني في سورة هود دراسة أسلوبية) لمجدي عايش عودة أبو لحية، إشراف أ.د محمد شعبان علوان، في الجامعة الإسلامية بغزة، كلية الآداب، سنة ٢٠٠٩ م.

ورسالة ماجستير بعنوان (النظم القرآني دراسة تطبيقية في سورة هود) لعبد الله أبو بكر محمد أبو بكر، إشراف الدكتور عمر سعيد محمد، في جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية اللغات، سنة ٢٠١٨ م.

وما يجمع هذه الدراسات الثلاث أنَّها لم تُفرِّد هذا الأسلوب بالدراسة، بل مرَّت عليه مروراً سريعاً، فذكرت بعضاً من مواضعه في سورة هود، وأدرجتها تحت نوعي التقديم، (الذي على نية التأخير، والذي ليس على نية التأخير) ولم تعتمد تفسيراً معيَّناً تبحث في طريقة مفسِّره في التعامل مع هذا الأسلوب، كما هو الحال في هذه الدراسة، بالإضافة إلى عدم المقارنة بين التقديم والتأخير في القرآن المكي والمدني، فالهدف من العمل هنا والعمل في الرسائل السابقة مختلف، وبالتالي فإن النتائج المترتبة على كلٍّ منهما مختلفة أيضاً.

- خطة البحث:

فصل تمهيدي: مدخل إلى نظرية النظم القرآني، وموقع أسلوب التقديم والتأخير فيها:

- المبحث الأول: نظرية النظم القرآني.
- المبحث الثاني: موقع أسلوب التقديم والتأخير من النظم.

الفصل الأول: أسلوب التقديم والتأخير:

- المبحث الأول: تعريف أسلوب التقديم والتأخير.
- المبحث الثاني: أغراض أسلوب التقديم والتأخير.
- المبحث الثالث: أنواع أسلوب التقديم والتأخير.

الفصل الثاني: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند الزمخشري:

- تمهيد: التعريف بالزمخشري وتفسيره.
- المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في الكشف.
- المبحث الثاني: أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود.
- المبحث الثالث: أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.
- المبحث الرابع: كيفية تعامل الزمخشري مع أسلوب التقديم والتأخير.

الفصل الثالث: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند ابن عاشور:

- تمهيد: التعريف بابن عاشور وتفسيره.
- المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في التحرير والتنوير.
- المبحث الثاني: أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود.
- المبحث الثالث: أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.
- المبحث الرابع: كيفية تعامل ابن عاشور مع أسلوب التقديم والتأخير.

الفصل الرابع: المقارنة بين جهود الزمخشري وابن عاشور في التقديم والتأخير:

- المبحث الأول: نقاط الاتفاق.
- المبحث الثاني: نقاط الاختلاف.
- المبحث الثالث: محاولة في التقويم.

الخاتمة.

الفصل التمهيدي:

مدخل إلى نظرية النظم وموقع أسلوب التقديم والتأخير منها:

- المبحث الأول: نظرية النظم القرآني.
- المبحث الثاني: موقع أسلوب التقديم والتأخير من النظم.

المبحث الأول: نظرية النظم القرآني:

إنَّ نظرية النظم ما هي إلا نتاج تراكم وتضافر جهود العلماء في البلاغة، وإنَّ الاهتمام بالبلاغة قديم منذ عهد الجاحظ^(١) (ت ٢٥٥هـ)، فقد توالى العلماء على تعريفها وتحديد مفهومها، والبحث في تطبيقاتها على تفاوت بينهم، وكلُّ هذه الجهود كانت تشترك في أنَّ البلاغة تدلُّ على الجودة، والروعة، والمطابقة لما في النفس من معنى، والتأثير^(٢). **فغاية البلاغة:** الإبانة عن المعنى وتقديمه إلى السامع في أحسن صورة من اللفظ. وبهذا أصبح للمتكلمين في البلاغة محور لا يبعدون عنه في دراستهم للبلاغة وأساليب الكلام^(٣).

وقد استقرَّ مفهوم البلاغة على يد القزويني^(٤) (ت ٧٣٩هـ) حيث وضع تعريفاً للبلاغة قام على اعتبارين^(٥)، الأول: بلاغة الكلام: وهي "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته".

١- هو: عمرو بن بحر الجاحظ، أديب فصيح بليغ، معتزلي المذهب، أخذ عن النظم، وله تصانيف كثيرة، منها: (الحيوان) و(البيان والتبيين)، وُلد وتوفي في البصرة (١٦٣ - ٢٥٥ هـ). ينظر: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، كمال الدين الأنباري، ت: إبراهيم السامرائي، ط ٣ (مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ١٩٨٥م) ١/١٤٨، و**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، ت: إحسان عباس، ط ١ (دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م) ٣/٤٧٠، و**سير أعلام النبلاء**، شمس الدين الذهبي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط ٣ (مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م) ١١/٥٢٦ - ٥٣٠، و**الأعلام**، الزركلي، ط ١٥ (دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م) ٥/٧٤.

٢- ينظر: **البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني**، فضل حسن عباس، ط ٤ (دار الفرقان، إربد، ١٩٩٧م) ص ٥٥.

٣- **التفكير البلاغي عند العرب**، حمادي صمود، د. ط (تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٨١م) ص ٥٦٩.

٤- هو: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، وهو قاضي القضاة، من مؤلفاته، (تلخيص المفتاح في المعاني والبيان) و(الإيضاح) في شرح التلخيص، توفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ. ينظر: **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين السبكي، ت: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط ٢ (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ) ٩/١٥٨ - ١٦١، و**طبقات الشافعية**، جمال الدين الإسنوي، ت: كمال يوسف الحوت، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م) ٢/١٦٧، و**الأعلام**، الزركلي، ٦/١٩٢.

٥- ينظر: **الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني، ت: إبراهيم شمس الدين، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م) ص ٢٠ - ٢١. وهذا يذكرنا بنظرة الراغب الأصفهاني للبلاغة، فقد تحدّث عنها باعتبار بلاغة الكلام، وأيضاً باعتبار بلاغة المتكلم، الذي يملك القدرة على إيصال المعنى إلى قلب السامع فيلقى قبُولاً عنده. فقد قال: البلاغة على ضربين "أحدهما: أن يكون بذاته بليغاً، وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى

والثاني: بلاغة المتكلم: وهي "ملكة يُقْتَدَر بها على تأليف كلام بليغ".

ومقتضى الحال، هو: الاعتبار المناسب لمقام الكلام الذي يُتَكَلَّم به، فلكلِّ مقام مقال، والبلاغة تتمثَّل في هذا الأمر، فتحذف وتوجز إذا استدعى المقام ذلك، وتقدم أو تؤخر حسب الحال، وهكذا... مع فصاحة الكلام.

أمَّا الفصاحة، فهي: صفة للكلمة وللکلام وللمتکَلِّم، والمفردة توصف بالفصاحة خاصة، فيقال: (كلمة فصيحة) ولا يقال (كلمة بليغة) -والكلمة هنا بمعنى اللفظة المفردة-، وفصاحة الكلمة تعني: خُلُوص اللفظ من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي^(١).

أمَّا فصاحة الكلام، فهو: "خُلُوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد، مع فصاحتها"^(٢). فالبداية من الكلمة، ثم يأتي الاهتمام بسبك الكلام وترابطه، وكلُّ هذا ليخرج كلاماً بليغاً تألفه الآذان وتطرب لسماعه.

المقصود به، وصدقاً في نفسه...، والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمراً فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له" فالكلام البليغ هو: ما كان فصيحاً (صواباً في موضوع لغته)، مطابقاً لما أراد التعبير عنه، (طبقاً للمعنى المقصود به)، موافقاً لمقتضى الحال، فالقائل يورد كلامه على نحو يجعله مقبولاً لدى المستمع، وأخيراً أن يكون مؤثراً، وهو ما عبّر عنه الأصفهاني بالصدق في نفسه، فالحديث الصادق يصل إلى القلب فيؤثر فيه بصدقه. **المفردات في غريب القرآن**، ت: صفوان عدنان داودي، د. ط (دار العلم، دمشق، ١٤١٢هـ) ١ / ١٤٥.

١- التنافر يأتي بثقل النطق الشديد على اللسان، كقول من سئل عن ناقته، فقال: (تركبتها ترعى الهُجْع)، والغرابة: أن تكون الكلمة وحشية مستغربة، تحتاج إلى بحث لمعرفة معناها، كقول من سقط عن حمارة فاجتمع عليه الناس، فقال: (مالكم تكأتم عليّ كتكأكتكم على ذي جنة؟ افرنقوا عني) أي اجتمعتم فتنحوا. أما مخالفة القياس اللغوي: كقول الشاعر: الحمد لله العليّ الأجلّ، والقياس: (الأجلّ). ينظر: **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص ١٣ - ١٤.

٢- يأتي ضعف التأليف من ترتيب الكلام على خلاف القانون النحوي كرجوع الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة، فهذا ممتنع عند الجمهور، كقولهم (ضرب غلامه زيدا)، والتنافر: بسبب عسر النطق بكلمات متتابعة لما فيها من ثقل على اللسان، كما في قولهم:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبُ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

أمَّا التعقيد اللفظي، فالمقصود به: خفاء دلالة الكلام على المراد منه. لاختلال نظم الكلام مثلاً، كقول الفرزدق في دح خال هشام بن عبد الملك:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُلْكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

فالبلاغة إذاً "صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب"^(١). ولها عدّة دعائم:
"أولاهها: اختيار اللفظة.

وثانيها: حسن التركيب وصحّته.

وثالثها: اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء، وحسن انتهاء.
وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم، يكون الكلام مؤثّراً في النفوس، والتأثير هو الدعامة الرابعة من
دعائم البلاغة"^(٢).

وقد أخذت الدراسات البيانية اتجاهاً متقابلين^(٣)، أحدهما اهتمّ ببحوث إعجاز القرآن الكريم
بخاصة، وهذا الجانب سيتناوله البحث بالدراسة، كالرمانى^(٤) (ت ٣٨٤هـ)، والخطابي^(٥) (ت
٣٨٨هـ)، والباقلاني^(٦) (ت ٤٠٣هـ)، وغيرهم كثير، فقد أولوا البلاغة القرآنية دراسة خاصة، سعيّاً

فالمقصود: وما مثله في الناس، حي يقاربه إلا مملّكا أبو أمه _ والضمير للمملّك _ أبوه، يعني: وما مثله في الناس أحد يشبهه في
الفضائل إلا هشاماً. ينظر: التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: عبد الرحمن البرقوقي، ط ١ (دار الفكر العربي،
١٩٠٤م) ص ٣٠، والإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٥ - ١٧.

١- الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٠.

٢- البلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس، ص ٥٨.

٣- ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس، ص ٧٢ - ٧٣.

٤- هو: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرّمّاني، أصله من سامراء، وُلِد وتوفي في بغداد، وهو نحوي من كبار
النحاة، معتزلي مفسر، وكان يمزج كلامه بالمنطق، له مصنفات في التفسير، واللغة، والنحو، والكلام، منها: (التفسير)،
(النكت في إعجاز القرآن)، و(شرح سيبويه)، و(صناعة الاستدلال)، توفي سنة ٣٨٤هـ. ينظر: نزهة الألباء في طبقات
الأدباء، الأنباري، ٢٣٣/١، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٢٩٩/٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي،
١٦ / ٥٣٣ - ٥٣٤، والأعلام، الزركلي، ٤ / ٣١٧.

٥- هو: حمد بن محمد بن إبراهيم، أبو سليمان الخطابي، الإمام الحافظ اللغوي، كان فقيهاً شافعيّاً أديباً محدّثاً، له تصانيف كثيرة،
منها: (غريب الحديث)، و(معالم السنن في شرح سنن أبي داود) و(بيان إعجاز القرآن)، توفي سنة ٣٨٨هـ. ينظر: إنباه الرواة
على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، ط ١ (دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٢م) ١ / ١٦٠، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء
الزمان، ابن خلكان، ٢ / ٢١٤، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، ت: بشار عواد معروف،
ط ١ (دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م) ٨ / ٦٣٢ - ٦٣٣، والأعلام، الزركلي، ١٧ / ٢٣ - ٢٤.

٦- هو: محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر الباقلاّني، ولد بالبصرة، وسكن بغداد وتوفي فيها، كان قاضياً، ومن كبار علماء
الكلام، وهو أشعري، صنف في الرد على المعتزلة وغيرهم، له تصانيف كثيرة، منها: (إعجاز القرآن) و(الاتصاف) توفي سنة

منهم في خدمة القرآن الكريم، وإظهار معانيه، والكشف عن أسرار بيانه، ومعرفة وجه الإعجاز فيه، حتى تتَّوجت دراساتهم وأبحاثهم وبلغت ذروتها على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني^(١) (ت ٤٧١هـ) متمثلة في نظرية النظم.

أمَّا الاتجاه الثاني فكان عن البيان بعامة، ولم يقتصر على بحوث الإعجاز، ومن رواد هذا الاتجاه، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)^(٢)، وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)^(٣)، وابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)^(٤)، وغيرهم.

- نظرية النظم:

١- النظم لغة: النون والطاء والميم: أصل يدلُّ على تأليف الشيء، فالنظم: التأليف، نَظَّمَهُ ينظِّمُهُ نَظْماً ونِظْماً، ونَظَّمَهُ فانتظم وتَنَظَّمَ، ونَظَّمْتُ اللؤلؤ أي جمعته في السلك، ومنه نَظَّمْتُ الشعر،

٤٠٣هـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٢٦٩/٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٧/ ١٩٠- ١٩٣، والأعلام، الزركلي، ١٧٦/ ٦.

١- هو: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، كان عالماً شافعيّاً أشعريّاً، من أئمة اللغة، أنضح علمي المعاني والبيان، تتلمذ على خال أبي علي الفارسي (أبي الحسين الفارسي)، وله مؤلفات عديدة، منها: (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، و(العوامل المثة في النحو، وله (المغني) في شرح الإيضاح، وغيرها، توفي سنة ٤٧١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٨/ ٤٣٢- ٤٣٣، والأعلام، الزركلي، ٤/ ٤٨- ٤٩، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، د.ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت) ٣١٠/٥.

٢- هو: الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال، العسكري، كان تاجراً عالماً بالأدب، وله شعر، وهو صاحب تصانيف كثيرة، منها: (الصناعتين) في النظم والنثر، و(التلخيص) في اللغة، و(المحاسن) في تفسير القرآن، اختلف في تاريخ وفاته، وذكر البعض أنها بعد الأربعمئة. ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، ٤/ ١٨٩، وتاريخ الإسلام، الذهبي، ٩/ ٣٣٨، وطبقات المفسرين، السيوطي، ت: علي محمد عمر، ط: ١ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ) ٤٣/١، والأعلام، الزركلي، ٢/ ١٩٦.

٣- هو: عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الحلبي، كان شاعراً أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري، وغيره، له كتاب (سر الفصاحة)، توفي سنة ٤٦٦هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٤/ ١٢٢.

٤- هو: محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، نصر الله أبو الفتح، الملقب بضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، له عدة مؤلفات منها: (المثل السائر) و(كفاية الطالب). ينظر: الأعلام، الزركلي، ٨/ ٣١.

ونظّمته، والنّظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره...، ونظام كلّ أمرٍ ملاكته^(١)، ومن المجاز: نظّم الكلام، وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره^(٢).

٢- النظم اصطلاحاً: إذا كان تأليف الكلام بعضه إلى بعض يُسمّى نظاماً في اللغة، فليس هكذا في الاصطلاح، إذ ليس أيُّ توالٍ للألفاظ في النطق يسمّى نظاماً، بل لا بدّ من تناسق دلالتها، وتلاقي معانيها، على الوجه الذي يقتضيه العقل^(٣).

فالنظم، هو: "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"^(٤). ويتم هذا التأليف والترتيب عن طريق توجّهي معاني النحو (العلاقات القائمة بين الكلمات والتراكيب) في الكلام، أي: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تخلّ بشيء منها"^(٥).

فالنظم انعكاس للأفكار التي في النفس، تكون مرتّبة فيها، فتأتي الألفاظ مع قواعد النحو وطُرقه في تقرير الكلام، من حذف وإثبات، وتقديم وتأخير، وغير ذلك... يدعم بعضها بعضاً لتعطي الصورة المرادة طبقاً لما هي عليه في النفس^(٦). فيمكن جعله من لبنتين، الأولى: أن يكون النظم موافقاً

١- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، د. ط (دار الفكر، ١٣٩٩هـ) (مادة نَظَمَ ٥ / ٤٤٣)، ولسان العرب، ابن منظور، ط ٣ (بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ) (مادة: نَظَمَ ٦ / ٤٤٦٩).

٢- أساس البلاغة، الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط ١ (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ) (مادة نَظَمَ ٢ / ٢٨٤).

٣- ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، د. ط (القاهرة، مكتبة الخانجي، د. ت) ص ٤٩-٥٠.

٤- التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، ط ١ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ) ص ٣١٠.

٥- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ٨١.

٦- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، ص ٥٠٧.

لقواعد النحو، والثانية: أن يكون نظاماً دقيقاً، بحيث ترتّب المعاني في النفس أولاً، ثمّ تضع لها ما يناسبها من الألفاظ وفنون القول المنسجمة مع قواعد النحو، لتتفقّ مع تلك المعاني^(١).

فالنظم ترتّب المعاني في الألفاظ، على وفق ما هي عليه في النفس.

فهو أولاً: معنى مرتّب في النفس.

وثانياً: معرفة عميقة بطرق وفنون الكلام.

وثالثاً: استخدام هذه المعرفة للتعبير عن المعنى الدقيق وفق الصورة التي عليها في النفس.

هذه الخطوط العريضة لنظرية النظم، توضّحها معرفة نشأتها، وكيف تبلورت حتى صارت إلى ما

صاغها عليه الجرجاني.

٣- نشأة نظرية النظم:

إنّ اهتمام اللّغويين والنحاة بقضيّة تأليف العبارة، ودلالاتها على معناها، وأنّ ما يعتريها من صحّة وفساد يرجع إلى العلاقات القائمة بين وحدات السياق، يمكن عدّه البذور الأولى لنظرية النظم. وخير مثال على هذا ما قدّمه سيبويه^(٢) (ت ١٨٠هـ)^(٣) في "الكتاب" تحت عنوان (باب الاستقامة من الكلام، والإحالة)^(٤).

وأمر آخر كان سبباً قوياً لتناول النظم القرآني بالبحث، ألا وهو القول بالصّرفة، وكما هو معروف فقد تحدّى الله ﷻ العرب أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فعجزوا أن يأتوا بمثله، وظهر من قال إنّ سبب الإعجاز في القرآن الكريم هو صرف الله ﷻ العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها. وبهذا يكون

١- ينظر: إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، د.ط (دار الكندي، إربد، ١٩٩١م) ص ٦٩.

٢- هو: عمرو بن عثمان بن قنبر، الفارسي ثم البصري، أبو بشر، الملقب بسيبويه، وهو إمام النحو، وحجة العرب، أول من بسط في علم النحو فألف (الكتاب)، أخذ اللغة عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ودرس الفقه والحديث، توفي سنة ١٨٠هـ. ينظر: طبقات النحويين واللّغويين، الزبيدي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (دار المعارف، د.ت) ٦٦/١، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأنباري ٥٤/١، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٤٦٣/٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ٨/٣٥١-٣٥٢، والأعلام، الزركلي، ٥/٨١، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٠/٨.

٣- ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، ص ١٢٠-١٢١.

٤- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، د.ط (دار الجيل، بيروت، د.ت) ١/٢٥.

النظم بذاته ليس معجزاً، ويكون بمقدور العرب أن يأتوا بمثله إلا أن الله تعالى صرف همّتهم عن ذلك. وكان النّظام (ت ٢٣١هـ)^(١) صاحب فكرة القول بالصرفة، إذ رأى أن إعجاز القرآن إنما هو "من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبراً وتعجزاً، حتى لو خلّاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً"^(٢).

من هنا اتجه البحث في إعجاز القرآن إلى التماس وجهه في ذات القرآن الكريم، وأنّ الصرفة لا تستقيم وجهاً للإعجاز، وشرعوا في الدفاع عن نظم القرآن الكريم وبلاغته، وأول من تصدّى للنّظام تلميذه الجاحظ^(٣).

أولاً_ النظم عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ):

كان يرى أنّ البحث في الإعجاز يكون بالنظر إلى ذات القرآن الكريم، بما حواه نظمه من روعة، وبديع تأليف، بصرف النظر عن المعاني التي حملها^(٤). وكتابه المفقود (نظم القرآن) "ألّفه في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه"^(٥)، فما النظم الذي أراده؟ يتحدث الجاحظ عن القرآن الكريم، فيقول: "في كتابنا المنزل الذي يدّئنا على أنّه صدق نظمه البديع"^(٦). إذاً فقد ذهب الجاحظ إلى أنّ نظم القرآن البديع أي تأليفه البديع، هو مناط الإعجاز الدالّ على صدقه، ولكنّه لم يبيّن لنا

١- هو: إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النّظام، من أئمة المعتزلة، وإليه تنسب فرقة النّظاميّة، كان شاعراً أديباً بليغاً، متبحراً في علوم الفلسفة، توفي سنة ٢٣١هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ١/ ٤٣، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٣٧/١.

٢- الملل والنحل، الشهرستاني، د.ط (مؤسسة الحلبي، د.ت) ١/ ٥٦ - ٥٧. وينظر: مقالات الإسلاميين، الأشعري، ت: هلموت ريتز، ط ٣ (دار فرانز شتايز، ألمانيا، ١٩٨٠م) ص ٢٢٥.

٣- ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ط ٢ (دار قتيبة، دمشق، ٢٠١٣م)، ص ٨٩.

٤- يظهر هنا ردّه على النّظام الذي جعل الإعجاز في المعنى (الإخبار عن المغيبات)، وأنّ النظم القرآني بذاته ليس معجزاً. ينظر: نظرية عبد القاهر في النظم، درويش الجندي، د، ط (مكتبة نخضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م) ص ٢٢.

٥- الحيوان، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، ط ٢ (مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٥م) ١/ ٩.

٦- الحيوان، ٤/ ٩٠.

كيف يكون بديعاً^(١)، فقد كان همُّه متَّجهاً إلى بيان أن تأليف القرآن مخالف وغريب عما عرّفته العرب في طرق تأليفها، بالقدر الذي بَهرهم وخطف أسماعهم لعدوبته، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله مع تمكُّنهم من أدواته، فهم البلغاء الفصحاء — وهذه سنة الله تعالى في معجزات أنبيائه، حيث يرسلهم بأشهر ما برع به القوم المرسل إليهم، ليكون أقوى حجّة — أمّا النظم فـ "ظلّ عنده ملتقاً بشيء من الغموض، فهو لم يعرفه، ولم يشرح خصائصه ...، لا في التعبير القرآني، ولا في المختار من أساليب العرب، ولم يبيّن قصده من (بديع تركيبه) وكيف جاء بديعاً؟"^(٢) ولكن هكذا هي البدايات، فهو أول من قال بالنظم القرآني، ثمّ جاء من بعده وأضافوا على ما قاله الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، حتى أصبحت نظرية واضحة المعالم على يد الجرجاني (ت ٤٧١هـ).

ثانياً_ النظم عند الخطابي (ت ٣٨٨هـ):

مع توالي الأزمان كان لا بدّ للبحث في إعجاز القرآن الكريم أن يتعمّق، وبالتالي فإنّ معالم نظرية النظم أخذت بالتكوّن، وكان للخطّابي دور بارز في مسيرة هذا التكوّن، حيث أفرد لدراسة إعجاز القرآن الكريم رسالة مستقلة حملت اسم (بيان إعجاز القرآن) ورأى فيها أنّ الكلام المحمود له مراتب:

- ١- منها البليغ الرصين الجزل.

- ٢- ومنها الفصيح القريب السهل.

- ٣- ومنها الجائز الطلّق الرّسل.

وبلاغة القرآن الكريم "حازت من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّة، وأخذت من كلّ نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمضادين، لأنّ العدوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كلّ واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ

١- ينظر: نظرية عبد القاهر في النظم، درويش الجندي، ص ٢٣.

٢- الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ص ٩٤.

بها القرآن^(١). ويزيد كلامه وضوحاً، فيقرّر أنّ الكلام يقوم على ثلاثة أشياء، اجتمعت في القرآن على غاية الشرف والفضيلة، وهي: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، لكنه لم يوضح "العلاقات الإسنادية والتعالقية للكلام التي اتسع مجال بحث النظم فيها عند من تلاه"^(٢) مثل الجرجاني على وجه التحديد.

واهتمام الخطابي بالألفاظ لم يكن من حيث نغمتها وجرسها، وإنما اهتم بدلالاتها على المعنى المراد، ويبيّن أنّ عمود البلاغة وأساسها أن يُوضَعَ للمعنى اللفظ الخاص به، الذي يدلُّ عليه دلالة تامة، فبِسِحْرِ القرآن يكمن في أنّ كلّ لفظة منه لا يصلح مكانها غيرها، وهذا الائتلاف والتلاحم والتناغم بين عناصر الكلام الثلاثة، يتولّد عنه ما أسماه الخطابي بالتأثير النفسي للقرآن الكريم^(٣).

والمدقّق في الأمر، يرى كلّ فنون البلاغة داخلية في الرباط الجامع (النظم)، وإن لم يصرّح بها الخطابي^(٤)، وبهذا تكون جهوده في تسليط الضوء على النظم خطوة كبيرة، استثمرها بعناية من جاء بعده، ووصل بها الجرجاني إلى مرحلة الصياغة النظرية الدقيقة، المقرونة بالتفاصيل العلمية المستوعبة لكلّ صور النظم وأساليبه، ومن جملة بطبيعة الحال أسلوب التقديم والتأخير.

١- بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ت: محمد خلف الله أحمد ود. محمد زغلول سلام، ط ٣ (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م)، ص ٢٦.

٢- مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، رسالة دكتوراه إعداد: عبد الله بانقيب، إشراف: أ.د محمد توفيق محمد سعد (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨م) ص ١٧٣.

٣- ينظر: إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس، وسناء عباس، ص ٥١، والإعجاز البلاغي للقرآن الكريم عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ص ١٣٣ - ١٣٤.

٤- ينظر: الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية في تراث أهل العلم، د. محمد محمد أبو موسى، ط ٢ (القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٧م) ص ٤٣، ١٠٠، ١٠١، والخطابي والإعجاز القرآني، عبد العاطي محمد شلبي، ط ١ (المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٦م) ص ١٥٥.

ثالثاً_ النظم عند الباقلائي (ت ٤٠٣هـ):

إنَّ الباقلائي جعل النظم وجهاً من وجوه الإعجاز عنده، وقد توسَّع في شرحه وتناول فنون البديع من الكلام بالشرح والبيان، وقسم الوجوه البلاغية قسمين: "منها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمُّل له، ويدرك بالتعلُّم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به. وأمَّا ما لا سبيل إليه بالتعلُّم والتعمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدلُّ على إعجازه"^(١)، فالقرآن الكريم لا يستشعر بلاغته إلا "من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وُسع المتكلِّم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة... كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيِّد والردِّيء، والفصيح والبديع"^(٢). فهو لا ينكر تأثير هذه الوجوه جملة "متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع، والتعمل المستشنع"^(٣).

أمَّا المعاني التي ذكرها في سبيل الكشف عن بديع نظم القرآن الكريم، فيمكن إجمالها فيما يأتي:

- ١- ما يرجع إلى القرآن الكريم جملة: فهو ليس بسجع ولا شعر ولا كلام مقفًى، وإمَّا كلام خارج عن أصناف كلام العرب، وأساليب كلامهم، ولن يستطيعوا الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].
- ٢- كون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن الثابتة من أوَّله إلى آخره: فيتميز الحكيم منهم والبلغ بشيء يثني عليه به، مع عدم خلو باقي كلامه من تكلف وغيره، فقد يبرع شاعر في المديح ولا يقدر على الرثاء، وهكذا كلُّ يبرز في موضوع، ولكلِّ اختصاص وتوجُّه، وهذا لا يوجد في القرآن الكريم على طوله، إذ هو في أعلى درجات البلاغة، فلا تفاوت في نظمه مهما تنوعت المواضيع، من عظات إلى قصص السابقين وأخبارهم، وما حواه من تكاليف وتشريعات وغير ذلك.

١- إعجاز القرآن، الباقلائي، ت: السيد أحمد صقر، د.ط/ت (دار المعارف، مصر) ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

٢- إعجاز القرآن، الباقلائي، ص ١١٣.

٣- إعجاز القرآن، الباقلائي، ص ١١٢.

٣- كون كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً ظاهراً في العلو والنزول...: فلا يحسن الانتقال من موضوع إلى غيره، فيحدث التنافر، أمّا القرآن الكريم فمؤتلف كلّهُ على اختلاف مواضيعه وتنوعها.

٤- اشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب، مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم.

٥- تضمن القرآن ما يمتنع على البشر من المعاني، في أصل وضع الأحكام والقواعد، فجاءت أبدع المعاني تحملها أبدع الألفاظ^(١).

إذاً القرآن الكريم عند الباقلاني معجز بنظمه، كما قال بذلك من سبقه (الجاحظ والخطابي) إلا أنّه حاول أن يكشف عن معالم هذا النظم ويبيّن السرّ فيه، فوسّع البحث فيه، لكنّه لم يستطع أن يفسّره تفسيراً دقيقاً، ويجلّيه بوضوح، بل أرجع المسألة إلى الإحساس والذوق^(٢).

وليميز نظم القرآن عن الكلام الفصيح، عقد موازنة بين الشعر والقرآن الكريم، فجاء بمعلّقة لامرئ القيس^(٣)، وقصيدة للبحتري^(٤)، ووقف على ما فيهما من مزايا وعيوب، ثم اختار سورتي النمل والإسراء، فحلّلتهما، وكشف عن جمال الصنعة فيهما وبديع التأليف، وهو في عمله "لا يضع الرسوم والحدود والتعاريف لهذه الخصائص التي يذكرها، ... [وإنّما] يستعيض عنه بوضع اليد على تلك الخصائص ممثلة في النصوص الأدبية، وتلك طريقة المتذوقين"^(٥).

١- ينظر: إعجاز القرآن، ص ٣٥-٤٧.

٢- ينظر: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، عزيز الخطيب، ص ١٤٠، والبلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ط ٩ (القاهرة، دار المعارف، د.ت) ص ١٠٩، والباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، عبد الرؤوف مخلوف، د.ط (دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م) ص ٥٠٤.

٣- هو: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، اشتهر بلقبه، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وهو أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، توفي سنة ٨٠ ق هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٢/ ١١-١٢، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٣٢٠/٢.

٤- هو: الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، شاعر كبير، وهو أحد أشعر ثلاثة من أبناء عصرهم (المتني، وأبو تمام، والبحتري) ولد وتوفي في منبج، له ديوان شعر، وكتاب (الحماسة)، توفي سنة، ٢٨٤ هـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٢١/٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٣/ ٤٨٦-٤٨٧، والأعلام، الزركلي، ٨/ ١٢١، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٧٠/١٣-١٧١.

٥- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص ٥١٦.

ويمكن إجمال وجهة نظر الباقلاني — بعد أن جعل (النظم) هو الوجه لإعجاز القرآن الكريم— بثلاثة أمور، أولها: أنَّ نظم القرآن على طوله لا يحوي أي تفاوت مُخِلٍّ.

ثانيها: أنَّ نظم القرآن ورد على غير المعهود من كلام العرب.

ثالثها: أنَّ الناقد البارِع هو من يستطيع التمييز بين كلام الخالق، والرائع من كلام المخلوقين، فيتحول الأمر إلى مسألة الإحساس والذوق والتأثير النفسي^(١).

رابعاً_ النظم عند القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ)^(٢):

أفرد القاضي الجزء السادس عشر من كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) بالحديث عن إعجاز القرآن الذي جعله في النظم.

وقد نظر القاضي عبد الجبار إلى النظم بمفهوميّه (العام والخاص)، بمفهومه العام: الذي هو بمعنى الأسلوب والطريقة، فطريقة القرآن مباينة لطرق العرب في الشعر والنثر. وبهذا المعنى لا يقع النظم محلاً لتفسير الإعجاز به فـ"ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأنَّ الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية في الفصاحة، [فيفاضل كاتب على كاتب، مع اتحاد طريقتهما]"^(٣). وهو النظم المخصوص

١- ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط ٤ (دار

الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م) ص ٣٤٩، ٣٥٣-٣٥٤.

٢- هو: عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، أبو الحسن الهمداني، كان فقيهاً شافعيّاً، متكلماً من شيوخ المعتزلة، ولي القضاء بالري، وله تصانيف كثيرة، منها: (المغني في أبواب التوحيد والعدل) و(تنزيه القرآن عن المطاعن) و(شرح الأصول الخمسة)، توفي سنة ٤١٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٧/ ٢٤٤-٢٤٥، وطبقات الشافعية، الإسنوي، ١/ ١٧٣-١٧٤، وطبقات المفسرين، السيوطي، ١/ ٥٩، والأعلام، الزركلي، ٣/ ٢٧٣، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٥/ ٧٨-٧٩.

٣- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، ت: أمين الخولي، دون بيانات ١٦/ ١٩٧. والفصاحة عنده لا تظهر "في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدَّ مع الضم أن يكون لكلِّ صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون: بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون: بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون: بالموقع... ولا بدَّ من هذا الاعتبار في كلمة، ثمَّ لا بدَّ من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض". المغني ١٦/ ١٩٩.

الذي قال به أستاذه أبو هاشم الجبائي^(١) (ت ٣٢١هـ)، فقد حصر الفصاحة باللفظ الجزل والمعنى الحسن، ورفض أن يكون النظم أي: أسلوب القرآن وطريقته المباشرة لطريقة الشعر والنثر، مفسراً للفصاحة^(٢).

وبمفهومه الخاص: الذي هو الضمُّ على طريقة مخصوصة. وهذا هو المعنى الذي يقع به الإعجاز، وهو المراد عند التحدث عن النظم. فيكون لكل كلمة صفة باعتبار ثلاثة أحوال: بالمواضعة، وبالإعراب، وبالموقع، ثم تُراعى هذه الأحوال في الكلمات بعضها مع بعض^(٣). "فهو معنيٌّ بالعلاقات الداخلية والتركيبية التي يتكون منها البيان، لذا... يرفض أن يكون مرجع البيان إلى جنسه أو الطريقة العامة التي يرد بها، سواء أكانت قصيداً أم رَجْزاً، أم خطباً"^(٤)

وقد اقترب عبد الجبار من نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، فعبد الجبار لا يريد بالإعراب مجرّد الحركات الظاهرة للكلمات، وإنما عني النظام النحويّ للكلام^(٥). والمواضعة: هي ما تدلُّ عليه الكلمة من معنى وضعه أهلها، والموقع: هو رتبة الكلمة بين أخواتها، من تقديم وتأخير، فاختيار الكلمة في ذاتها ووضعها في اللغة، ثم اختيار المهمة التي تؤدّيها في سياق الكلمات، وتركيب الجمل التي ترتبط بها، ثم اختيار وضعها ومكانها المناسب لها، لتقوم فيه بأداء وظيفتها على أتم وجه وأحسنه^(٦) وتضافر

١- هو: عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي، أبو هاشم، كان هو وأبوه من شيوخ المعتزلة، من كتبه: (الجامع الكبير) (العرض)، توفي ببغداد سنة ٣٢١هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣/ ١٨٣-١٨٤، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٥/ ٦٣-٦٤، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٥/ ٢٣٠.

٢- ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن، عزيز الخطيب، ص ١٤٤.

٣- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ١١٦، والأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكوازي، ط ١ (بنغازي، دار الكتب الوطنية، ١٤٢٦هـ) ص ٢٤٧.

٤- مناهج التحليل البلاغي، عبد الله بانقيب، ص ٣٤٢.

٥- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ١١٧-١١٨.

٦- الإعجاز البلاغي في القرآن، عزيز الخطيب ص ١٤٥.

هذه الأحوال الثلاثة على مستويي الكلمة والجمله، هو النظم المقصود، وهو ليس إلا معاني النحو الذي هو النظم عند الجرجاني، وبه يقوم إعجاز القرآن الكريم^(١).

من هنا يظهر اهتمام عبد الجبار بالكلمة القرآنية في حال أفرادها، وفي حال نظمها مع غيرها من الكلام. وهي واقعة في كلا الحالين تحت ثلاثة أحوال^(٢):

- ١ - مفهومها في ذاتها (المواضعة): الذي تواضع عليه أهلها، والناطقون بها.
- ٢ - مفهومها في ذاتها حين تتداول عليها الحركات الإعرابية، فكونها فاعلاً مغاير لكونها تمييزاً، وهكذا..

- ٣ - مفهومها حين تأخذ مكانها في التركيب، فتتقدم أو تتأخر.
- فالكلام يتفاضل عند القاضي حسب تأليفه، ومراعاة الأمور الثلاثة المذكورة، وحال الكلام كحال النسيج مثلاً، يفضل بعضه بعضاً بعمل النسيج فيه وتفننه في إدخال الألوان وتلاحمها.
- والناظر في تفسير عبد الجبار للنظم يُدرك مدى تأثر عبد القاهر به، فقد كان كالباب الذي وجه عبد القاهر ليرتب فيه نظريته، ويكون النظم عنده هو: توخي معاني النحو في الكلام.
- إنَّ "جهد القاضي عبد الجبار في الإعجاز البلاغي سيظلُّ يُعتبر القنطرة التي أوصلت فكرة النظم ووجوه الإعجاز عامّة إلى ما هي عليه عند عبد القاهر والزمخشري"^(٣) إلا أنَّه غاب عن عمله الجانب التطبيقي لكلامه، فلم يُشفع نظريته بآيات يحللها ويبيّن من خلالها كلامه، فظلَّ عمله جانباً نظرياً، ولعلَّ سبب ذلك، أنَّ كلامه هذا "جاء ضمن مباحثه الكلامية التي حاول من خلالها ردّ مطاعن الملحدّين، والمشكّكين في إعجاز القرآن... فالتطبيق لا يكون إلا مع من آمن بالقرآن، واستقرَّ في

١ - مناهج التحليل البلاغي، عبد الله بانقيب، ص ٣٤٧.

٢ - ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ص ١٥٠.

٣ - الإعجاز البلاغي في القرآن، عزيز الخطيب، ص ١٤٨.

نفسه أنه معجز، عندها يأتي التطبيق ليكشف له وجه الإعجاز وكيفيته، أما مع من لا يؤمن فلا جدوى للتطبيق وبيان وجه الإعجاز"^(١).

خامساً_ النظم عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ):

لم يكن الجرجاني أول من تحدّث واعتنى بقضية النظم القرآني كما رأينا، إلا أنّ الفضل يرجع إليه في وضع القواعد العامّة لهذه النظرية، وتطبيقها على كثير من أبواب البلاغة، فهو لم يكتف بإشارات عابرة كما فعل السابقون^(٢). قرّر الجرجاني أنّ وجه إعجاز القرآن الكريم، إنّما هو النظم، وأنّ عجز العرب عن الإتيان بمثل كلام الله راجع إلى "مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة...، فبهرهم أنّهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها كلامها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أنّ غيرها أصلح منها مكاناً... بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، نظاماً والتثاماً، وإتقاناً وإحكاماً..."^(٣). ثمّ بيّن ماهية النظم الذي أراده، ففرّق بين نظم الحروف الذي يرجع إلى الكلمة كمفردة، ويأتي بحسب توالي حروفها في النطق، والنظم الذي يريده وهو الذي يأتي تبعاً للمعنى.

فنظم الحروف ليس محلاً للإعجاز، لأنّ الفضيلة لا تظهر بالكلمة كمفردة، وإنّما بحسب موقعها مع أخواتها في سياق الكلام، ومدى مطابقتها للمعنى المراد، "فلو كانت الكلمة إذا حسّنت حسّنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقّت المزيّة والشرف استحقّت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إمّا أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً"^(٤) والواقع بخلاف هذا.

١- مناهج التحليل البلاغي، عبد الله بانقيب، ص ٤٨٣.

٢- ينظر: أثر النحاة في البلاغة، عبد القادر حسين، (القاهرة، دار غريب، ١٩٩٨م) ص ٣٧٩.

٣- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ٣٩.

٤- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ٤٨.

فلفظ (الأخدع) في بيت الحماسة^(١):

تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُهَا
وَجَعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتاً وَأَخْدَعَا^(٢)

فإنَّ لها من الحسن والرونق، بخلاف ما هي عليه في قول أبي تمام (ت ٢٣١هـ)^(٣):

يا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعِيكَ، فَقَدْ
أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ حُرْقِكَ^(٤)

أمَّا النظم الذي يراه محلاً للإعجاز، فهو عندما يقترن فيه نظم الألفاظ بترتيب المعاني في النفس، فالأصل: "أنَّك تتوحَّى الترتيب في المعاني، وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعته الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنَّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنَّها خدَم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأنَّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"^(٥).

وفي طريقه لتأصيل نظرية النظم، أوضح علاقة الفكر باللغة، هل تتعلق بالألفاظ المفردة، أم بالمعاني والعلاقات بين الكلمات؟ فلا مزية للفظ عنده إلا من حيث إفادته لمعنى مراد من المتكلم، وهذا المعنى لا يُفاد إلا بوضع الكلمة في سياقها، وضَمَّ الكلام بعضه إلى بعض، ف"الألفاظ المفردة لم توضع لتُعرف

١- هو الشعر الذي غرضه الأساسي وصف البطولة، والوقائع الحربية، وإلهاب المشاعر في الإقدام والشجاعة. المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، ط ٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م) ص ٥٥٥.

٢- البيت للصَّمَّة بن عبد الله القشيري، في شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزي، ت: راجي الأسمر، ط ٢ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م) ٤٦٢/٢. والليت: صفحة العنق، والأخدع: عرق في العنق.

٣- هو: حبيب بن أوس بن الحارث، أبو تمام الطائي، كان شاعراً أديباً، فطناً فهماً، أحد أمراء البيان، ولد في سورية، ثم رحل إلى مصر فالعراق، وتوفي بالموصل، له شعر جميل، وتصانيف عديدة، منها: (فحول الشعراء) و(ديوان الحماسة)، توفي سنة ٢٣١هـ. ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأنباري، ١٢٣/١-١٢٤، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ١١/٢-١٢، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١١/٦٣-٦٤، والأعلام، الزركلي، ٢/١٦٥، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٨٣/٣.

٤- قاله مادحاً محمد بن الهيثم. ينظر: ديوان أبي تمام، ت: شاهين عطية، د. ط (المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٩م) ص ١٨٧. والحرق: الحمق.

٥- دلائل الإعجاز ص ٥٤.

معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد^(١). والضمُّ الذي يريده هو توجُّي معاني النحو في الكلام.

فالفكر يتعلَّق إذاً بما بين معاني الكلم من العلاقات، التي هي معاني النحو، فالفعل لا يضيف فائدة إلا إذا تعلَّق باسم، وكذلك الاسم لا يُتصوَّر منه فائدة إلا إذا أُعْمِل فيه فعل، فجعله فاعلاً أو مفعولاً، وغير ذلك مما يكون بين الكلم من علاقات، وهذا هو لبُّ نظرية النظم^(٢).

ومعاني النحو عند عبد القاهر درجتان:

١- "درجة تجري فيها معاني النحو في حدود الصحة المعروفة عند علماء النحو بالمعنى الشائع عند النحاة.

٢- ودرجة تجري فيها هذه المعاني في ميدان التخيُّر، وهو ما يمكن أن نسمِّيَه بالنحو البلاغي^(٣). والنظم يتعدَّى حدود الصحَّة والخطأ في التأليف، إلى درجة الفضائل والمزايا التي تكتسبها العبارات، بما يتناسب مع المقام الذي وردت فيه، وبحسب المعاني والأغراض التي سيق الكلام لأجلها^(٤). يقول عبد القاهر في ذلك: "أنَّه ليس إذا راقك التنكير في (سؤدد) من قوله: (تنقَّل في حُلُقي سؤدد)^(٥)، وفي (دهر) من قوله: (فلو إذ نبا دهر)، فإنَّه يجب أن يروقك أبداً، وفي كلِّ شيء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يسمَّ فاعله، في قوله: (وأُنكر صاحب)^(٦) فإنه ينبغي ألا تراه في مكانه إلا أعطيته مثل

١- دلائل الإعجاز، ص ٥٣٩.

٢- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ١٨٩، نظرية عبد القاهر في النظم، درويش الجندي، ٥٢.

٣- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، أحمد جمال العمري، د. ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م) ص ٢٤١.

٤- ينظر: نظرية النظم عند عبد القاهر، درويش الجندي، ص ٦٣-٦٤، ٩٦. والمباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، أحمد العمري، ص ٢٤١. والتفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، ص ٥١٩. والنظم القرآني وأثره في الأحكام، الصادق سالم أحمد الخازمي، ط ١ (المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس الغرب، ١٩٨٥م) ص ٤٢.

٥- البيت كاملاً: تنقَّل في حُلُقي سؤدد سَمَاحاً مُرَجَّى وبأساً مَهيباً، للبحراني في مدح الفتح بن خاقان وعتابه. ينظر: ديوان البحراني، ت: حسن كامل الصيرفي، ط ٣ (دار المعارف، القاهرة، د. ت) ص ١٤٩.

٦- البيت كاملاً: فلو إذ نبا دهرٌ وأُنكر صاحبٌ وسُلَّط أعداءٌ وغاب نصيرٌ. لإبراهيم بن العباس الصولي، في ديوانه في الطرائف الأدبية، لعبد العزيز الميمني، ص ١٣٢. ينظر: دلائل الإعجاز، البحراني، ت: محمود شاکر، حاشية ص ٨٦.

استحسانك ههنا، بل ليس من فضل ولا مزية، إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤمُّ^(١).

والمعنى الذي جعله عبد القاهر محوراً للنظم، هو المعنى المصوّر، أو معنى المعنى، أي: ليس هو مجرد المعنى الخام الذي يتبادر إلى أيّ عقل، وإنّما هو معنى عقلته من اللفظ، ثم أفضى بك إلى معنى آخر، تمّت قولبته في مجموعة عناصر أدبية، ضمن العلاقات النحوية، لتنعكس الصورة التي في نفس المتكلّم معنى بديعاً يفهمه ويضطرب له من يسمعه، وهو الأثر الذي يحدثه الكلام في نفس المخاطب^(٢).
فليس اللفظ وحده مراداً، ولا المعنى لوحده يؤدّي الغرض، وإنّما تضافرهما مع استخدام مختلف الأساليب (معاني النحو) يعطي معنى بديعاً مصوّراً، ولأجل الوصول إلى هذا المعنى (معنى المعنى) وضع عبد القاهر نظرية النظم تلك.

وبذلك يكون عبد القاهر قد أثبت أنّ إعجاز النص القرآني يكمن في نظمه وطريقة بنائه، من خلال تأسيسه لنظرية النظم، وجعلها أداة فعالة في الحكم والتقييم، فهي ليست كلاماً يصعب أو يتعذّر تطبيقه. وأيضاً ومن خلال استشهاديه وتحليله لجملة من الأشعار يكون قد وسّع نطاق نظرية النظم، لتشمل أيّ نصّ أدبي. فيمكن القول إنّ نظرية النظم شكّلت أساساً عميقاً للدراسات اللغوية الحديثة^(٣).

وقد تنوعت أساليب النظم القرآني وتعدّدت صوره، من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وإيجاز وإطناب، وغيرها من الأساليب التي تبصّر القارئ بروعة وبلاغة القرآن الكريم، وتحثّه على سبر أغوارها واستخراج مكنوناتها.

١ - دلائل الإعجاز، ص ٨٧.

٢ - ينظر: نظرية النظم عند عبد القاهر، درويش الجندي، ص ٧٤.

٣ - ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، ص ٥٠٠، ٥٢٩.

المبحث الثاني: موقع أسلوب التقديم والتأخير من النظم القرآني:

إنَّ أسلوب التقديم والتأخير يهتمُّ بطريقة ترتيب الكلام ليؤدِّي المعنى المراد حسب ما يقتضيه الحال، وجوهر نظرية النظم يقوم على دراسة طرق ضمِّ الكلام بعضه إلى بعض، فالتقديم والتأخير جزء لا يتجزأ من النظم. ولبیان موقع هذا الأسلوب من النظم ننظر في دراسة الجرجاني له، فهو أوَّل من توسَّع في شرحه من خلال وضعه لقواعد نظرية النظم.

أولاً: أسلوب التقديم والتأخير عند الجرجاني (ت ٤٧١هـ):

أعطى الجرجاني للدراسات البلاغية روحاً جديدةً، من خلال وقوفه على آراء أسلافه ومناقشتها "من منظور عقلي، خففت من صرامته روح أدبية أصيلة، وحسَّ لغويٌّ مرهف"^(١)، فهو أراد "أن يثبت جديداً في الوسيلة التي عند العرب، التي جاء بها القرآن، وذلك من خلال الحديث عن الوسيلة نفسها، ألا وهي (النظم)، فالنظم عنده وسيلة لفهم البيان القرآني، لا مجرد نظرية"^(٢). بمعنى أنَّه لم يدرس النظم لذاته كنظرية في الدراسات القرآنية أو الأدب، وإنما للكشف عن معاني القرآن الكريم باعتباره وسيلة وأداة لذلك.

تجسَّد ذلك في كتابه (دلائل الإعجاز)، فشرح فيه كثيراً من الفنون البلاغية، لم يقصد إلى التأليف فيها، وإنما هي عنده الطريق لفهم البيان القرآني^(٣)، فكان يأتي بأمثلة وشواهد، يبدأ بكلام العرب، ثمَّ يُتبعه بآيات قرآنية، "وذلك لأنَّ غايته شرح الآلة التي يعرفها العرب، ثمَّ يصل بين ما هم عليه من لغة، وما هي عليه لغتهم من تراكيب، ويقابل هذا الفهم بآيات تحمل الخصائص نفسها"^(٤).

١- التفكير البلاغي عند العرب، حمادي الصمود، ص ٥٩٨.

٢- ينظر: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، محمد بركات حمدي، ط ١ (دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م) ص ١٠٣.

٣- ينظر: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر، محمد بركات، ص ٣٦.

٤- معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر، محمد بركات، ص ١٠١.

وإذا قلنا إنَّ عبد القاهر استفاد من عبد الجبار في نظريته في النظم، فيمكن القول إنَّ الجديد الذي قدَّمه، كان في شرحه لكيفية معرفة وجه الإعجاز، واهتمامه بمعرفة المرء لسرِّ الإعجاب بالكلام، ونَبَّه إلى ذلك في كتابه، فقال: "ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمَّ تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"^(١)، ففي قوله (تنظر) فرَّق بين أن يروك الكلام، وبين أن تعرف الأسرار التي بها راقك، ولا يتأتى هذا إلا لمن صار العلم طبعهم وسجيَّتهم^(٢).

وقد تناول أسلوب التقديم والتأخير في دلائل الإعجاز، "فهو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرُّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتِّر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة"^(٣).

اتخذ من منهج النحوي منطلقاً له في دراسته، إلا أنَّه لم يكتف بالحكم على التركيب بالصحة أو الفساد، بل تعدَّاه إلى البحث عن العلاقات القائمة بين الكلمات، ورصد أدق الفروق والأغراض البلاغية، وكشف عللها، وجلَّى غوامضها، فبيَّن أن لكلِّ تركيب دلالته الخاصة به، التي يؤديها من خلال تلك العلاقات بين مفرداته^(٤).

ذكر الجرجاني أوجه التقديم، وهي عنده وجهان^٥:

الأول: تقديم على نية التأخير: وهو في كلِّ شيء أُقَرَّ مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، كتقديم الخبر على المبتدأ، والمفعول على الفاعل: مثاله: (منطلق زيد) و(ضرب عمراً زيد)، فكلُّ من (منطلق) و(عمراً) لم يخرجوا بالتقديم عما كانا عليه، فالأول خبر، والثاني مفعول به.

١- دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.

٢- ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر، محمد محمد أبو موسى، ط ١ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٨م) ص ٢٩.

٣- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١٠٦.

٤- ينظر: أثر النحاة، د. عبد القادر حسين ص ٣٩٧، ومناهج التحليل البلاغي، عبد الله بانقيب ص ٤٢٣، والحذف

والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني، ابتسام حمدان، ط ١ (دمشق، دار طلاس، ١٩٩٢م) ص ٥٣.

٥- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ١٠٦-١٠٧.

الثاني: تقديم لا على نية التأخير: وهو في كلِّ شيء انتقل مع تقديمه عن حكمه إلى حكم آخر، وجُعِلَ له إعرابٌ غير إعرابه،.. كجعل الخبر المقدم مبتدأ، ويكون ذلك في اسمين يحتمل كلُّ واحد منهما أن يكون مبتدأ والآخر خبراً له، كقولك: (المنطلق زيد) و(زيد المنطلق).

ثم نقل الجرجاني موقف النحويين من التقديم، وأنَّ جلَّ كلامهم دار حول التقديم للعناية والاهتمام، لكن الجرجاني لم يكتف بهذا السبب^(١)، وأشار إلى أنَّ هذا الأسلوب لم يأخذ نصيبه من الدراسة والتوضيح، ف"قد وقع في ظنون الناس أنَّه يكفي أن يقال: (إنه قدِّم للعناية، ولأنَّ ذكره أهم)، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ ولتخيُّلهم ذلك، قد صغرُ أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهَوَّنوا الخطب فيه"^(٢).

كما أكَّد على حتمية إفادة التقديم والتأخير لغرض بلاغي على أي وجه أتى، ولا يجوز أن يُفسَّر بأنَّه مجرد توافق رؤوس الآيات أو الأسجاع أو قوافي الشعر^(٣).

ثم شرع في بيان مواضع التقديم والتأخير، ليبين المعنى الذي يؤديه في كلِّ منها، فجعله في الاستفهام، وفي النفي، وفي الخبر، وفي مثل وغير، وأفرد فصلاً مستقلاً للحديث عن تقديم النكرة على الفعل والعكس.

وهو في كلِّ هذا يضع الأحكام لما يجب تقديمه وما يجوز، حسب المعنى المراد، وقد يُجمل كلامه في قاعدة عامَّة تشمل ما شرحه، ويوضح أغراض التقديم والتأخير، وإن كان لم يتوسع فيها، وتفصيل هذا كالآتي:

أولاً: التقديم والتأخير في الاستفهام: قسمه إلى قسمين:

١. التقديم والتأخير بين الاسم والفعل، والفعل ماضياً.

١- ينظر: البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد الأدبي، إعداد: عبد الله بانقيب، إشراف: د. صالح سعيد الزهراني (جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢م) ص ١٥٢-١٥٣.

٢- دلائل الإعجاز ص ١٠٨.

٣- ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر، محمد أبو موسى، ٣٠-٣١.

٢. التقديم والتأخير بين الاسم والفعل، والفعل مضارعاً.

القسم الأول: يجب فيه عند عبد القاهر تقديم ما الكلام متّجه إلى معرفته، ويكون الاستفهام فيه إما للتقرير، أو للإنكار والتوبيخ.

فإذا أردت السؤال عن الفعل تقدّمه، مثل: (أقلت هذا الشعر؟)، وإذا أردت التقرير بالفاعل قدمته، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، وجاء الجواب منه عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فلو أراد التقرير بالفعل، لكان الجواب: (فعلت)، أو لم أفعل^(١).

وإذا أريد إنكار الفعل أن يكون من أصله قُدم، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا لِّتَقُولُوا لَا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، فهذا ردٌّ على المشركين وتكذيب لهم في قولهم، وإذا أريد إنكار الفاعل، قُدم الاسم، كقولك: (أأنت قلت هذا الشعر؟!) إذا كان مما لا يصدر مثله من مثله.

وقد يقدّم الفاعل، ويكون المراد إنكار الفعل من أصله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا﴾ [يونس: ٥٩]، قدّم الاسم مع أنّ المراد إنكار الإذن من أصله^(٢). والغرض هنا تنبيه السامع إلى وجه فساد فعلهم، فيكون أبلغ في الردع، والمعنى: أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق ففعلتكم فيه ما فعلتم، هل الله أذن لكم بهذا؟! بل أنتم المفترون عليه جلّ جلاله، ف (أم) هنا منقطعة^(٣)، بمعنى بل الإضرابية، والاستفهام لاستنكار افتراءهم^(٤).

١- ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني ص ١١١-١١٣.

٢- ينظر: دلائل الإعجاز ص ١١٤-١١٥.

٣- أم المنقطعة: هي التي تكون لقطع الكلام الأوّل واستئناف ما بعده، ومعناها الإضراب. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني، ط ١ (دار القلم، دمشق، ١٩٩٦) ١/ ٥٦٤.

٤- ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ) ٦/ ١٣٤. والاستفهام الإنكاري: هو الذي يخرج فيه الاستفهام عن معنى الطلب، إلى معنى استنكار وقوع ما هو مُستفهم عنه

القسم الثاني: إذا كان الفعل مضارعاً فَرَّقَ فيه بين حالين، أن يراد بالفعل الحال، أو يراد به الاستقبال، ولكلٍّ دلالة.

فإرادة الحال تفيد التقرير بالفعل إن قُدِّمَ، فقولك: (أتفعل؟) تقرير بفعل هو يفعله، مع إيهامك عدم العلم بذلك.

وإن قُدِّمَ الاسم كان للتقرير بالفاعل، مع كون الفعل ظاهر الوجود، كقولك: (أأنت تفعل؟).

وإذا أريد بالمضارع الاستقبال، كان تقديم الفعل فيه لإنكاره، فأنت تزعم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون، مثال الأول، قول الشاعر:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالٍ؟^(١)

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل، وإنكار مقدرة على هذا الفعل^(٢).

ومثال الثاني: إنكار الفعل إذ إنه لا ينبغي أن يكون، ومنه قولك لمن يلقي بنفسه في المخاطر: (أُتخرج في هذا الوقت؟).

وإن قُدِّمَتِ الاسم فأنت تنكر أن يكون ممن يجيء منه الفعل، وأشار الجرجاني إلى أنَّ الأصل في الاستفهام الإنكاري، و"الذي هو محض المعنى: أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل،

في الظاهر. ينظر: علوم البلاغة (البدیع والبيان والمعاني)، محمد أحمد قاسم، ومحي الدين ديب، ط ١ (المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ٢٠٠٣م) ص ٢٩٧.

١- قاله امرؤ القيس، ينظر: ديوان امرئ القيس، ت: مصطفى عبد الشافي، ط ٥ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م) ص ١٢٥.

٢- ينظر: دلائل الإعجاز ص ١١٧.

ويرتدع...، إمّا لأنّه ادّعى القدرة على فعل لا يقدر عليه،... وإمّا لأنّه همّ بأن يفعل ما لا يُستصوب فعله...، وإمّا لأنّه جوّز وجود أمر لا وجود لمثله..^(١).

ونبّه في نهاية حديثه عن الاستفهام إلى أنّ تقديم المفعول كتقديم الفاعل، فإذا كان هو المراد بالكلام قدّم.

ثانياً: التقديم والتأخير في النفي:

تقديم الفعل بعد النفي، يفيد نفي فعل لم يثبت أنّه مفعول. كما هو الحال في الاستفهام، فلو قلت: (ما أكلتُ) نفيت عن نفسك فعل الأكل، دون أن يكون الفعل ثابتاً.

وتقديم الفاعل على الفعل بعد النفي، يفيد نفي فعل عن الفاعل، ثبت أنّه مفعول. كأن تقول (ما أنا أكلتُ) لمن وجد الطعام ناقصاً ويسأل عمن أكله، فالفعل هنا ثابت، أي أن هناك من قام بفعل الأكل، والحديث متجه إلى معرفة الفاعل فيقدّم.

وهنا أشار إلى صحّة أن يكون المنفي عامّاً في الوجه الأول، بخلاف الوجه الثاني، فيجوز أن تقول: (ما قلت شعراً قط) ولا يصحّ قولك: (ما أنا قلت شعراً قط)، ذلك لأنّه في الصورة الثانية، ينفي عن نفسه شيئاً، ويثبت له غيره، ومن المحال أن يكون هناك من قال كل شعر في الدنيا، لذلك لا تصح هذه الصورة^(٢).

فالقاعدة هنا، أنّ تقديم الاسم سواء أكان (فاعلاً أم مفعولاً) وتقديم الجار والمجرور، يدلّ على أنّ فعلاً قد وقع، أو أمراً قد طُلب فعله، أمّا تقديم الفعل، فيفيد مجرّد النفي، ولا يدلّ على ثبوت شيء آخر. فقولك: (ما ضربت زيدا) يفيد نفي وقوع ضرب منك على زيد فقط، أمّا لو قلت: (ما زيدا ضربت) فيكون المعنى إثبات وقوع ضرب منك على أحد من الناس، ونفي أن يكون المضروب هو زيد.

١- دلائل الإعجاز ص ١١٩ - ١٢٠.

٢- ينظر: دلائل الإعجاز ص ١٢٤، وفصل الدليل ص ١٢٥ - ١٢٦.

وكذلك قولك: (ما أمرتك بهذا) يدلُّ على نفيك لأن تكون قد أمرته بشيء فقط. أما لو قلت: (ما بهذا أمرتك) فهنا نفي لأمرك له بما قام به من فعل، مع إثباتك أنَّك أمرته بشيء آخر.

ثالثاً: التقديم والتأخير في الخبر:

والخبر المنفي والمثبت هنا سواء، فما قيل في الموضوعين السابقين، من أنَّ التقديم يكون لما الكلام متجه إليه، يقال في موضع الخبر، إلا أنه يتميَّز عنهما من ناحية الغرض من تقديم الفاعل على الفعل، وذلك يكون لغرضين اثنين:

١. التخصيص، وذلك عندما " يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنصَّ فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أنَّه فاعله دون فاعل آخر"^(١). كقولهم: (أتعلمني بضبِّ أنا حرشته)، فهذا أفاد تخصيص القائل دون غيره باصطياد الضبِّ.

٢. تقوية الحكم وتأكيده، وذلك حين يكون قصدك "أن تحقق على السامع أنَّه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره..."^(٢)، استخلصه من كلام سيبويه، على تقديم المفعول على الفعل، ورفعته بالابتداء، وعبارته: "وإنَّما قلت عبدُ الله، فنَبَّهته له، ثمَّ بنيت عليه الفعل، ورفعته بالابتداء"^(٣)، فهذا التنبيه هو الذي أسَّس عليه عبد القاهر معنى التحقيق والتوكيد^(٤).

ثمَّ بيَّن الحالات التي يكون فيها تقديم الاسم على الفعل مفيداً تقوية الحكم وتأكيده، وهي:

١. إما أن يأتي الكلام في سياق الرد على إنكار منكر، فيقدم الفاعل لتأكيده، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. فهؤلاء الكاذبون لا يعترفون بكذبهم، وأبعد من ذلك هم لا يعترفون بعلمهم بالكذب، فأكد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

١- دلائل الإعجاز ص ١٢٨.

٢- دلائل الإعجاز ص ١٢٨ - ١٢٩.

٣- الكتاب، ١ / ٨١.

٤- ينظر: مدخل إلى كتابي عبد القاهر، محمد أبو موسى، ص ٣٢، ودلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١٣١.

٢. أو أن يعترض الكلام شك، فيُقدّم الفاعل لنفي الشك وتأكيد الخبر، أو يكون لتكذيب مدّع، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١]. فهم ادّعوا خروجهم بالإيمان، وهم كاذبون في ذلك، فأكد الله تعالى خروجهم بالكفر كما دخلوا به.
٣. أو يكون في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة، كقولك: (ألا تعجب من فلان؟ يدّعي العظيم، وهو يعي باليسير). أكد حاله بتقديم الاسم (الفاعل).
٤. أو لأنّ المعنى لا يستقيم إلا بتقديم الاسم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ وَلِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. فلو لم يقدّم الفاعل لغاب المعنى ولبهتت الصورة الجمالية.
٥. أو لتفخيم الكلام، ف "الشيء إذا أضمر ثمّ فسر، كان ذلك أفخم له من أن يُذكر من غير تقدمة إضمار"^(١)، فلا شك أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦]، أكثر فخامة ورونقاً من (فإن الأبصار لا تعمي). وهذا الحال في كل ما فيه ضمير الشأن^٢.
- وأشار إلى أنّ هذا النوع من التقديم يكثر في الوعد والضمّان، كقولك لأحدهم: (أنا أعطيك، أو أنا أقوم بهذا الأمر) إذ من شأن من تعدّه وتضمن له أن يعترضه ولو بعض الشك في حصول الموعد، فبالقديم يحصل التأكيد، ويكثر أيضاً في المديح، كقولك: (أنت تعطي الجزيل)^(٣).
- وقد وضع دستوراً يربط فيه بين الخبر والاستفهام، "فلا يجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام، معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر، وذاك أن الاستفهام، استخبار، والاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك"^(٤)، فبذلك ينطبق التفصيل الذي ذكره في حديثه عن الخبر، على الاستفهام أيضاً، ويكون له من المعاني والأغراض في التقديم، ما له في الخبر.

١- دلائل الإعجاز ص ١٣٢.

٢- هو الذي لا يعود على متقدّم، ويفسر بكلمة الحال أو الشأن. اللباب في قواعد اللغة، محمد علي السراج، ط ١ (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م) ص ١٤٣.

٣- ينظر: دلائل الإعجاز، ص ١٣٤.

٤- دلائل الإعجاز ص ١٤٠.

رابعاً: التقديم والتأخير في مثل وغير^١:

وهما اللذان يأتيان على غير معنييهما الأصليين، فلا يُراد بهما التعريض^(٢)، وإنما الكناية^٣، أي: يراد أنَّ من كان على الصفة التي هو عليها، كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر أو ألا يفعل^(٤)، فعندها يلزم فيهما التقديم، ولهما الصدارة في الجملة، وهذا مما هو ثابت في الطباع، أما السر البلاغي في لزوم تقديمهما، فهو أن التقديم أبلغ في الدلالة على المراد لما فيه من تقوية الحكم، والكناية أبلغ من التصريح فيما قُصد بها، واجتماعهما في (مثل وغير) يؤدي إلى تأدية المعنى من أبلغ طرقه، وهو التقرير والتثيت^(٥)، فالتقرير من تقوية الحكم بالتقديم الحاصل، وإيصال المعنى بطريق الكناية دون التصريح أرسخ وأثبت في النفس. ومثاله قول المتنبي^(٦) (ت ٣٥٤هـ):

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ
إن قاتلوا جُبُنُوا أو حدَّثوا شَجُعُوا^(٧)

أراد: أنَّه لا ينخدع، ولم يقصد التعريض بشخص آخر يُخدع، فكفى عن نفسه بقوله (غيري)، ليثبت ضدَّ الحكم المذكور^(٨).

١- ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١٣٨ وما بعدها.

٢- التعريض هو: اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط (المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م) ٢/ ١٨٦.

٣- الكناية، هي: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه حينئذ. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٢٤١.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: إبراهيم شمس الدين، ص ٦٢.

٥- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ص ٦٣، وأساليب المعاني في القرآن، السيد جعفر الحسيني، ط ١ (مؤسسة بوستان كتاب، ؟) ص ٣١٢.

٦- هو: أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي، الشاعر الحكيم، ولد بالكوفة، ونشأ بالشام، ثم تنقل في البداية طلباً للأدب وعلم العربية، وأيام الناس، طاف البلاد، وذاع شعره فيها، توفي سنة ٣٥٤هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٦/ ١٩٩ - ٢٠١، والأعلام، الزركلي، ١/ ١١٥.

٧- ديوان المتنبي، د.ط (دار بيروت، بيروت، ١٩٨٣م) ص ٣١١.

٨- ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ص ٢٩٨.

خامساً: تقديم النكرة على الفعل والعكس: فهو كغيره من حيث تقديم ما الحديث متجه نحوه، إلا أنه إذا قَدِّمت النكرة فإنه يراد بها بيان الجنس، أو بيان العدد (تبعاً)، ونفى الجرجاني أن يكون تقديم النكرة لقصد التنبيه، لأنَّ "التنبيه لا يكون إلا على معلوم... [ويكون ذلك كأنك تقول] إني أردت أن أتبه السامع لشيء لا يعلمه في جملة ولا تفصيل، وذلك ما لا يُشك في استحالته"^(١).

فصح الابتداء بالنكرة في مثل: (شرُّ أهرَّ ذا نابٍ) لأنَّ المراد أنَّ جنس الشرِّ لا الخير هو الذي جعل السبع يكثر عن أنيابه، وكذلك قولك: (رجلٌ جاءني) فالمراد بيان أنَّ الآتي رجل لا امرأة، أو أنَّه رجل لا رجلان.

من خلال هذه الدراسة التي تناولها الجرجاني، أثبت أنَّ "التقديم والتأخير لا يأتیان للاهتمام والعناية [فحسب]، وإنما لتحرير المعاني وضبطها"^(٢)، وبذلك يكون قد بيَّن أوجه العناية كما أراد من بحثه أن يكون.

ثانياً: أسلوب التقديم والتأخير عند علماء البلاغة بعد الجرجاني:

تتناول هذه المرحلة عالمن أكملًا طريق الجرجاني في بلاغته، وهما:

١- الفخر الرازي^(٣) (ت ٦٠٦هـ):

قام الرازي في كتابه (نهایة الإيجاز في دراية الإعجاز) بتلخيص ما توصَّل إليه الجرجاني في كتابيه (الأسرار والدلائل) لعظم مكانتهما، وعظيم فائدتهما، فبَوَّب أبحاثه، وأخرجها في صورة قواعد منضبطة، فغاب الحسُّ الذي أوجده الجرجاني فيها من خلال تطبيقاته، وغدا كتابه قواعد بلاغية

١- دلائل الإعجاز ص ١٤٥.

٢- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ١٧٣.

٣- هو: محمد بن عمر بن الحسن، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، عالم موسوعي، كان إماماً مفسراً وفقيهاً شافعيًا ومتكلماً، كتابه في التفسير (مفاتيح الغيب) دليل على سعة علمه وإطلاعه، ألَّف في مختلف الفنون، من ذلك: (نهایة الإيجاز في دراية الإعجاز) في البلاغة، و(المحصول في علم الأصول) و(معالم أصول الدين)، و(الملخص) في الحكمة، له شعر بالعربية والفارسية، توفي سنة ٦٠٦هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٤/ ٢٤٨-٢٥٢، والأعلام، الزركلي، ٦/ ٣١٣.

جافة^(١). وهذا رأي ارتآه بعض الباحثين، إلى أن جاء الأستاذ عزيز الخطيب واستطاع أن يثبت عكس ذلك، فالرازي كان الدارس الأمين الواعي الذي نقل تراث الجرجاني ووعاه، ومَحَصَه، فسرت روح الجرجاني في تطبيقات الرازي البلاغية، رغم مخالفته له بالترتيب والتبويب، فالرازي اتجه إلى التلخيص، وتبويب العلم على نحو فتح للسكاكي المجال ليُجْعَلَ البلاغة علماً يدرس على غير ما كانت عليه في دراسات السابقين^٢.

أمّا تقسيمه لموضوعات الكتاب، فجاء على نحو مهّد للسكاكي^(٣) (ت ٦٢٦هـ) تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة (المعاني، البيان، البديع)، حيث تكلم عن البلاغة في قسمين، قسم خاصّ بالمفردات، وقسم خاص بالتراكيب ونظم الكلام، فأطلق السكاكي على الأول، علم البيان، وعلى الثاني علم المعاني^(٤).

وجاءت دراسته للتقديم والتأخير في القسم الثاني من البلاغة، فلخصّ ما كتبه الجرجاني، وقسم وفرّع، كما أضاف أحياناً بعض الملاحظات، وخالف الجرجاني في مسألة تقديم عموم النفي (تقديم صيغة العموم على أداة النفي) فالجرجاني يرى أنّها لا تفيد في هذه الحالة العموم، أمّا الرازي فلا يرى حتمية هذا الحكم، واستشهد^(٥) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وعموماً فهذه مسألة منطقية، ولا فائدة بلاغية منها.

١- يُنظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ٢٧٥، ٢٨٦.

٢- ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب ص ٢٧٨ وما بعدها.

٣- هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي الخوارزمي، الحنفي، أبو يعقوب، كان عالماً بفنون العربية والأدب، وعلم الكلام، من أشهر مؤلفاته (مفتاح العلوم) في البلاغة، وله أيضاً (رسالة في علم المناظرة)، وُلد وتوفي بخوارزم (٥٥٥ - ٦٢٦هـ). ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ١٣ / ٨٢٨، والأعلام، الزركلي، ٨ / ٢٢٢، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٣ / ٢٨٢.

٤- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ٢٧٦، والبلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، ط ١ (منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م) ص ٢٤٩.

٥- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ٢٨٤.

٢- السكاكي (ت ٦٢٦هـ):

قَعَدَ السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) لمختلف علوم اللغة العربية (الصرف والنحو والبلاغة) أفرد لكلِّ لون فصلاً، وجاءت البلاغة في القسم الثالث من كتابه.

استفاد ممن سبقوه في الدراسات البلاغية، فكان عمله عبارة عن "ملخص دقيق لما نثره أصحابها، وما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار، وصاغ ذلك كلّ صياغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرته المنطقية، في التعليل والتسبيب وفي التجريد"^(١)، معتمداً على كتابي الجرجاني، وتلخيص الرازي لهما، بالإضافة إلى تطبيقات الزمخشري في تفسيره، وكان يذكرهم بقوله (علماء المعاني)^(٢).

اهتمَّ السكاكي بعلم المعاني، ورآه "علماً واسعاً جداً، ولا يمكن الإحاطة به أبداً، وذلك لأنَّ مبناه على التتبُّع لتراكيب الكلام واحداً فواحداً، والعثور على ما لكلِّ منها من لطائف النكت مفصَّلة"^(٣)، فقسمه قسمين: أحدهما للخبر، وثانيهما: للطلب، لكنَّه درس موضوعات الخبر بناءً على أركان الجملة، (المسند، والمسند إليه) فجاءت دراسته للتقديم والتأخير مفرقة حسب ما يمليه تقسيمه، وكان من الدقَّة أن يبحث كلّ موضوع في فصل واحد، فيجمع أوصاله^(٤)، وهذا على خلاف ما أصَّل له عبد القاهر الجرجاني، "فقد كان أكثر حرِيَّةً وانطلاقاً في بحثه، وأكثر تحليلاً واعتماداً على الذوق الأدبي"^(٥).

جعل السكاكي التقديم والتأخير مع الفعل، على ثلاثة أنواع: "أحدها: أن يقع بين الفعل وبين ما هو فاعل له معنى، كنحو: أنا عرفتُ، وأنتَ عرفتَ...

١- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ٢٨٨.

٢- ينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، خلدون صبح، ط ١ (دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٢م) ص ١١٣.

٣- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، ص ٣٠٥.

٤- ينظر: البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، ص ١٤٠-١٤٢.

٥- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، ص ٢١٥.

وثانيها: أن يقع بين الفعل ومعموله، كنعو: زيداً عرفْتُ، ودرهماً أعطيتُ...

وثالثها: أن يقع بين معمولات الفعل، كنعو: عرف زيد عمراً، وكسوت عمراً جبّة...^(١). وشرح كل نوع من هذه الأنواع ومثّل له.

فما يقتضي النوع الأول، هو: "وجود فعل وعالم به، لكنّه مخطئ في فاعله، أو في تفصيله، وأنت تقصد أن تردّه إلى الصواب، كقولك: أنا سعت في حاجتك...، تريد دعوى الانفراد بذلك وتقريراً للاستبداد، وتردّد بذلك على من زعم أنّ ذلك كان من غيرك، أو غيرك فعل فيه ما فعلت"^(٢).

ونحى أن يقال في النفي عند التقديم: ما أنا سعت في حاجتك، ولا أحد سواي، لاستلزام أن يكون سعى في حاجته غيرك لا أنت، وألا يكون قد سعى في حاجته أحد أبداً.

كما استهجن أن يقال: ما أنا رأيت أحداً من الناس، لاستلزام أن يكون قد اعتقد فيك، أنّك رأيت كلّ أحد في الدنيا، بخلاف قولك: ما رأيت أنا أحداً من الناس^(٣).

وكذلك فإنّ قولك: ما أنا ضربت إلا زيداً، أوّله يقتضي أنّك لم تضرب أحداً، والاستثناء يثبت ضربك زيداً، فلا يصح^(٤).

وما يقتضي النوع الثاني، هو: "أن يكون هناك من اعتقد أنّك عرفت إنساناً وأصاب، لكن أخطأ فاعتقد ذلك الإنسان غير زيد، وأنت تقصد ردّه إلى الصواب، فتقول: زيداً عرفْتُ، وإذا قصدت التأكيد والتقرير، قلت: زيداً عرفت لا غيره"^(١).

١- مفتاح العلوم، السكاكي، ط ٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م) ص ٢٣١.

٢- مفتاح العلوم، ص ٢٣١-٢٣٢، ويلاحظ الدكتور خلدون صبح استعمال السكاكي مفردات جديدة للبلاغة، (انفراد- تقرير استبداد)، ينظر: التقديم والتأخير في القرآن، خلدون صبح، ص ١١٢. والمقصود بالانفراد: الانفراد بالفعل وعدم مشاركة غيرك لك، وكذلك الاستبداد بهذا المعنى، وليست مفردات بلاغية.

٣- وهذا الرأي اعتمد فيه السكاكي على الجرجاني، عندما ناقش الموضوع في بحثه للاستفهام. ينظر: التقديم والتأخير في القرآن، خلدون صبح، ص ١١٠.

٤- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٣٢.

أما النوع الثالث فيقتضيه، كون العناية بما يقدّم أتم، وإيراده في الذكر أهم، وهي نوعان:

١- أن يكون أصل الكلام في ذلك هو التقديم ولا مقتضى للعدول عنه، كتقديم المبتدأ على الخبر، فهو الأصل.

٢- أن تكون العناية بتقديمه، والاهتمام بشأنه، لكونه نُصِبَ عينك... كقولك: وجه الحبيب أتمنى، في جواب من قال لك: ما الذي تتمنى؟ وبَيَّن ذلك في بعض الآيات الكريمة، منها: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، فذكر بعد المرفوع وما تبعه (نحن وآباؤنا) المنصوب (هذا)، وفي موضع آخر: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [النمل: ٦٨]، قدّم المنصوب لكونه منها أهم، ويوضح هذا ما جاء قبلها من كلام الله ﷻ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، والذي قبل الأولى، قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، فالجهة المنظور فيها هنا، هي كون أنفسهم تراباً وعظاماً، والجهة المنظور فيها في النمل: هي كون أنفسهم وكون آبائهم تراباً، ولا شبهة أنَّ الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث، لأنهم صاروا فيها إلى تراب، ولم يبق لهم فيها عظام^(٢).

وبَيَّن السكاكي الأسباب والأغراض التي يخرج إليها تقديم المسند إليه على المسند^(٣)، والتي تنبثق عنده عن الاهتمام والعناية، وهي:

— إمّا لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كقولك: (زيدٌ قائمٌ)، إذ ترتيب الكلام في اللسان العربي، أن يُبتدأ بالمسند إليه^(٤).

١- مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٣٣.

٢- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٢٣٦-٢٣٩، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، ١/ ٢٣٥.

٣- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ١٩٤-١٩٦.

٤- ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ١/ ٣٥٠.

— وإِذَا لَأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلِاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِكَ: أَيُّهُمْ مُنْطَلِقٌ؟، فَأَسْمَاءُ الِاسْتِفْهَامِ أَحَقُّ بِالْإِصْدَارَةِ.

— وإِذَا لَأَنَّهُ ضَمِيرُ الشَّانِ وَالْقِصَّةِ، كَقَوْلِكَ: (هُوَ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ).

— وإِذَا لَأَنَّ فِي تَقْدِيمِهِ تَشْوِيقاً لِلْسَامِعِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْدَرُ﴾ [الحجرات:

١٣]، "فَإِنَّ فِي الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (أَكْرَمَكُمْ) الَّذِي هُوَ اسْمٌ إِنَّ تَشْوِيقاً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الْخَبَرِ (أَتَقْدَرُ) فَإِذَا جَاءَ الْخَبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، تَمَكَّنَ مِنَ النَّفْسِ، لَأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ تَسْأُلِ نَفْسِي عَنْهُ"^(١).

— وإِذَا لَأَنَّهُ يَتَقَوَّى اسْتِنَاداً لِلْخَبَرِ إِلَيْهِ عَلَى الظَّاهِرِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ الْآسِنَتَهُمْ

بِالْكِتَابِ لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) جُمْلَةٌ حَالِيَةٌ قَدِّمَ فِيهَا الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ، لِأَنَّ مُقْتَضَى الْحَالِ يَسْتَدْعِي التَّقْوِيَةَ. فَالْآيَةُ ذَكَرَتْ فَعْلَهُمْ، بِأَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِهِمْ، وَيُوهَمُونَ النَّاسَ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَأْكِيدَ حَالِهِمْ وَتَقْوِيَتَهُ بِتَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ^(٢).

— وإِذَا لَأَنَّ اسْمَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ يَصْلَحُ لِلتَّفَاوُلِ أَوْ لِلتَّشَاوُصِ، فَتَقْدِمُهُ إِلَى السَّامِعِ لِتَسْرِعِهِ أَوْ تَسْوِئِهِ،

كَقَوْلِكَ لِأَحَدِهِمْ: (صَدِيقُكَ الْمُقَرَّبُ فِي الدَّارِ). وَإِذَا لَأَنَّهُ يَفِيدُ زِيَادَةَ تَخْصِيصٍ، كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي^(٣):

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جَسْمِي بِهِ وَمَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَاراً^(٤)

فَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْمُسَبَّوقِ بِالنَّفْيِ فِي كِلَا الشَّطْرَيْنِ، أَفَادَ التَّخْصِيصَ مَعَ التَّقْوِيَةِ وَالتَّوَكِيدِ.

١- البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ١/ ٣٧١.

٢- ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١/ ٣٦٩-٣٧٠.

٣- ينظر: ديوان المتنبي ص ٣٦٥.

٤- يقصد المتنبي الاعتذار لسيف الدولة عن تأخره في نظم قصيدة ليمدحه بها، وعذره أَنَّ مَا حَلَّ بِهِ وَأَخْرَهُ، إِنَّمَا هُوَ الْهَمُّ، الَّذِي لَيْسَ بِجَالِبٍ لَهُ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُ دَفْعاً. ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ٣٧٤-٣٧٥.

ونلاحظ هنا أنَّ السَّكَّاي لم يكتف بإرجاع سبب التقديم إلى الأهمية، وإنما كشف عن وجه الأهمية، فكشف بذلك عن أسرار هذا الأسلوب، كما فعل الجرجاني.

أما تقديم المسند على المسند إليه^(١): فإمَّا لكونه متضمِّنًا للاستفهام، مثل قولك: كيف زيد؟.

— أو أن يكون المراد تخصيصه بالمسند إليه، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، فهذه جملة اسمية الأصل فيها تقديم المسند إليه، لكنَّه أحر هنا وقدِّم المسند (لله) ليفيد التخصيص^(٢).

— أو أن يكون المراد التنبيه على أنَّه خبر لا نعت، كقوله تعالى في وصف عذاب الكافرين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، قدِّم المسند (لهم)، لئلا يُتوهَّم أنَّه صفة للمسند إليه^(٣).

— أو أن يكون المراد التشويق إلى ذكر المسند، كقول القائل:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر^(٤)

قدِّم المسند وهو نكرة، وأحر المسند إليه، لتشويق السامع لمعرفته، وذلك يكثر في المديح.

— أو أن يكون المراد بالجملة إفادة التجدد دون الثبوت، فيجعل المسند فعلاً، ويقدم البتة على ما يُسند إليه، وهذا باعتبارين:

١. أن يجري الكلام على الظاهر، (فأنا عرفت) مبتدأ وخبر، وهذا يفيد تقوي الحكم، فقوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، ليس المراد منه، أنَّ شيئاً سواهم لا يُخلق، إنما المراد تحقيق أنَّهم يُخلَقون.

١- ينظر: مفتاح العلوم، السَّكَّاي، ص ٢١٩-٢٢٣.

٢- ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١/ ٣٧٧.

٣- ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١/ ٣٨٠.

٤- قاله محمد بن وهيب في مدح المعتصم. ينظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١/ ٣٨١.

٢. أن يقدّر أصل النظم، فالأصل عرفت أنا، ثمّ يقال: قدم (أنا)، وبهذا الاعتبار يفيد التخصيص،

مثاله، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]،

المراد، لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على أسرارهم غيره، لإبطائهم الكفر.

"إنّ السكّاكي في حديثه عن التقديم والتأخير، يعتمد على المنطق والفلسفة، كما أنّه كان دقيقاً

محكماً، في أسلوبه وتقسيماته"^(١) مستفيداً ممن سبقوه في آرائهم، على الصعيد النحوي والبلاغي، كما

أنّه يستشهد بكلام العرب وأشعارهم، وبآيات القرآنية، فيكشف عن بلاغتها بتحليلها، إلا أنّ

تقسيمه للموضوع الواحد في عدة فصول، أمر أزال عن البلاغة الحس الذوقي، فصار قواعد جافة.

١- التقديم والتأخير في القرآن الكريم، خلدون صبح، ص ١١١.

الفصل الأول: أسلوب التقديم والتأخير:

- المبحث الأول: تعريف أسلوب التقديم والتأخير.
- المبحث الثاني: أغراض أسلوب التقديم والتأخير.
- المبحث الثالث: أنواع أسلوب التقديم والتأخير.

المبحث الأول: تعريف أسلوب التقديم والتأخير:

أولاً: تعريف الأسلوب:

١_ الأسلوب لغة:

هو الطريق الممتد، ويقال للسطر من النخيل أسلوب، فالأسلوب هو الطريق، والوجه، والمذهب، الذي يُؤخذ فيه، والأسلوب أيضاً هو الفن، يُقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي: في أفانين منه^(١)، ومن المجاز: سلّبه فؤاده وعقله، وهو مُستَلَب، وشجرة سليب: إذا أخذ ورقها وثمرها...^(٢). فمن سطر النخيل، إلى الطريق، فالطريقة والمذهب والفن، هكذا تتوسّع الدلالات في اللغة، والكلمة تصبح مصطلحاً له دلالة خاصة، ويؤلف في شرحه الكثير.

وقد توسّع الحديث عن الأسلوب، وصار القصد في الدراسة متّجهاً إليه، وتعدّدت التعريفات الموضّحة له، إلا أنّها تركز على ثلاث ركائز، فلا بدّ لأيّ تعريف أن يقوم على أحدها، أو عليها مجتمعة، وهي: (المتكلم، السامع، الكلام)^(٣). ومن هذه التعاريف ما يلي:

- الأسلوب، هو: الطريقة التي يسلكها صاحب الصنعة في صنعته^(٤). وهذا تعريف عام يدخل فيه الشعر والنثر، ويتناول الأسلوب الأدبي، والأسلوب العلمي على حد سواء. وإذا استثنينا البحث في الأسلوب العلمي إذ إنّهُ ليس محل هذه الدراسة، فننتقل إلى التعاريف التالية.

- الأسلوب، هو: "طريقة الأداء، أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه، أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللغوية، فهو ... طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه"^(٥).

١- ينظر: لسان العرب، (مادة سَلَبَ ١ / ٤٧٣).

٢- أساس البلاغة، الزمخشري، (مادة سَلَبَ ١ / ٤٦٨).

٣- ينظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، ٦٤ - ٦٥.

٤- البلاغة فنونها وأفنانها، فضل حسن عباس، ص ٦٥.

٥- الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ط ٨ (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،

من خلال هذا التعريف يتضح أنَّ الأسلوب لا يقتصر على العنصر اللفظي وحده، وإنَّما الجانب المعنى فيه الحيز نفسه^(١)، فالمتكلم يوصل المعاني المتمثلة في نفسه إلى السامع على نحو الوجه الذي يريده، وبالطريقة التي يراها ملائمة، بهدف إيضاح المعاني والتأثير في السامع.

— الأسلوب، هو: رصد النظام الذي تتشكّل عليه أجزاء القول، ويكون الكلام مرتباً على خلاف الترتيب المعتاد^(٢).

فالترتيب المعتاد لا يقدّم أسلوباً، وإنَّما الخروج عن المؤلف في التركيب لأداء غرض مقصود، ودلالة معيّنة، هو ما يسمّى أسلوباً^(٣).

وهذا تعريف أدق وأعمق، ففيه تتبّع لطرق الكلام، وملاحظة الخروج عن المؤلف المعتاد، حيث إنَّه محل عمل المبدع في كلامه، وهذا هو المراد بالأسلوب.

٢- الأسلوب القرآني:

وقد اهتم علماء الإعجاز (كالخطابي والباقلاني والجرجاني وغيرهم) بالأسلوب القرآني، من خلال دراستهم لخصائص كلام الله ﷻ، ومحاولاتهم الموازنة والتفريق بينه وبين أساليب الشعراء والبلغاء في كلامهم — كما سبق وذكرنا — للوصول إلى ما يميّز كلام الله تعالى من غيره، ومما قرّروه أنَّ أسلوب القرآن الكريم، الذي هو نظمه والطريقة المخصوصة التي تألفت فيها ألفاظه ومعانيه، هذا الأسلوب لا يقدر أحد من البشر وإن كان أفصح الناس، على الإتيان بما يمثله.

وأيضاً فإنَّ معيار التفاضل هو النظم أي الأسلوب، فيمكن القول إذاً إنَّ الأسلوب هو المحلُّ الذي يتفاضل فيه المبدعون في ترتيب معانيهم، فلكلِّ طريقته الخاصّة في التعبير، بما تحويه من إمكانات نحوية يتمييز بها أسلوب من أسلوب، وهو أيضاً الجانب الذي يتبيّن به إعجاز القرآن الكريم^(٤).

١- ينظر: الأسلوب، أحمد الشايب، ص ٤٠.

٢- ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ط ١ (بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٤م) ص ٣٣٧.

٣- ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص ٣٣٧.

٤- ينظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم الكواز، ص ٣٨ - ٤٠، والبلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص ٢٥.

والمتَّبِع لكلام الله تعالى يجد فيه العديد من الأساليب، منها ما أفردته هذه الدراسة بالبحث، وهو أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

ثانياً: تعريف التقديم والتأخير:

١- التقديم والتأخير عند المتقدمين:

- التقديم لغة: "القاف والبدال والميم، أصل صحيح يدلُّ على سبقٍ"^(١)، والمقدِّم في أسماء الله تعالى^٢: هو الذي يقدِّم الأشياء ويضعها في مواضعها، فمن استحقَّ التقديم قدَّمه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]^(٣)، أي يتقدَّمهم إلى النار، ومنه مقدِّمة الجيش للجماعة المتقدِّمة، ومن المجاز: قدَّم رجله في الأمر، إذا أقبل عليه، وتقدَّمت إليه بكذا، أي: أمرته به^(٤).

- التأخير لغة: "الهمزة والخاء والراء، أصل واحد إليه ترجع فروعه، وهو خلاف التقدُّم"^(٥)، والمؤخَّر هو الذي يؤخَّر الأشياء فيضعها في مواضعها، وهو ضد المقدِّم، والتأخير ضد التقديم، ويقال من باب الكناية: (أبعد الله الآخر)، أي: من غاب عنَّا وبُعِد، والغرض الدعاء للحضور^(٦).
وقد اهتم الدارسون في البلاغة العربية بهذا اللون البلاغي (التقديم والتأخير) وتناولوه بالشرح فيما يندرج تحت علم المعاني، وأيضاً في دراستهم للتراكيب البلاغية^(٧)، وهم وإن لم يهتموا بتعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً، فقد أوردوا أحواله، وأنواعه، وأغراضه، ومزاياه^(٨).

١- مقاييس اللغة، ابن فارس، (مادة قَدَمَ ٥ / ٦٥).

٢- ورد في صحيح البخاري، كتاب (الدعوات) باب (الدعاء إذا انتبه بالليل) حديث رقم ٥٩٥٨، دعاء النبي في تحجده بالليل "اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن... أنت المقدم والمؤخر...".

٣- ينظر: لسان العرب، ابن منظور (مادة قَدَمَ ١٢ / ٤٦٥).

٤- ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري (مادة قَدَمَ ٢ / ٥٨ - ٥٩).

٥- مقاييس اللغة، ابن فارس (مادة أَخَرَ ١ / ٧٠).

٦- ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري (مادة أَخَرَ ١ / ٢٢)، ولسان العرب، ابن منظور (مادة أَخَرَ ٤ / ١١-١٢).

٧- للتقديم والتأخير جانبان: جانب نحوي، يهتم بالترتيب الصحيح لعناصر الكلام، وما يجوز فيه وما لا يجوز، وجانب بلاغي يتجاوز هذه النظرة إلى دراسة أثرها على المعنى وما أضفته من جمالية على التركيب، وهذا الجانب هو الذي اهتمت بدراسته هذه الرسالة.

فقال ابن الأثير في التقديم والتأخير: "وهذا باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة، منها ما استخرجته أنا، ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان، وسأورد ذلك مبيناً. وهو ضربان: الأول: يختصُّ بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أُجِرَّ المقدم أو قدِّم المؤخَّر لتغيَّر المعنى، والثاني: يختصُّ بدرجة التقدُّم في الذِّكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أُجِرَّ لما تغيَّر المعنى"^٢. وقال الزركشي: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنَّهم أتوا به دلالة على تمكُّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"^٣. أمَّا السيوطي^٤، فقد تناول هذا الأسلوب في النوع الرابع والأربعين من كتابه الإتيقان، (في مقدمه ومؤخره) وشرع مباشرة في بيان أقسامه.

٢- التقديم والتأخير عند المعاصرين:

مما ورد في تعريفه:

- **التأخير:** "أن يكون الكلام مقتضاه تقديم بعض الكلمات أو الجمل، فتؤخر لحكمة في المؤخَّر"^(٥).

إذا علمنا أن التقديم ضد التأخير، فيمكننا تعريف التقديم بأنه: ما يكون من الكلام مقتضياً للتأخير، فيقدِّم لحكمة في المقدم. فالتقديم والتأخير: أن تخالف عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، فيتقدَّم ما الأصل فيه أن يتأخَّر، ويتأخَّر ما الأصل فيه أن يتقدَّم^{(١)(٢)}.

١- ينظر: خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، أطروحة دكتوراه إعداد إبراهيم علي

الجعيد، إشراف: أ.د. محمد محمد أبو موسى، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، سنة ١٩٩٩م. ص ١٣٩

٢- المثل السائر، ٢/ ٣٥.

٣- البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٢٣٣.

٤- هو: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، عالم موسوعي، إمام حافظ مؤرخ أديب، له مؤلفات في شتى الفنون، من كتبه: (الإتيقان في علوم القرآن) و(الأشباه والنظائر) و(الألفية في النحو)، توفي سنة ٩١١هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٣/

٣٠١- ٣٠٢، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٥/ ١٢٨.

٥- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي، ط ١ (الشارقة، مركز البحوث والدراسات، ١٤٢٧هـ) ٥/ ١٨.

على ضوء ما سبق يمكن لنا أن نصل إلى أن أسلوب التقديم والتأخير هو:

"نظام في ترتيب الكلام، يخرج به المبدع عن المألوف، بتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، لأداء أغراض مقصودة ودلالات معينة، ويكون له نتيجة ذلك أثر عميق في عقل المتلقي". وإذا كان الأسلوب: هو العدول عن الأسلوب العام إلى الأسلوب الخاص، فأسلوب التقديم والتأخير، هو: العدول عن التقديم والتأخير النحوي، إلى التقديم والتأخير البلاغي، وهو ما يقوم به المبدع في كلامه. ويشمل أيضاً كل ترتيب للكلمات والجمل في الكلام، فلكل صياغة معنى تؤدّيه لا يؤدّيه غيرها.

فالجملة في اللغة العربية لها أصل تتحقّق به الإفادة، الفعلية منها تتألف من فعل وفاعل، وقد يلحقها بعض المتعلّقات (المفعول به، الجار والمجرور،...)، والاسمية تتكون من مبتدأ فخر، وإذا اختلف الترتيب اعتبارياً اختلف المعنى، إلا أنه يمكن العدول عن هذا الأصل، لتأدية معان أخرى لا يحتملها الترتيب الأصلي، والتقديم والتأخير أحد طرق هذا العدول^(٣).

وهذا الأسلوب دليل واضح على ثراء اللغة العربية، وحساسيتها، فلكل كلمة في موقعها دلالة لا ينوب عنها في تأديتها غيرها، وأيُّ تغيير غير مدروس، قد ينتج عنه اختلال في المعنى، وكذلك فإنّه يدلُّ على مرونة اللغة، من خلال قدرتها على نقل مكونات النفوس وتفصيل مشاعرها، فبناء العبارة في الحقيقة، هو بناء داخلي أولاً يعتمد على بناء الخواطر والمشاعر، قبل أن يكون هندسة ألفاظ وتصميم قوالب، ومن ناحية أخرى، يدلُّ على تفوق المتكلم في قدراته التعبيرية، من خلال الإفصاح عن أدق أحاسيسه ومشاعره^(٤).

١- قواعد التقديم والتأخير عند المفسرين، عمر عبد المجيد البيانوني، ص ١٦. أصل الكتاب رسالة ماجستير بعنوان التقديم

والتأخير عند المفسرين دراسة تأصيلية، بإشراف الدكتور صالح معتوق، جامعة بيروت الإسلامية، كلية الشريعة، سنة ٢٠١٧م.

٢- لا بدّ من التنبيه إلى أنّ أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، أوسع مما هو عليه كأسلوب بلاغي. فيدخل فيه ترتيب الكلام في الآية الواحدة، وترتيب الآيات بعضها مع بعض... وهذا ما سيتبيّن عند الحديث في أنواع أسلوب التقديم والتأخير.

٣- ينظر: المناسبات القرآنية، دراسة لغوية بيانية، د. عقيد خالد العزاوي، ط ١ (دار العصماء، دمشق، ٢٠١٦م)، ص ١١٣.

٤- ينظر: دلالات التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى، ط ٢ (القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٧م) ص ١٧٠ - ١٧١.

ثالثاً: أحوال التقديم والتأخير^(١):

لا بدّ من بيان أنّ التقديم والتأخير منه ما يكون إلزامياً، ومنه ما يكون اختياريّاً، فالإلزامي هو ما يكون لعلّة نحوية، فلا يجوز الرجوع عنه إلى الأصل، وعندها يخرج من مباحث البلاغة^(٢)، كتقديم المفعول به على الفاعل، لوجود ضمير في الفاعل عائد على المفعول، فيتوجب تقديمه، أمّا التقديم الاختياري فهو الذي يقصده المتكلم لغرض دلالي، وهو ما يدخل في البحث البلاغي، وتعتريه هذه الأحوال:

١- ما يفيد زيادة في المعنى، مع تحسين اللفظ: وهذا هو الغاية القصوى في البلاغة، ففي قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، تقديم الجار والمجرور أفاد التخصيص، وأنّ النظر لا يكون لغير الله ﷻ، مع جودة الصياغة، وتناسق السجع.

٢- ما يفيد زيادة في المعنى فقط: مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَأَعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، فتقديم المفعول لفظ الجلالة أفاد تخصيصه بالعبادة، وهذا المعنى لا يتأتى بالتأخير.

٣- ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير: فتذهب الملاحظة، والبلاغة من الكلام، كقوله:

وكانت يدي ملأى به ثمّ أصبحت بحمدٍ إلهي وهيّ منه سليب^٣

فالتقدير، ثمّ أصبحت وهيّ منه سليب بحمد إلهي. ولكني أرى فرقاً بين التركيبين في هذا البيت، ولا يخفى الأثر الجمالي للتقديم، بالإضافة إلى أثره على المعنى فتقديم (بحمد إلهي) فيه تعجيل الرضا بقضاء الله وقدره، فلماذا تكافأ مع التأخير؟! أليس التقديم والتأخير لضرورة الشعر، مما يرجع بفائدة على النظم؟ فلماذا يكون حسناً في النثر، ولا يكون كذلك في الشعر؟

٤- ما يختلّ به المعنى ويضطرب: وهذا هو التعقيد اللفظي، أو المعاطلة، وهي: "مداخلة بعض الكلام فيما ليس من جنسه، وما هو غير لائق به"^(١)، فمثال ذلك قول الفرزدق:

١- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، د. منير محمود المسيري، ط ١ (القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م) ص ٤٣ - ٤٤. ويقصد بأحوال التقديم والتأخير: الحالات التي يأتي عليها هذا الأسلوب من حيث ترتب الفائدة عليه أو عدمها.

٢- ينظر: المناسبات القرآنية، دراسة لغوية بيانية، د. عقيد خالد العزاوي، ص ١١٦.

٣- قاله إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه، ينظر: التعازي والمراثي والمواظع والوصايا، المبرد، ت: إبراهيم الجمل، د. ط (نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت) ص ١٧٣.

وما مثله في الناس إلا مملّكاً أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه^(٢)

عندما أراد مدح إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك، فقال أن ليس أحد يشبه إبراهيم (الممدوح)، إلا مملّكاً يقصد هشاماً، أبو أمّه — أم هشام — هو أبو الممدوح، فجاء بهذا التعقيد، وكان حقه أن يقول: وما مثله في الناس حيّ يقاربه، إلا مملّكاً أبو أمه أبوه^(٣).

هذه الأحوال الأربعة يمكن إدراجها تحت قسمين رئيسين:

الأول: ما يكون للتقديم والتأخير فيه فائدة، وهذا يضم الحاليين الأولين.

والثاني: ما يخلو التقديم والتأخير فيه عن الفائدة، وهذا يضم الحاليين الآخرين.

وبالنظر في القسم الثاني نجد أنّ أحد حاله (الحالة الرابعة)، مما يصنّف من عيوب الشعر، فبإمكاننا استبعاده من الأسلوب، أو نقول إنّ إطلاق اسم (التقديم والتأخير) عليه من باب التجوّز.

بقي الثالث وهو الذي يتكافأ فيه التقديم والتأخير، وهذا بعد مناقشته فيما سبق، يمكننا دمج في القسم الأول، خصوصاً أن الجرجاني يقول: "إنّ من الخطأ أن يُقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيداً في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأنّ يعلّل تارة بالعناية، وأخرى بأنّه توسّع على الشاعر والكاتب، حتى تطرّد لهذا قوافيه، ولذاك سجعه"^(٤).

والنتيجة أنّ جعل التقديم والتأخير على أربعة أحوال أمر ليس فيه كثير فائدة.

ولزيادة التعريف بأسلوب التقديم والتأخير، سأذكر عدة نقاط متعلقة به، منها ما سبق الإشارة إليه، ومنها ما سيأتي تفصيله بعد هذا الإجمال.

١- إنّ لعناصر الجملة العربية ترتيباً، يسبق بعضها بعضاً فإن جرى الكلام على الأصل، لم يكن

من باب التقديم والتأخير^(٥).

١- معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، ط ٣ (جدة، دار المنارة، ١٩٨٨م) ص ٤٢٧.

٢- بحث عن هذا البيت في ديوان الفرزدق ولم أجده، وقد نسبه ابن منظور إلى الفرزدق. ينظر: لسان العرب، ٦/ ٤٢٦٦.

٣- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص ١٧.

٤- دلائل الإعجاز، ص ١١٠.

٥- وهذا يكون من باب التقديم والتأخير النحوي أو (التقديم والتأخير الإلزامي)، وهو ما استثنيناه من هذه الدراسة، إذ إنه لا يدخل في العمل البلاغي.

- ٢- إذا غُيِّرَت أَيْةٌ كلمة عن مكانها، دخل ذلك في باب التقديم والتأخير، ويكون لهذا التغيير دلالة وغرض معين يريد أن يوصله المتكلم.
- ٣- الأصل في التقديم والتأخير _ حسب ما ذكر سيبويه^(١) _ أن يكون للعناية والاهتمام، فما قدَّمته كنت به أعنى.
- ٤- إنَّ سياق الكلام هو الذي يحدِّد مواطن العناية والاهتمام، ولذلك قد تُقدِّم في موطن ما تؤخِّر في موطن آخر.
- ٥- ليس معنى الاهتمام تقديم ما هو أفضل وأشرف، بل قد يكون تقديم المفضل هو موطن الاهتمام.
- ٦- وقد يكون التقديم والتأخير لمراعاة غرض ومعنى معيَّن، فإن تغيَّر ترتيب العبارة بتقديم أو تأخير تغيَّر المعنى.
- ٧- وقد يكون التقديم لضرب من التوسع في الكلام، لا للدلالة على معنى معيَّن، كما في الشعر ومراعاة الأسجاع^(٢).

١- حيث قال: "إنَّما يقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى..." . الكتاب، سيبويه، ١ / ١٤ - ١٥.

٢- ينظر: الجملة العربية بناؤها وأقسامها، د. فاضل السامرائي، ط ٢ (الأردن، دار الفكر، ٢٠٠٧م) ٤٩ - ٥١.

المبحث الثاني: أغراض أسلوب التقديم والتأخير:

إذا انطلقنا من مقولة (التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان)^(١)، فإنَّه — وبلا شك — وراء كلِّ كلام يقوله البليغ معانٍ وأغراض يرمي إليها من خلال أسلوبه في الكلام، والتقديم والتأخير أحد هذه الأساليب التي يلجأ إليها المتكلِّم لإيصال ما يريده من معان وأفكار، لأجل ذلك درس علماء البلاغة الغرض من أسلوب التقديم والتأخير، فسنعرض ما ذكره، ثمَّ نبين الغرض من هذا الأسلوب في القرآن الكريم.

— أغراض أسلوب التقديم والتأخير في البلاغة العربية^(٢):

أولاً: التقديم لكون المقدم أهم: وهذا أول ما يتبادر للذهن في الغرض من التقديم، وأول ما كشف عنه من أغراض التقديم والتأخير، إلا أنَّ السكاكي — ومن قبله الجرجاني — لم يكتف بالقول بالتقديم للاهتمام، وإنما بيَّن أوجه الاهتمام، ومنها:

١- أنَّ المقدم هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه.

٢- لأنَّه متضمن للاستفهام، كقولك: أيُّهم منطلق؟ فاسم الاستفهام أحق بالتقديم.

٣- لأنَّه ضمير الشأن والقصة، كقولك: (هو زيد منطلق). وهذه الأمور الثلاثة مما يجب تقديمها ولها حق الصدارة في الكلام، فلا تندرج تحت أغراض التقديم والتأخير، وإن ذكرها السكاكي في حديثه عن التقديم والتأخير.

٤- لأنَّ في تقديمه تشويقاً للسامع للمؤخَّر، فيتمكن في ذهنه، كقول الشاعر:

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى، وأبو إسحق، والقمر

فتقديم المسند هنا جعل في النفس شوقاً إلى معرفة المسند إليه، فيكون له وقع في النفس، وقبول لا يتحصَّل فيما لو أخَّر المسند.

١- قالها السهيلي في نتائج الفكر، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م) ص ٢٠٩.

٢- إنَّ الناظر في كتب البلاغة يلحظ أنَّ علماء البلاغة المتقدمين لم يؤلفوا كتبهم حسب الأساليب البلاغية فيفردوا التقديم والتأخير بفصل، والحذف والذكر بفصل، إلى غير ذلك من الأساليب، وإنَّما قصدوا إلى دراسة الجملة العربية وما يطرأ عليها من ألوان بلاغية، فتناولوا أحوال المسند إليه أولاً، ثمَّ المسند، ثمَّ متعلقات الفعل، فجاء الكلام عن التقديم والتأخير مفرقاً بين هذه الثلاثة، وهذه الدراسة لن تسير على هذه التقسيمات، وإنما تتناول البحث في أسلوب التقديم والتأخير أصالة ويندرج تحته ما يتعلَّق بأقسام الجملة (المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل) دون تفريق بينهم.

وأيضاً، قولهم:

والذي حاربت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد^(١)

ففي المبتدأ تشويق للخبر، فقدّمه ليتمكن الخبر في ذهن السامع.

٥- لتعجيل المسرة أو المساءة في تقديمه. كقولك: (الناجح في دارك) فقدّم ما يستدعي السرور معرفته، وأيضاً: (السفاح في دار صديقك) فعجّل مساءته بتقديم ذكر السفاح.

٦- لتوهم أنّه لا يزول عن خاطر، فهو إلى الذكر أقرب.

٧- لأنّ في تقديمه تعظيماً للمقدّم يقتضيه المقام، كقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فتقديم اسم النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، فيه زيادة تعظيم له.

٨- أن يكون المراد التنبيه على أنّه خبر لا صفة، كقولك: (على أبيه درع) فلو أخر الجار والمجرور لالتبس الأمر هل المراد كونه صفة أم أنه خبر، وبالتقديم تبين كونه خبراً لأنّ النعت لا يتقدم على المنعوت.

ثانياً: لأن في تقديمه تقوية للحكم: فيكون المراد تقرير الحكم وتأكيده بين المبتدأ والخبر، أو بين الفعل والفاعل، وليس المراد نفي الحكم عما عدا المذكور في الكلام، كقولك: (هو يعطي الجزيل) فهذا لا يعني أنّك تريد نفي إعطاء الجزيل عن غيره، وإمّا يفيد تقرير الحكم في الذهن وتأكيده^(٢).

١- البيت للمعري، ينظر: سقط الزند، أبو العلاء المعري، د. ط (دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م) ص ١٢.

٢- وهذا الضرب من التقديم يأتي في عدة حالات، أبرزها: فيما لو اعترض الكلام شك، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، لأنّ الكاذب لا يعترف بكذبه، فيمتنع اعترافه بالعلم بأنه كاذب، فقدّم الله تعالى الضمير (هم) ليفيد تأكيد الحكم، وهو علمهم بكذبهم وما يقترفونه من آثام. وأيضاً في تكذيب مدّع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١]، فقد أدّعوا الإيمان بقولهم، (آمنّا)، فقدّم الله تعالى الضمير (هم) لتقرير كفرهم وتأكيده. وفيما يقتضي الدليل ألا يكون، فيأتي التقديم لتأكيد الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، فمقتضى الدليل أنّ الإله لا يكون مخلوقاً، فجاء تأكيد كونهم مخلوقين بتقديم الضمير في قوله (وهم يُخْلَقُونَ).

وفي الوعد والضمنان، كقولك لأحدهم: (أنا أقوم بالأمر) لأنّ الواعد يحتاج تأكيداً ليطمئن من يعده فيقدم الضمير.

وفيما لا يستقيم المعنى إلا على تقديم الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقوله: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالْأَطْيَرِ فَهُمْ نَزْنُونَ﴾ [النمل: ١٧]، فإنّه لا يخفى على

ثالثاً: لكونه يفيد زيادة تخصيص: كقولك لمن يقول: زيد إما قائم وإما قاعد، (قائم زيد)، فقد خصّصت أحد الحالين به، وكقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، قدّم الجار والمجرور ليفيد التخصيص.

رابعاً: التقديم لإتمام المعنى: فيكون في التأخير إخلالاً بالمعنى المراد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فالمعنى المراد: أنّ الرجل هو من قوم فرعون، وهو كاتم لإيمانه، ولو أحر (من آل فرعون) عن (يكتُم إيمانه) فلن يدلّ الكلام على أنّ الرجل من قوم فرعون، ولتؤهّم أنّ (من) متعلقة بـ (يكتُم) وهو غير المراد، فكان في التقديم إظهار للمعنى كما أراده الله عزّ وجلّ.

خامساً: مراعاة الفاصلة^(١): كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧]، فأحرّ الفاعل لتناسب رؤوس الآيات، وسياق الآية: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٨].

خامساً: للإنكار والغرابة: فيقدّم المتكلّم ما يستغربه ويستنكره في كلامه، كقول الشاعر:

أَقُولُ وَاشْ ظَالِمٌ أَقْصَيْتَنِي نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَمْ لَذَنْبٍ وَاحِدٍ^(٢)

إنّ ما أهمّ الشاعر في هذا البيت هو إقصاء الحبيب، إلا أنّه قدّم قوله (أقول واش) ليوضح استنكاره لهذا الحب الذي يتزعزع ويسقط عند كلام نَمَام حاسد.

سادساً: لقصد الاحتقار: كقول الشاعر:

رَدَدْتُ عَلَى عَمْرٍو بْنِ قَيْسٍ قِلَادَةً ثَمَانِينَ سُوداً مِنْ دُرَى جَبَلِ الْهَضْبِ^(١)

من له ذوق، عدم إمكانية ورود التركيب على غير ما ورد عليه في الآيات من تقديم الضمير (بناء الفعل على الاسم). ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: عبد المنعم خفاجي، ط ٣ (المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٣ م) ٢/ ٥٧-٥٩.

١- سيأتي التفصيل فيها عند الحديث عن أغراض التقديم والتأخير في القرآن الكريم، إن شاء الله تعالى، وذكرها هنا تحت عنوان أغراض التقديم والتأخير في البلاغة العربية. إنّما كان لأنّ علماء البلاغة ذكروها في كتبهم، فكان لابدّ من الإشارة إليها هنا.

٢- قاله العباس بن الأحنف. ينظر: ديوان العباس بن الأحنف، ت: عائكة الخزرجي، ط ١ (دار الكتب المصرية، القاهرة،

١٩٥٤ م) ص ١٢٢.

قدّم الشاعر ذكر (عمرو بن قيس)، وأصل الترتيب (رددت قلادة على عمرو) فقدّمه تحقيراً له وتخصيصاً له برفضه القلادة منه، ولو أراد احتقار القلادة لقدّمها.

سابعاً: للافتخار: كقول الشاعر:

برأسٍ من جُشَمِ بن بكرٍ ندقُّ به السهولةَ والحزونا^(٢)
أراد الشاعر الافتخار بقومه فقدّم ذكرهم، حيث قال: (برأس) مع أنّها فاعل في المعنى لـ (ندق)، وترتيب الكلام، ندق برأس من ...، فالتقديم هنا للافتخار.

ثامناً: للترحم أو التشكي: كقول الشاعر:

إمّا تراني قد هلكتُ فإمّا رمضانُ أهلكني ودينُ أُسيدِ^(٣)
فقدّم الشاعر قوله (رمضان) وحقه التأخير، إذ هو فاعل في المعنى لـ (أهلكني)، إلا أنّه أراد إظهار شكواه من شهر رمضان الذي منعه شرب الخمر فلحقه التعب من ذلك.^(٤)

– أغراض التقديم والتأخير في القرآن الكريم:

١ – التقديم لبيان عظمة المقدم والاهتمام به: وهذا هو الأصل في بابه، فالعرب تقدّم في كلامها ما تهتمّ وتعتني به، وقول سيبويه شاهد على هذا، إذ يقول: "كأنّهم يقدّمون الذي شأنه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى.."، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وقوله أيضاً:

١ – قاله عمرو بن كلثوم. ينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ت: أميل بديع يعقوب، ط ١ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م) ص ٢٦.

٢ – قاله عمرو بن كلثوم. ينظر: المرجع السابق ص ٧٨.

٣ – قاله الأقيشر. ينظر: ديوان الأقيشر الأسدي، ت: محمد علي دقة، ط ١ (دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م) ص ٦٢.

٤ – أخذت هذه الدراسة عن مفتاح العلوم، السكاكي، ص ١٩٤ – ١٩٦، ٢١٩ – ٢٢٤، ٢٣١ – ٢٣٩، والإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ٢ / ٥٠ – ٨٠، ١٣٥ – ١٣٧، ١٦٢ – ١٧١، ودلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٤٩ – ٦٧.

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فبدأ ﷻ بما هو أهم^(١)، فالصلاة أول ما يحاسب عليه المرء، وطاعة الله تعالى أولاً إذ يتفرّع عنها طاعة الرسول ﷺ، وهكذا ترتبت الآية.

٢- التقديم لإفادة الاختصاص: كتقديم المفعول، والخبر، والظرف، والجار والمجرور، ونحوها على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فتقديم (إياك) الذي هو في محل نصب مفعول، أفاد تخصيص الله ﷻ بالعبادة والاستعانة^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]، أفاد تقديم خبر إن (إلينا) و (علينا) التخصيص، والمبالغة في الوعيد، فرجوع الخلق وإيابهم لا يكون إلا إلى الله ﷻ، وهو وحده محاسبهم على أعمالهم، ودُكر في الدر المصون أن التقديم هنا للمبالغة في الوعيد فقط^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتَّبَعٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، أفاد إدخال لام القسم على المعمول المقدم تأكيد الاختصاص بأن ألوهية الله تعالى هي التي تقتضي جمع الناس في المحشر، فالرجوع إلى الله ﷻ لا إلى غيره^(٤). ولا بدّ من التنبيه إلى أنه ليس كل تقديم للمعمول على عامله يفيد التخصيص، فللمفسرين في ذلك آراء وأقوال، والمرجع في ذلك إلى السياق، وما يستنبطه كل مفسر من كلام الله تعالى، فتقديم المعمول (إياك) في سورة الفاتحة، يرى فيه صاحب البحر المحيط أنه للعناية والاهتمام بالمقدم^(٥).

١- ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط (مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت) ٣/

٢٣٥.

٢- ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت،

١٤١٨هـ) ١/ ٢٩.

٣- ينظر: تفسير البضاوي، ٥/ ٣٠٨، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط،

د.ط (دار القلم، دمشق، د.ت) ١٠/ ٧٧٥.

٤- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ٤٥، والدر المصون، ٣/ ٤٥٩، وروح المعاني، ٢/ ٣١٧.

٥- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، د.ط (دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ) ١/ ٤٢.

٣- التقديم لتقوية الحكم: فقد لا يفيد تقديم المعمول الاختصاص، وإنما يكون لتقوية الحكم وتأكيده، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فليس المراد من التقديم تخصيصهم بالعلم بكذبهم، وإنما كان التقديم تأكيداً لكذبهم وافتراءهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِيٍّ﴾ [المائدة: ٦١]، ردَّ الله عَنكَ على الكفار ادعاءهم الإيمان، وأكد عدم انتفاعهم من مخالطة المسلمين ومجالستهم، فهم ينصرفون على الحال التي جاؤوا بها، فقدَّم الضمير (وهم) لهذا الغرض^(١).

٤- أن يكون التقديم لإرادة التبكيت للحال المذكور: كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، فالأصل (الجنُّ شركاء)، وقدَّم لأنه أبلغ في حصول التوبيخ، وهو المقصود^(٢).

٥- التقديم لقصد التحذير منه والتنفير عنه^(٣): كقوله تعالى: ﴿الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣]، قرن بين الزنا والشرك، وقدَّمه على الشرك مع أنَّ الشرك أشنع، ولا يُعْفَرُ أبداً، وذلك تحذيراً من الاقتراب في الفاحشة. وفي قوله تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤]، قدَّم ذكر النساء، لأنَّهنَّ أشدُّ فتنة على المرء، يقول ﷺ: "ما تركت بعدي في الناس فتنة أضرَّ على الرجال من النساء"^(٤).

٦- التقديم للتخويف منه: كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، قدَّم الشقي على السعيد لأنَّ المقام مقام إنذار وتحذير^(٥).

١- ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، ١/ ١٢٥.

٢- ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٢٣٦.

٣- ينظر: البرهان، الزركشي، ٣/ ٢٧٢.

٤- أخرجه مسلم، كتاب (الرقاق)، باب (أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء)، رقم (٧١٢٢).

٥- ينظر: روح المعاني، ٦/ ٣٣٥.

٧- التقديم لغرض التعجب من شأن المقدّم: كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فتسبيح الجبال أعجب وأدل على قدرة الله تعالى، إذ هي جماد، أمّا الطير فحيوان^(١).

٨- التقديم للحثّ على المقدّم خيفة من التهاون به: كقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، قدّم الوصية على الدين في الذكر، مع أنّها في ترتيب الحقوق المترتبة على التركة، تأتي بعد الدين، وذلك خوفاً من التساهل في أدائها، فالتقديم أكّد على أهميتها^(٢). وللسهيلي^٣ وجهان آخران للتقديم: أحدهما: أنّ الوصية قرينة إلى الله تعالى فتقدّمت. والثاني: أنّ الوصية للميت، والدين لغيره، والإنسان يقدر نفسه على نفس غيره^(٤).

٩- التقديم لغرض الترقّي: فيبتدأ بالأدنى ليرقى إلى الأعلى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْهَمُّ أَزْجَلُ يَمْسُونَهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

١٠- مراعاة السياق: فالآيات التي تتحدث عن السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام، تارة يبدأ بذكر الأم، وأخرى يقدر الحديث عن عيسى عليه السلام، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، فلما كان سياق سورة الأنبياء الحديث عن السيدة مريم قدمها بالذكر، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، أما السياق في سورة المؤمنون

١- ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري، ط ٣ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ) ٣/ ١٢٩.

٢- ينظر: البرهان، الزركشي، ٣/ ٢٦٥.

٣- هو: عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد، أبو القاسم السهيلي الأندلسي، كان عالماً بالقراءات، واللغات، والغريب، بارعاً، تصدر للإقراء، والتدريس والحديث، له مصنفات كثيرة، منها: (الروض الأنف) (التعريف والإعلام بما أجم في القرآن من الأسماء والأعلام) و(نتائج الفكر في النحو)، توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ. ينظر: إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي، ١٦٢/٢، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ١٤٣/٣، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ١٢/ ٧٣١-٧٣٢.

٤- ينظر: الفرائض وشرح آيات الوصية، السهيلي، ت: د. محمد إبراهيم البناء، ط ٢ (المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ) ص ٤٨-٤٩، وقد عزاه الزركشي إلى نتائج الفكر، إلا أنّي لم أجده فيه.

فكان في الحديث عن الأنبياء، فتقدم ذكر عيسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ^(١) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَهُ عَايَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿[المؤمنون: ٤٩ - ٥٠].

١١- مراعاة اشتقاق اللفظ: فالتقديم يأتي قبل التأخير، والأول يليه الآخر، وهكذا، وقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم مراعى فيها هذا الجانب، كقوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ^(٢) [المدثر: ٣٧]، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ^(٣) [الانفطار: ٥].

١٢- مراعاة الترتيب الوجودي: فما يكون أولاً في الوجود يكون مقدماً في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ^(٤) [البقرة: ٢٥٥]، فالسنة هي فتور يسبق النوم، فتقدم ذكرها في الكلام ^(٥).

١٣- مراعاة الفاصلة ^(٦): كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ ^(٧) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ^(٨) * وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ^(٩) [النجم: ٢٤ - ٢٦]، ولولا

١- ينظر: تفسير البضاوي، ١/ ١٥٣.

٢- جاء في تعريف الفاصلة، أنها: "كلمة آخر الآية، كفاية الشعر وقرينة السجع"، هذا تعريف الزركشي، وعرفها الرماني والباقلاني من قبله _بعبارة متشابهة_ أنَّ الفواصل: حروف متشاكلية في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني. إذاً فالمعنى مقصود من الفاصلة. والفاصلة متمكنة في بابها تمكناً عجبياً، كغيرها من مفردات الكلم القرآني، فكل لفظة في القرآن لا يسدُّ محلّها غيرها، ولا يمكن لأي أسلوب في ترتيب الكلام مغاير لما جاء عليه القرآن، أن يؤدي الغرض والمعنى كما هو عليه في النظم القرآني. ويمكن القول: إنَّ الفاصلة تسهم في بناء الآية القرآنية في الشكل والمضمون، فما يكون في الآية الكريمة من تقديم وتأخير، أو حذف وزيادة... لا بدَّ وأن يكون تابعاً للمعنى في ذلك، ويظهر ذلك من إدانة النظر والتفكير في سياق الآية، وموقعها من السورة القرآنية. ولا يمكن إغفال الجانب الجمالي الذي تضيفه الفاصلة على اللفظ القرآني، فهي تُكسب الكلام رونقاً وبهاءً وجرساً موسيقياً تنتشي له الأذان. وللرماني قول بليغ في الفواصل، يقول: "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يُحتاج إليها، في أحسن صورة يدل بها عليها". وبالتالي فإذا قيل في تقديم أو تأخير في القرآن الكريم أنَّه جاء مراعاة للفاصلة، فالمراد كلا الأمرين المبني والمعنى، ولا يكون أمراً لفظياً إيقاعياً بحتاً. ينظر: النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ط ٣ (دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م) ص ٩٧ - ٩٨، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١/ ٥٣، ٦٣، والقرآن ونصوصه، عدنان زرزور، د. ط (مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ١٩٨٠م) ص ٢٣٨ - ٢٣٩، وفي الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وليد القصاب، ط ١ (دار الفكر، دمشق،

مراعاة الفاصلة لما قدّم الله ﷻ ما هو متأخر في الزمان^(١)، ولكان الترتيب كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٢) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُبْحًا قَالُوا إِنَّمَا بَرَّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿ [طه: ٦٩ - ٧٠]، قدّم الفاضل على الأفضل مراعاة للفاصلة القرآنية.

١٤- التقديم لبيان عدة أمور، على سبيل الجمع أو التفريق، فقد يجتمع بعضها في مثال، وقد تنفرد الآية الكريمة بواحدة من هذه الأمور، وهي:

أ- السبق: فيكون المقدم أسبق من المؤخر زماناً أو مكاناً، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَاجًا وَبَنَاتًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فالأزواج أسبق زماناً من البنات، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، لما عدّد الرسل ذكرهم حسب أسبقيتهم في الوجود، أمّا تقديم ذكر النبي ﷺ في قوله (ومنك) فلشرفه وأفضليته ﷺ على باقي الرسل.

ب- الأشرافية: فيكون المقدم أشرف من المؤخر، وتجلي ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، والرسالة أشرف من النبوة، فقدّم الله ﷻ الرسول في الذكر على النبي، وأيضاً في قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] شرف الله تعالى العلم فقدّم أهله على الذين لا يعلمون، وغيرها كثير في القرآن الكريم.

ج- العلة والسببية: فيكون المقدم سبباً وعلة للمؤخر، كتقديم (العزیز) على (الحكيم)، لأنّه تعالى عزّ فحکم، وتقديم (العليم) على (الحكيم)، لأنّ الحكمة في تدبير الأمور ناشئة عن كمال العلم بها، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٣) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَا سَيِّ

٢٠١٠م) ص ١٢٩ - ١٣٠، وفواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، السيد خضر، ط ٢ (مكتبة الآداب، القاهرة،

٢٠٠٩م) ص ١٣.

١- وكذلك الحال في موضعين آخرين من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى^(٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَتَخَسَّبُ ﴿ [النازعات: ٢٤ - ٢٦]، وفي قوله أيضاً: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾^(٦) وَإِنْ لَنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى^(٧) فَأَنْذَرْنَاهُ تَارًا تَاطَلِي ﴿ [الليل: ١٢ - ١٤]، جاء ترتيب الكلام مراعاة للفاصلة القرآنية، فأخّر ما هو متقدّم في الزمان.

كَثِيرًا ﴿ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩]، قَدَّمَ إحياء الأرض لأثَّها سبب إحياء الأنعام والأناسي ففيها غذاؤها وشرابها، وقدم سقي الأنعام، لأثَّها أيضاً مما يحيا به الناس.

د- الداعية: فيكون حصول المقدم مدعاة وتمهيداً لحصول المؤخر، كتقديم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفروج، لأنَّ إطلاق النظر في المحرمات مدعاة إلى الفجور، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

هذه إحاطة لطيفة مجملة بأغراض أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وهي ليست قواعد عامة ولا يمكن أن تكون، وإنما الأمر بعد ذلك يعود إلى السياق، فالنظر في سياق كل آية ورد فيها تقديم أو تأخير هو المنطلق، وبإمعان النظر والتفكير يظهر الغرض من هذا الترتيب، إلا أنَّ هذا الأسلوب مهما كان الغرض منه، فلا بدَّ له من وظائف يؤدِّيها، سنشير إليها بإيجاز.

— وظائف أسلوب التقديم والتأخير:

أولاً: الوظيفة الدلالية:

إنَّ خروج المتكلم عن المعهود من كلام العرب في صياغة الجملة، إنَّما يكون لإظهار معنى في نفسه، لا يمكن التعبير عنه من خلال اتباع الضوابط النحوية في ترتيب الجملة. وهذا الخروج هو عين الفصاحة، وله أساليب عديدة، فتارة يكون بالتقديم والتأخير، وأخرى بالحذف والذكر، وغيرها من الألفانين البلاغية. ومحطُّ الأنظار في هذه الدراسة هو أسلوب التقديم والتأخير.

وباستخدام المتكلم المبدع لأسلوب التقديم والتأخير، يجعل لكلامه معاني أخرى يؤدِّيها، فوق التي يدلُّ عليها من خلال الترتيب المعهود للجملة العربية، ولا شكَّ أنَّ لهذا الأسلوب عظيم الأثر في كلام الله ﷻ، فهو زيادة في المعنى دون زيادة في المبنى^(١).

ويمكن القول إنَّ تعدُّد المعاني واتساع دلالة الجملة الناتج عن أسلوب التقديم والتأخير هو ما يُعرف بالوظيفة الدلالية لهذا الأسلوب، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

١- ينظر: اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، محمد نور الدين المنجد، ط ١ (دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م) ص ٤١٦.

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

دلّ تقديم المثل على البعوضة في الآية الكريمة على معانٍ لا نستنبطها من الآية في التأخير، فقد أفادت الآية أولاً أنّ الله تعالى لا يستحيي من ضرب الأمثال عموماً — والله تعالى يقول: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ثمّ بينت أنّ الله عزّ وجلّ لا يستحيي من ضرب المثل بالبعوضة خاصة، ولو قدّم البعوضة على المثل لما أفاد غير المعنى الخاص. "فهو بيان أنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما أياً كان ذلك المثل على وجه العموم، ولو قال (إنّ الله لا يستحيي أن يضرب بعوضة فما فوقها مثلاً) لتخصّص ذلك بالبعوضة فما فوقها، ولم يتسع اتساع التعبير الأول، فاتسع بالتقديم ما لا يتسع بالتأخير" (١).

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّاهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

دلّ تقديم الإثم على القلب في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّاهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾، على تعميم الإثم أولاً، فكلُّ الجوارح آثمة بكتمان الشهادة، ثمّ دلّت على تخصيص الإثم بالقلب لأنّه موضع الكتمان، ولو أُجِرَ فقال: (ومن يكتمها فإنّ قلبه آثم) لما أفاد غير إثم القلب (٢).

٣- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

إنّ تقديم الشركاء على الجنّ في هذه الآية أفاد معنيين: أفاد نفى شركاء الله تعالى عموماً، ونفي كون الجن خصوصاً شركاء لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولو قال (وجعلوا لله الجن شركاء) لما أفاد هذا المعنى ولاقتصر على الإخبار عن عبادتهم الجن من دون الله عزّ وجلّ. وقد أبدع الجرجاني في تحليله لهذه الآية فقال: "وإن كنّا نرى جملة المعنى ومحصوله، أنّهم جعلوا الجنّ شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن، وإذا أُجِرَ فقليل:

١- الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ط ١ (دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٠م) ص ١٨٨.

٢- ينظر: اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، محمد نور الدين المنجد، ص ٤١٧.

(جعلوا الجن شركاء لله) لم يفد ذلك، ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجنَّ مع الله تعالى، فأما إنكار أن يُعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجنِّ وغير الجنِّ، فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه^(١).

وهكذا تجلّت الوظيفة الدلالية لأسلوب التقديم والتأخير، وما لها من أثر كبير في تحديد المراد من كلام الله ﷻ^(٢).

ثانياً: الوظيفة الحجاجية:

الحجاج لغة من الحجّة، وهي: البرهان، والحجّة أيضاً ما دُفِعَ به الخصم، وهي الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة^(٣).

ويمكن القول أيضاً إنّ الحجاج هو: مجمل الأساليب البَيانية المتَّبعة، الباعثة على إذعان السامع أو القارئ. فعندما يريد المتكلّم أن يؤثر في مخاطبيه فإنّه يلجأ إلى اتِّباع أساليب تساعد على توضيح وجهة نظره، وإقناع المخاطب بها. ولمّا كان للأساليب البلاغية أثرٌ جليلٌ في إيصال مراد المتكلّم إلى متلقّيه، ودفعه إلى تغيير سلوكه بناءً على تأثره بما سمعه، من هنا اكتسبت الأساليب البلاغية طابعاً حجاجياً.

إنّ كلّ خطاب له بعد حجاجي بطبيعته، لأنّ قائله يسعى إلى التأثير في المتلقي، فتكتسب اللغة فيه بُعداً حجاجياً، وبعبارة أدقّ يمكن القول إنّ اللغة من خلال أساليبها ومرونتها في النفاذ إلى قلب السامع وعقله تعطي للخطاب هذا البعد الحجاجي، وتؤدّي الغرض الذي من أجله صيغ^(٤).

والقرآن الكريم خطاب، يستخدم اللغة، ويهدف إلى هداية البشر، وتغيير تصوراتهم وسلوكهم، فهو يرمي إلى تغيير وضع ذهني، يترتب عليه ضرورة تغيير وضع مادي^(٥). من هنا رأى الباحثون في

١- دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦-٢٨٧.

٢- لمزيد من الأمثلة ينظر: اتساع الدلالة في الخطاب القرآني لمحمد نور الدين المنجد، ص ٤١٦-٤٢٤.

٣- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (مادة حجج ٢/ ٧٧٩).

٤- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط ٢ (دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م) ص ٥٣.

٥- ينظر: الحجاج في القرآن، عبد الله صولة، ص ٤٣.

الأساليب البلاغية في القرآن الكريم وظيفة حجاجية، فأين محل أسلوب التقديم والتأخير في الحجاج القرآني؟

إنَّ أكثر ما تبرز فيه الوظيفة الحجاجية لأسلوب التقديم والتأخير يكمن في الآيات الواردة في دحض آراء المشركين والرد عليهم، ومقارعة الحجّة بالحجّة. واستعراض لبعض الأمثلة في هذا كفيل بتوضيح المسألة.

١- قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي^(١) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤ - ١٥].

تدور السورة حول موضوع التوحيد، توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، وتسوق البراهين، وتعتقد المقارنات لتكون الصورة واضحة جليّة للناس علّ المشرك يرتدع عن شركه، و هذا جزء من سياق الآيات ﴿قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ^(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ^(١٢) قُلِ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ففي الآية الأولى إخبار بأمر الله تعالى بعبادته والإخلاص له، وفي الموضع الثاني (قل الله أعبد) إخبار بتخصيص الله تعالى وحده بالعبادة، "ولدلّالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وآخره في الأوّل فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله، ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية"^(١) ولإقامة الحجّة عليهم في كفرهم ومبالغتهم في عنادهم.

٢- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤].

الغاية من هذه الآية إنكار اتخاذ شيء غير الله تعالى ولياً معبوداً، لا مجرد إنكار اتخاذ الولي^(٢)، والمعنى من هذا أنّ الله وحده هو المعبود بحق، وهو أهل لأن يُعبد، ولا ينبغي لأحد أن يتخذ غيره معبوداً، ولذلك كان تقديم (أغير الله) وسيلة لإيصال هذا المعنى المراد^(٣).

١- الكشاف، ٢/ ١٠٤٩.

٢- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ١٥٦.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، د. ط (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م) ٧/ ١٥٦.

ثالثاً: الوظيفة الجمالية:

إنَّ الجانب الجمالي للقرآن الكريم يؤثر في السامع والتالي لكلام الله ﷻ، فما إن تفرع الآيات سمعه، حتى يجد وقعها في قلبه، فيستشعر المعاني ويعيش مع الآيات في جَوْها، وإذ بالسامع وكأنَّه بين حضرة جليل يخصُّه بكلامه فيصغي إليه، ويخضع بكيانه لكلام ربِّه فيلمس صداه في نفسه. وهذا ما يحصل للعالم والجاهل، وللصغير والكبير، كلٌُّ بحسب ما تهيأت به مداركه، فيطرب لكلام الله ﷻ. هذه أولى درجات التذوق الجمالي للقرآن الكريم، وكلُّما ارتقينا درجة في سلَّم التدبُّر، زاد التأثير والانبهار بالكلام المبين. فالجمال يعزِّز دلالة الآية ويزيدها وضوحاً، ويعزِّز المعنى الحجاجي فيها، ويزيده تأثيراً^(١). ولا بدَّ للأساليب البلاغية من درجة في هذا السلَّم الجمالي، فما الوظيفة الجمالية لأسلوب التقديم والتأخير؟

إنَّ تركيب الآيات الكريمة وترتيبها، وما يدخل فيها من تقديم وتأخير، كلُّ هذا له أثر في إيصال الصورة والمعنى المراد إلى ذهن القارئ^(٢)، فينتشي لما استشعر في نفسه من معانٍ وصور.

وفي التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية، ما فيه من الجمال، فبالإضافة إلى المعنى الذي تضيفه على الآية، فإنَّ إيقاعها وجرس أحرفها مع غيرها من الفواصل في السورة القرآنية يساهم في التأثير ويعمِّق المعنى الذي جاءت به الآية^(٣)، ومثال على ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٤].

فأينما ذُكر خلق الأرض والسموات في القرآن الكريم، تقدَّم ذكر السماوات، إلا في هذا الموضع، وذلك مراعاة للفاصلة، فمعظم فواصل هذه السورة منتهية بالألف، ولا يخفى أثرها على السمع، قال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرًا ٣ لِّمَن يَحْشَى ٤ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ

١ - ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد راغب، ط ١ (فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م)

ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

٢ - ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة: كمال محمد بشير، د. ط (مكتبة الشباب، النيرة، د. ت) ص ٩٢.

٣ - ينظر: النسق القرآني دراسة أسلوبية، محمد ديب الجاجي، ط ١ (شركة دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن، جدة - بيروت،

٢٠١٠م) ص ١٣٧، والتقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

الْعَلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿ طه: ١ - ٥ ﴾، "فالفاصلة تجعل وقع الآيات أجمل في النفوس، وتؤثّر في السامع تأثيراً لا ينكر، والسامع يرتاح لهذا الترداد الجميل، ويجذب انتباهه" ^(١)، أمّا من حيث المعنى، فلمّا ذكر الله تعالى أنّ هذا القرآن تذكرة لمن يخشى، (وهو أهل الأرض) ناسب ذلك البداءة بذكر خلق الأرض ^(٢).

٢- وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ۚ فَلَمَّا لَاحَظَ أَنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٨]. قدّم المفعول وأجر الفاعل، وفصل بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور وبالمفعول، لتناسب الفواصل فيحسن وقعها على السمع، وأيضاً لإظهار معنى جليل، وهو تعظيم قدر الرسول عند ربه، فالإنسان يستغرب خوف الرسول، وتأخير كلمة (موسى) بيّن منزلة الرسول عند الله ﷻ، من خلال المعنى الذي أفاده إطلاق الألف في اللفظ، فكأنّه قال (موسى العظيم، أو الرسول الكبير) ^(٣).

٣- وأيضاً قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. أفاد تقديم المفعول على العامل، تخصيص الله تعالى بالعبادة وطلب العون منه، إضافة إلى ذلك مراعاة للفاصلة، وأفادت هذه الفاصلة بمد الياء في (نستعين) جمالية على المعنى، فاستطعنا أن نقدّر كلاماً محذوفاً، وهو (نستعين عوناً كبيراً)، ولو كان الكلام (نستعين بالله) لما كان له هذا الأثر على السامع والقارئ ^(٤).

وهكذا فإنّ الله ﷻ في كلامه، خاطب القلب والروح البشرية كما خطب العقل، فجاءت الآيات بتركيبها وموسيقاها تحمل المعاني إلى القارئ فيحسّ بها تنساب فيه، ويستمتع بما يجده من معان، فيوقن أنّها كلام الخالق الذي أعجز به العرب. إلا أنّ هذا المعنى والجمال لا يتحصل عليه المرء إلا بالقراءة والتكرار وإمعان النظر والتدبر في الكلام الحكيم.

١- التقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ٢٧٦.

٢- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثنائي، ابن جماعة، ت: عبد الجواد خلف، ط ١ (دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٠م) ص

٢٥١.

٣- ينظر: التقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ٢٧٧.

٤- ينظر: التقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ٢٧٣.

المبحث الثالث: أنواع أسلوب التقديم والتأخير:

بيّن كلٌّ من علماء الإعجاز، والمؤلفين في علوم القرآن أنواع التقديم والتأخير، فجعلها الجرجاني في نوعين _ كما مرَّ سابقاً _

الأول: تقديم على نية التأخير: وهو في كلّ شيء أُقَرَّ مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، كتقديم الخبر على المبدأ، والمفعول على الفاعل،...

الثاني: تقديم لا على نية التأخير: وهو في كلّ شيء انتقل مع تقديمه عن حكمه، إلى حكم آخر، وجعل له إعراباً غير إعرابه،.. كجعل الخبر المقدم مبتدأ.

في حين جعله الزركشي^(١) (ت ٧٩٤هـ) ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما قدّم والمعنى عليه (التقديم الذي ليس على نية التأخير): وهذا التقديم من باب وصف الأمر الواقع، فما يكون متقدّماً في الحقيقة، نجد أنّه تقدّم في الكلام أيضاً. وذكر له خمسة وعشرين سبباً، مع توضيحها بالأمثلة ومناقشتها، ونبّه إلى أنّه قد يجتمع في كل مثال سببان فأكثر للتقديم، فإمّا أن تُراد جميعها، أو يُرجّح أحدها على الآخر^(٢). ومنها:

١. التقديم بالسبق، وهو أقسام: السبق بالزمان والإيجاد: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. فالأزواج أسبق بالزمان من البنات.

١- هو: محمد بن بهادر بن عبد الله، أبو عبد الله، بدر الدين الزركشي، ولد وتوفي بمصر، وهو تركي الأصل، كان عالماً فقيهاً شافعيّاً ألف بالأصول وغيره، من مؤلفاته: (البحر المحيط) في الأصول، و(الديباج في توضيح المنهاج) في الفقه، و(البرهان في علوم القرآن)، توفي سنة ٧٩٤هـ. ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عبد المعيد ضان، ط ٢ (مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٧٢م) ١٣٤/٥، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ١٢١/٩، والأعلام، الزركلي، ٦٠ - ٦١.

٢- ناقش هذا النوع في البرهان، ٣ / ٢٣٨-٢٧٥.

تقديم المكان على الزمان: كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، فالمكان هو السماوات والأرض، وقد تقدّم خلقهما على خلق الزمان، الذي هو الظلمات والنور، أي الليل والنهار^(١).

سبق إنزال: كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤]، فرتب الكتب السماوية حسب أسبقية نزولها.

سبق تنزيه: كتقديم الرسول على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٢. التقديم بالذات: كترتيب الأعداد، في قوله تعالى: ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ [النساء: ٣]، وبين الزركشي سبب العدول عن الترتيب في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]، ذلك أن المراد حثهم على القيام بالنصيحة لله، وترك الهوى، مجتمعين أو منفردين، والأهم حال الاجتماع فبدأ بها.

٣. التقديم بالعلّة والسببية: كقوله تعالى: ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧]، فالإفك (الكذب) سبب الإثم، فقدّم عليه.

٤. التقديم بالمرتبة: كقوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧]، فالقريب متقدّم على البعيد، والغالب في القادمين، أنّ الذين يأتون رجالاً يكونون من مكان قريب، فتقدّم ذكرهم على الذين يأتون على الضامر من مكان بعيد.

٥. التقديم بالشرف: ومنها شرف الرسالة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢].

النوع الثاني: ما قدّم والنية به التأخير: كتقديم المفعول على الفاعل، والخبر على المبتدأ، ونحوها، فذكر أمثلة هذا النوع، وأورد أقوال العلماء إن تعددت في المثال، وكان يناقشها أحياناً^(١).

١ - ناقش هنا الزركشي مسألة تقديم المكان على الزمان في الخلق، وذكر تصريح الطبري بهذا. ينظر: البرهان: ٢٤٢ / ٣.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فتقديم المفعول هنا لإفادة الحصر، وكقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، فتقديم الخبر (مانعتهم) يُشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم^٢.

وهناك تسمية أخرى، فالتقديم الذي على نية التأخير، والذي يتم بنقل وتحريك الكلمات مع الإبقاء على وضعها الإعرابي السابق، كتقديم الخبر على المبتدأ مع بقاءه خبراً، يسمّى تقديماً معنوياً، والذي ليس على نية التأخير، فيفقد المقدم فيه وضعه الإعرابي السابق، يسمّى تقديماً لفظياً، ويدخل فيه أيضاً الترتيب بين المعطوفات^٣.

النوع الثالث: ما قَدِّم في آية، وأخر في أخرى: بيّن هذا النوع من خلال شرحه لأمثلته، فكان يذكر الآيتين المتشابهتين، ويبيّن سبب الاختلاف بينهما في ترتيب هذا الكلام^(٤).

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، قدّم المخاطبين في الأولى دون الثانية، لأنّ الخطاب في الأولى في الفقراء، بدليل: (من إملاق)، فكان رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم، فقدّم وعدهم بالرزق، في حين أنّ الخطاب في الثانية للأغنياء، بدليل: (خشية إملاق) فكان رزق أولادهم هو الأهم لذا قدّمه في الوعد.

وضمّ إلى هذا النوع، ما قَدِّم في آية وأخر فيها، لقصد أن يقع البداءة والختم به، للاعتناء بشأنه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [١٦] وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ -

١ - ذكر هذا النوع في ٣ / ٢٧٥ - ٢٨٣.

٢ - ينظر: الكشف، ٤ / ٤٩٩.

٣ - ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي أبو القاسم عون، ط ١ (دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م) ١ / ٦٣.

٤ - ذكر هذا النوع في ٣ / ٢٨٤ - ٢٨٧.

١٠٧]. فابتدأ الحديث عن يوم الحساب بأنه يوم تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، وختم ببيان جزاء من ابيضت وجوههم، اعتناء بشأنهم.

وأيضاً أن يقع التقديم في موضع والتأخير في آخر، واللفظ واحد، والقصة واحدة، وذلك للتفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب. كقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [١٦١].

فقد أضاف الزركشي نوعاً ثالثاً وهو ما يتعلّق بالمتشابه اللفظي في القرآن، وهذا النوع وإن كان يندرج تحت سابقه _فقد يكون الاختلاف في التقديم والتأخير في الآيتين المتشابهتين من التقديم الذي على نية التأخير، وقد يكون من النوع الثاني وهو التقديم الذي ليس على نية التأخير_ فإنه يستحق إفراده بنوع مستقلّ نظراً لأهميته في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم وبديع نظمته، وسيكون التقسيم في هذه الدراسة على طريقة الزركشي.

هذا التقسيم على العموم، ولضبط الدراسة في هذا البحث وشمولها لمواضع التقديم والتأخير في السورة القرآنية سيتم تقسيم المواضع على مستويين.

الأول: مستوى الآية القرآنية.

الثاني: مستوى السورة القرآنية.

ولا بدّ من الإشارة إلى ما يرجع إلى نظم السور القرآنية واحدة تلو الأخرى، ذلك لأن ترتيب القرآن في المصحف على غير ترتيبه وقت نزوله، فلا بدّ من حكمة لهذا. لكن لما كان ترتيب السور أمراً مختلفاً فيه^(١) _أتوقيفي أم اجتهادي^(٢)_ فلن أتطرق إلى هذا النوع، بالإضافة إلى أنّ إثباته يحتاج

١- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن، دراسة تحليلية، د. منير المسيري، ص ١٣٢-١٣٣.

٢- في المسألة ثلاثة أقوال: جمهور العلماء _بخلاف ما ذكره السيوطي_ على أنّ ترتيب السور توقيفي، والإمام مالك، وابن فارس وابن عطية، وغيرهم على أنّه اجتهادي، والقول الثالث على أنّ ترتيب البعض توقيفي، والآخر اجتهادي، ولكل أدلته. ينظر:

إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس، ط ٢ (الأردن، دار النفائس، ٢٠١٠م) ١/ ٤٤١-٤٤٢.

إلى دراسة كل سورة والنظر في موضوعاتها، حتى تتبين الحكمة من ترتيبه ويظهر الرابط بين السور من الفاتحة إلى الناس، وهذا ما لا تتسع له هذه الدراسة.

المستوى الأول: التقديم والتأخير في الآية القرآنية:

إنَّ "الناظر في آيات القرآن يجد ذلك التلاحم والترابط بين آياته، بل كلُّ كلمة إنَّما رُتبت لغاية، ووضعت لتؤدي معنىً وهدفاً"^(١)، وهذا النوع يهتم فيما يكون بين جمل الآية الواحدة وألفاظها، يقدم بعضها على بعض، للدلالة على معنى. ومن الضروري أن نتعرّف على سبب تقديم هذه اللفظة أو هذه الجملة على تلك وما تنطوي عليه من أسرار ودلالات^(٢). وهو التقديم الذي ليس على نيّة التأخير.

١- ففي قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، تذكر الآية أحوال الآتين إلى الحج، منهم من يأتي ماشياً، ومنهم من يركب دابة تبليّعه الحرم، وقدّم (رجالاً) على (على كلِّ ضامر) لأنّها أغرب الحالين^(٣)، وأفضلهما لعظم أجر المشقة التي يلقاها الحاج في أداء فريضته، والمشي أعظم مشقة من الركوب^(٤).

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، تأتي الآية لبيان عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه، فجاء ترتيب الأجناس في حال المشي بما يتوافق مع بيان عظم قدرة الله تعالى، ولا ريب أنّ من يمشي (زحفاً) بلا آلة مشي أقوى دلالة على قدرة الله ^{عز وجل}، ممن يمشي على رجلين، وبعده من

١- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ١٣٠.

٢- ينظر: من بلاغة النظم القرآني، دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ط ١ (مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠١٠م) ص ٦٦.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ١٧/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

٤- ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامي محمد سلامة، ط ٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م) ٥/ ٤١٤،

وروح المعاني، ٩/ ١٣٧.

يمشي على أربع. والتقديم الحاصل في الآية، كان عاملاً في الكشف عن دلالة الآية الكريمة، وبيان عظيم قدرة الله تعالى^(١).

٤ - وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَ كَثِيرًا ﴿[الفرقان: ٤٨ - ٤٩]، في الآية (٤٩)، بين الله وُجُوهَ أسباب إنزال الماء الطهور، وهي: إحياء الأرض، وسقي الأنعام، وسقي الناس. وقدم الإحياء على سقي الأنعام، وسقي الأنعام على سقي الناس، وهذا الترتيب يحمل بين طياته حكماً جليلاً، ويكشف عن دلالات عديدة. فسياق الآيات يتحدث عن نِعَمِ الله تعالى على عباده، وما امتنَّ به عليهم، ولهذا قدَّم الأولى بما يناسب المقام. فحياة الناس بحياة أرضهم ومواسيهم قدَّم نعمة إحياء الأرض على غيرها. وأيضاً قدَّم سقي الأنعام لأنه إذا تيسر للناس سقيا أرضهم وأنعامهم، فلن يعدموا سقياهم^(٢).

٥ - وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، "بدىء بالماء لأنه في الدنيا مما لا يُستغنى عنه، ثمَّ باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثمَّ بالخمير لأنه إذا حصل الرِّيُّ والمطعم تشوّفت النفس إلى ما يلتذُّ به، ثمَّ بالعسل لأنَّ فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعم فهو متأخر بالرتبة"^(٣).

٦ - وأيضاً في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، فالتقديم والتأخير هنا متعلق بأمر من أمور العقيدة والتوحيد، حيث تقدَّم الأمر بالعلم على الأمر بالقول والعمل، وفي هذا دلالة على أنَّ القول والعمل دون علم لا يفيد صاحبه، فمن قال لا إله إلا الله دون أن يفقه معناها كان مردداً لحروف وأصوات فقط، لا أثر لها أبعد من وصولها إلى الأذن. وتأخير طلب الاستغفار عن شهادة التوحيد، إشارة إلى أنَّه لا ينفع

١ - ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي، ٤ / ١١١، والتحرير والتنوير، ١٨ / ٢٦٦.

٢ - ينظر: تفسير البضاوي، ٤ / ١٢٧، وروح المعاني، ١٠ / ٣١.

٣ - روح المعاني، الألوسي، ١٣ / ٢٠٥.

استغفار مع الشرك^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وإذا كانت الآية، هي: "قرآن مركّب من جُمْل ولو تقديرًا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة"^(٢)، فيمكننا معاملة أجزائها إلى حدٍّ ما كجمل عربية، إذا أردنا دراسة خصائص تلك الجملة وما فيها من بلاغة وبيان، وإذا كانت الجملة هي: "كلام تامّ يدل على معنى، أقلّه: نسبة شيء إلى شيء إثباتاً أو نفياً، أو إنشاء ربط بين شيء وشيء آخر يكفي لإنشائه القول، مثل.. الأمر بفعل ما"^(٣) مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ القرآن كلام الله، ولا يدانيه أيُّ كلام مهما بلغ من الفصاحة. فالقصد بالجملة القرآنية: جزء من الآية، أي: ما هو أقلُّ من الآية الواحدة، ولكنه كلام تامّ يفيد معنى.

وستوضح الأمثلة القرآنية الغرض البلاغي من تقديم ما قدّم في الجملة القرآنية، مما ليس حقّه التقديم^(٤). وهذا يندرج تحت التقديم الذي على نية التأخير.

١- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، قدّم المسند إليه (لفظ الجلالة) على الخبر الفعلي (يصطفي)، ولم يقل ﴿يَكُنْ﴾: نصطفي، لإفادة الاختصاص، أي: أنّ الله تعالى وحده الذي يصطفي من يشاء من مخلوقاته، لا أحد غيره^(٥).

٢- وأيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، قدّم (وأنتم) على الخبر الفعلي (لا تُظلمون)، وهذا التقديم أفاد تقوي الحكم وتأكيد، فإنهم لا يُظلمون من غيرهم^(٦).

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، يتحدث الله عن الكافرين، الذين أغلقوا عقولهم عن سماع الهدى الحق، فنفسهم مفلتة على المكابرة

١- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٦١٣.

٢- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ت: د. مصطفى البغا، طه (دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٢م) ١ / ١٣٣.

٣- البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ١ / ١٤٠.

٤- أي: ما ليس له حق الصدارة في الكلام، كأسماء الاستفهام، وأدوات الشرط... فهذه تقديمها ليس لغرض بلاغي.

٥- ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧ / ٣٤٤.

٦- ينظر: التحرير والتنوير، ٣ / ٧٣.

والعناد وبغض من أنعم الله عليه وحسده، وهذه الخصال كانت حائلاً بينهم وبين التأثر بالمسموعات، فجاء الاستفهام التعجبي بتقديم المسند إليه (أنت) على الخبر الفعلي (تسمع) ليقوّي الخبر ويؤكّده^(١).

٤ - وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قدّم الخبر الذي هو الجار والمجرور (وعلى المولود له) على المبتدأ للعناية والاهتمام به^(٢). وكذلك تقديم الرزق على الكسوة "لأنّه الأهم في بقاء الحياة، ولتكرّره كلّ يوم"^(٣).

وهذه الأمثلة بيّنت أنّ الخروج عن المألوف في ترتيب الجملة، يعطي دلالة زائدة عما يعطيه أصل التركيب^(٤)، وتتنوع هذه الدلالات والأغراض، كما بيّنها المبحث السابق.

أمّا النوع الثالث: ما قدّم في آية وأجر في أخرى: فهناك آيات متشابهة الألفاظ، ورد فيها تقديم بعض الألفاظ في موضع، وتأخيرها في موضع آخر، وقد اعتنى العلماء ببيان الفروق^(٥)، وأثر تغيير مواضع الألفاظ على المعنى، من خلال النظر في الآية ضمن سياقها، وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

١ - قوله تعالى في فاتحة كتابه الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال في آية أخرى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ [الجاثية: ٣٦]، فتقديم الحمد في الأولى جاء على الأصل، أمّا في الموضع الثاني فكان على تقدير الجواب، فكأنّه قيل: لمن الحمد؟ فكان الجواب على ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]^(٦).

١ - ينظر: روح المعاني، ٦/ ١١٩، والتحريم والتنوير، ١١/ ١٧٨.

٢ - ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٢/ ٤٧٠.

٣ - الدر المصون، السمين الحلبي، ٢/ ٤٧٠.

٤ - ينظر: من بلاغة النظم القرآني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ص ٦٦.

٥ - والمكتبة القرآنية غنية بمجده الكتب، ك (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الاسكافي، و (متشابه القرآن) للكرماني، و (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي، ، ومما كتبه المعاصرون: (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم) للدكتور محمد ماجد العطائي.

٦ - ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٢٨٤.

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِبٍ﴾ [مريم: ٩]، مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ففي الآية الأولى تقدّم الجار والمجرور (عليّ) على الخبر، للدلالة على الاختصاص، حيث المقام يقتضي ذلك. أمّا في الموضع الثاني، فلم يتقدّم إذ لا حاجة تدعو للدلالة على اختصاصه تعالى بالإعادة، فهي أهون عليه من البدء^(١).

٣- وفي قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَِّّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، تجد أنّ الجار والمجرور (إليّ و إليك)، تقدّم على المفعول في قوله (بسطت إليّ يدك) وتأخّر عنه في قوله (ما أنا بباسط يدي إليك)، فما دلالة التقديم والتأخير في كلا التركيبين؟ إنّ تقديم الجار والمجرور يُشعر بطغيان الباسط، فهو يقدم على قتل أخيه، فقدّم الجار والمجرور لعلّه يرتدع، إذ فيها تذكير بالأخوة بينهما.

في حين أنّ تأخير الجار والمجرور، أفاد عدم حرص الآخر على قتل أخيه، فهو ليس مما يصدر عنه هذا الفعل، وأيضاً فإنّ تقديم المسند إليه وكونه مسبوقاً بنفي (ما أنا) أفاد نفي الفعل عن نفسه وإثباته لغيره^(٢).

وهكذا يتجلى لنا معنى الإعجاز في النظم القرآني، فهذا أسلوب التقديم والتأخير يكشف لنا عن أسرار وأسرار انطوى عليها كلام الله تعالى، وتظهر لمن أنعم النظر وأطال التأمل والتدبر في الآيات القرآنية، فما من كلمة وُضعت في القرآن إلا وهي تحمل معنى في وضعها ودلالة تنطوي عليها. هذا في نطاق الآية الواحدة، فكيف يكون على مستوى السورة كاملة؟.

المستوى الثاني: التقديم والتأخير في السورة القرآنية:

وهو ما يكون بين الآيات بعضها مع بعض من ترتيب تبعاً للمعنى والغرض المقتضي لذلك، ويحتاج إلى نظر وطول تأمل وتدبر للكشف عن حكم التقديم والتأخير، وأسراره ودلالته التي تضيفي على

١- ينظر: روح المعاني، الألوسي، ٣٨ / ١١.

٢- ينظر: من بلاغة النظم القرآني، بسيوني عبد الفتاح فيود، ص ٧١ - ٧٢.

المعنى وضوحاً ورونقاً^(١). وهذا يندرج تحت علم عظيم من علوم القرآن الكريم، ألا وهو علم المناسبات، لذا لا بدّ من تعريف موجز بهذا العلم.

تعريف علم المناسبات:

المناسبات لغةً: جمع مناسبة، والمناسبة المشاكلة، والتناسب: التشابه والتقارب، يقال: ناسب الأمر أو الشيء فلاناً، أي: لاءمه ووافق مزاجه، والنسيب هو القريب المتصل^(٢).

اصطلاحاً: هو "علم تُعرَف منه علل ترتيب أجزائه [أي القرآن الكريم]، بعضها إثر بعض، وهو سرٌّ من أسرار البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"^(٣). فهو علم اجتهادي، يحاول فهم أسرار ودلالة وحكمة ترتيب الآيات والسور.

وهو قسمان: قسم يتناول التناسب بين الآيات في السورة الواحدة، وقسم يتناول التناسب بين السور القرآنية. وهذه الدراسة تهتم بالقسم الأول فقط^(٤)، وله عدة صور:

لكن قبل أن نتحدّث عن هذه الصور نشير إلى أنّ الإمام البقاعي (ت ١٨٨٥هـ) ° دلّنا على الطريق الأنسب لتلاحم أجزاء السورة في القرآن، بقوله: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر الغرض الذي سيقّت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر في مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة التي تقتضي

١- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ١٣٢.

٢- ينظر: القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ت: خليل مأمون شيحا، ط ٤ (دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩م) مادة (نَسَب) ص ١٢٧٩، ومختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ت: د. أيمن الشوّا، ط ١ (دار الفيحاء، دمشق، ٢٠١٠م) مادة (نَسَب) ص ٤٤٢.

٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، د. ط (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت) ١ / ٦.

٤- لما بينته سابقاً ص ٧١ - ٧٢ .

٥- هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط، أبو الحسن برهان الدين البقاعي، كان مؤرخاً أديباً، سكن دمشق وتوفي بها، وله العديد من المصنفات، منها: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ويسمى تفسير البقاعي، وله (مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، وله (عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران)، وغيرها. ينظر: الأعلام، الزركلي، ١ / ٥٦.

البلاغة، شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف بالوقوف عليها"^(١). إذاً هو علم يقوم على استنباط المقصد العام للسورة القرآنية، وبيان علاقة أجزائها بهذا المقصد.

ومن الصور التي تُعنى هذه الدراسة بها:

١- تناسب ترتيب الآيات مع بعضها البعض.

٢- تناسب ترتيب مقاطع السورة المتتابعة.

أولاً: تناسب ترتيب الآيات مع بعضها البعض:

كلُّ ترتيب في كلام الله ﷻ جاء لحكمة يريد بها، وله دلالة في ترتيب المعاني التي تحملها الآيات، وكل هذا يأتي حسبما يقتضيه سياق الآيات الكريمة.

ففي سورة النبأ بعد أن افتتحت بتهديد الكفار وزجرهم عن اختلافهم في البعث...، ساق الله تعالى ما يدل على كمال قدرته وعظيم نعمه، فبدأ بذكر الظرف الذي هو فرشهم، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۚ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧]، ثم أتبعه بذكر المظروف، وهو أنفسهم، ليجتمع لهم بذلك آيات الأنفس والآفاق، فتكون أمكن في نفوسهم، فقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨]، ولما كان هذا ذكراً لسبب بقاء النوع، أتبعه بما هو سبب لحفظه، وهو جعل النوم راحة للأبدان بعد نهار مليء بالحركة والسعي^(٢)، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۚ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١]، وهكذا ينتقل من آية إلى آية، فكلُّ واحدة تمهّد لما بعدها، وهذا الترتيب الدقيق، وتقديم الأعم الأشمل على غيره، يعلم طريقة في التفكير تجعل المتأمل يطيل النظر في آيات الله الكونية، فكل ظاهرة يراها تقوده إلى أخرى أعجب منها، ولا تنقضي آيات الله تبارك في علاه.

١- نظم الدرر، البقاعي، ١/ ١٨.

٢- ينظر: نظم الدرر، ٢١/ ١٩٥ - ١٩٧.

وهذه الصورة كثيرة في القرآن الكريم، وأكثر المفسرين^١ يعمل على التماس أوجه المناسبة في الترتيب بين الآيات الكريمة، وسبب تقدّم هذه الآية على التي تليها، فيخرج بأسرار عظيمة وحكم بليغة، تبصّر القارئ بمعاني الآيات، وتزيد تمكنها في قلبه وعقله.

ثانياً: تناسب ترتيب المقاطع في السورة:

إنّ ترتيب موضوعات السورة القرآنية يُراعى فيه خدمة المحور الأساسي أو المقصد الرئيس الذي تسعى السورة إلى إظهاره، وبإنعام النظر في الآيات وتدبّر معانيها يمكن تقسيم السورة إلى عدّة مقاطع لكلّ مقطع موضوع يدور عليه، وبالنظر في ترتيب المقاطع في السورة يمكن استنباط عمود السورة أو الموضوع الرئيس الذي تسعى السورة إلى تقريره. وما يهتّمنا في الأمر استنباط الحكمة من ترتيب المقاطع وتقديم بعضها على بعض على النحو الذي جاءت عليه، ففيه استنباط لحكم جليلة من حكم التشريع. والترتيب الوارد في سورة هود خير مثال عليه وسيأتي بيانه.

هذا مجمل بأنواع التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ونماذج من الأمثلة لكلّ نوع، تكشف عن بلاغة القرآن الكريم، فلكلّ مثال روعته وجماله يظهر من خلال إنعام النظر إلى الآية ضمن سياقها الواردة فيه.

ولقد اهتمّ المفسرون بالبلاغة عموماً في تفاسيرهم، وبأسلوب التقديم والتأخير خصوصاً، وسندرس كيف تعامل كلٌّ من الزمخشري وابن عاشور مع هذا الأسلوب في ما سيأتي من هذه الدراسة.

١- ومن اشتهر بتتبّع التناسب بين الآيات: الرازي، في (مفاتيح الغيب)، والنيسابوري في (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، وأبو

حيان الأندلسي في (البحر المحيط)، وأبو السعود في (إرشاد العقل السليم)، وغيرهم.

الفصل الثاني: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند الزمخشري:

- تمهيد: التعريف بالزمخشري وتفسيره.
- المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في الكشف.
- المبحث الثاني: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود.
- المبحث الثالث: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.
- المبحث الرابع: كيفية تعامل الزمخشري مع أسلوب التقديم والتأخير.

تمهيد: التعريف بالزَمَخْشَرِي وتفسيره:

أولاً: التعريف بالزَمَخْشَرِي:

هو أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد، الزَمَخْشَرِي الخوارزمي.

– مولده ونشأته:

وُلِدَ الزَمَخْشَرِي بِزَمَخْشَر (قرية من قرى خوارزم)، في رجب سنة ٤٦٧ هـ، وأخذ العلم عن جماعة من شيوخها، ثم رحل إلى خراسان، وبغداد، ودمشق، وقصد بيت الله حاجاً فمكث مدة حتى سُئِيَ بِجَارِ اللَّهِ، ثم عاد إلى خوارزم فتوفي بها ليلة عرفة، سنة ٥٣٨ هـ، وكان يُسَمَّى أيضاً (فخر خوارزم)^(١).

كان حسن الخلق، صاحب دين وورع، يظهر ذلك في كتاباته، منها: ما ذكره في أطواق الذهب: "أحرص وفيك بقيّة، على أن تكون لك نفس نقيّة، فلن يسعد إلا التقيّ، وكلّ من عداه فهو شقيّ"^(٢).

وله أيضاً: "من استوحش المنكرات، استأنس عند السكرات،... وطوبى لمن سرّه المعروف فاهتز، وساءه المنكر فاشمأز، وقام بأمر الله في إهانة الأشرار وعَصَبَ سَلَمَتَهُمْ، وفي إعانة الأبرار ونصب كلمتهم"^(٣).

١ – ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، ٣/ ٢٦٥ - ٢٦٨، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٠/ ١٥٢ - ١٥٥، وطبقات المفسرين، السيوطي، ١/ ١٠٤ - ١٠٥، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١ (المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٦٥ م) ٢/ ٢٧٩، والأعلام، الزركلي، ٧/ ١٧٨.

٢ – أطواق الذهب في المواعظ والخطب، الزمخشري، ت: أحمد عبد التواب عوض، د. ط (دار الفضيلة، القاهرة، د. ت)، المقالة الخامسة والعشرون، ص ٩١.

٣ – العَصَب: هو ربط أغصان الشجرة بحبل حتى تجتمع، والسَّلَمَة: شجرة لها أشواك، وهذا كناية عن التشديد عليهم. المرجع السابق، المقالة السادسة والعشرون، ص ٩٣.

- مكانته العلمية:

كان رحمه الله واسع العلم تُشدُّ إليه الرحال، شديد الذكاء، متعمِّقاً في مختلف العلوم، فهو النحوي الأديب الشاعر المتكلم المفسر البلاغي، كان علامة الأدب، ونسابة العرب، صنَّف العديد من المصنَّفات، وكان حنفي المذهب، معتزلياً، مجاهراً باعتزاله وداعياً إليه، يقول لمن يأخذ له الإذن بالدخول: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب^(١).

من مصنفاته: (الكشاف) في التفسير، و(الفائق) في الحديث، و(أساس البلاغة) في اللغة، و(المفصل) في النحو، و(المستقصى) في الأمثال، و(المنهاج) في الأصول، و(أطواق الذهب) و(ربيع الأبرار) في النصائح والمواعظ، وله ديوان شعر، وغير ذلك كثير.

ومن شعره، ما قاله في كشَّافه:

إنَّ التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشَّافي

إن كنتَ تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالدَّاء والكشَّاف كالشافي^(٢)

- شيوخه وتلامذته:

أخذ الزمخشري العلم عن العديد من العلماء، منذ أوَّل طلبه للعلم في مسقط رأسه في زمخشري، وحيثما استقرت به رحاله في بغداد وغيرها، ومن شيوخه:

أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني النحوي^(١): أخذ عنه اللغة والنحو، وكان له في نفس الزمخشري عظيم الأثر، وقد رثاه بمرثية طويلة تظهر مكانة شيخه في نفسه، قال فيها:

١- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٠ / ١٥٥ - ١٥٦، وطبقات المفسرين، السيوطي، ١ / ١٠٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، ط ١ (دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م) ٦ / ١٩٦، والأعلام، الزركلي، ٧ / ١٧٨.

٢- ديوان جاز الله الزمخشري، ت: فاطمة يوسف الخيمي، ط ١ (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨م) ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

وقائلة ما هذه الدُّرُّ التي تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت لها الدُّرُّ الذي كان قد حشا أبو مضر أدني تساقط من عيني^٢

ومنهم أيضاً أبو علي الحسن بن المظفر النيسابوري^(٣)، وسمع من أبي الخطاب ابن البطر^(٤) وغيرهم كثير^(٥).

أما تلامذته:

فقد كان لا يدخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتعلموا له، منهم: أبو طاهر السلفي^(٦)، وزينب بنت الشعري^(٧)، ومحمد بن أبي القاسم البقالي^{(٨)(٩)}.

١- هو فريد عصره، ووحيد دهره، أول من أدخل الاعتزال إلى خوارزم، كان عالماً باللغة، والنحو، والطب، يُضرب به المثل في أنواع الفضائل، لم تُعرف له كتب ألفها، إلا (زاد الراكب) اشتمل على بعض الشعر والأخبار والحكايات، توفي سنة ٥٠٨ هـ. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ٢/ ٢٧٦، والأعلام، الزركلي، ٧/ ١٦٧.

٢- ديوان الزمخشري، ص ٥٥٨.

٣- هو من أدباء خوارزم، وشعرائها، له ديوان شعر، وتهذيب ديوان الأدب، وتهذيب إصلاح المنطق، وغيرها، توفي سنة ٤٤٢ هـ. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ١/ ٥٢٦.

٤- هو نصر بن أحمد بن عبد الله البغدادي، شيخ مقرئ، مسند العراق، ارتحل إليه المحدثون، ورؤوا عنه، توفي سنة ٤٩٤ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٩/ ٤٦-٤٨.

٥- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٠/ ١٥٤، وبغية الوعاة، ٢/ ١٦٦، وطبقات المفسرين، السيوطي، ١/ ١٠٥.

٦- هو أحمد بن محمد بن سلفه الأصبهاني، صدر الدين أبو طاهر السلفي، كان حافظاً مكثراً، رحل في طلب الحديث، وله الكثير من التعليقات والأُمالي، وله (معجم شيوخ بغداد)، و(الفضائل الباهرة في مصر والقاهرة)، توفي في الاسكندرية سنة ٥٧٦ هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ١/ ٢١٥-٢١٦.

٧- هي زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجاني الشَّعْري، أم المؤيد، كانت عالمة فقيهة، لها اشتغال بالحديث، أخذت عن عدد من كبار العلماء، وأخذ عنها الكثير، توفيت سنة ٦١٥ هـ، وانقطع بموتها إسناد عال في الحديث. ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ت: أحمد الأرناؤوط وتركبي مصطفى، ط ١ (دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م) ١٥/ ٤١، والأعلام، الزركلي، ٣/ ٦٦.

٨- هو محمد بن أبي القاسم بن بابجوك، البقالي الخوارزمي، أبو الفضل، كان عالماً أديباً، مفسراً، حنفي المذهب، له العديد من المؤلفات، منها: (الهداية) في المعاني والبيان، و(تقويم اللسان) في النحو، وغيرها، توفي سنة ٥٦٢ هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦/ ٣٣٥-٣٣٦.

٩- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٠/ ١٥٤-١٥٥، وطبقات المفسرين، السيوطي، ١/ ١٠٥.

وكل قارئ متعلّم لكتبه هو تلميذ له، فقد رحل رحمه الله تعالى، وبقيت آثاره تُستنبط دررها، ويُكشف عن لآئها، وسنبحث في هذه الدراسة عما خبأه الزمخشري بين طيات تفسيره الكشاف من بلاغة وبراعة.

ثانياً: التعريف بالكشاف:

- سبب التأليف:

ألف الزمخشري كتابه في التفسير (الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) في مجاورته الثانية لبيت الله الحرام، وذلك بعد إلحاحٍ شديدٍ ممّن حوله من علماء المعتزلة. كانت البداية بإملاءات أملاها الزمخشري في تفسير فاتحة الكتاب، وما في سورة البقرة من فوائد ولطائف، على طريقة السؤال والجواب، وذكر ذلك في مقدمته فقال: "وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيل والأذنان، وإِنَّمَا حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه"^(١). والحال أنّ الناس متلهّفةٌ لعمل كهذا يقوم به من هو أهلّ له، فذاع صيت ما أملاه في البلاد، وتحيّن الناس الفرص للعثور عليه. وكان من هؤلاء الأمير الشريف أبو الحسن علي بن حمزة بن وهّاس، أمير الحجاز، الذي التقى الزمخشري في الحرم، وأعرب له عن رغبته في الحصول على ما أملاه، فشمر الزمخشري عن ساعدي همتّه، وشرع في تأليف تفسيره لكتاب الله ﷻ، سالكاً طريق الاختصار، "مع ضمان التكتير من الفوائد والفحص عن السرائر"^(٢) ملازماً لبيت الله الحرام، فأتمّه في سنتين وأربعة أشهر بعون الله تعالى وبركة بيته الحرام.

١- الكشاف، ت: د. عبد الرزاق المهدي، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت) ١ / ٦.

٢- الكشاف، ١ / ٦.

– منهجه في التفسير:

إنَّ تفسيرَ (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) تفسيرٌ لم يُسبق إليه، لما فيه من بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، وكشف عن جمال نظم، وبلاغته^(١)، والزمخشري في عمله هذا خالف مَنْ سبقه من المفسرين، فلم يقصد إلى بيان معاني الألفاظ القرآنية، وإعرابها، وما في الآيات من أسباب نزول، وما إلى ذلك من موضوعات لذاتها، وإنما للكشف عن إعجاز النظم القرآني وأسراره^(٢).

لذلك جعل البلاغة نصب عينيه، فاهتمَّ بها، دراسة وتأليفاً حتى تضلَّع بها، وعرض في تفسيره لمسائل بلاغية كثيرة، موضَّحاً لها، كاشفاً عمَّا تخفيه من دقائق المعاني، ليظهر جمال نظم كتاب الله ﷻ، وفي هذا كان يعتمد على السياق، وربط الكلام برابط المعنى البلاغي، فكان يتأمَّل سبب تقديم بعض الكلمات على بعض، أو سبب ترتيبها من حيث السياق بذوقه الأدبي المتميِّز^(٣).

طبَّق الزمخشري في تفسيره آراء عبد القاهر الجرجاني، تطبيقاً دقيقاً، مضيفاً إليها ملاحظاته واستنباطاته، حتى غدا الكشاف يمثِّل الجانب العملي لهذه الآراء، لكن بقلم الزمخشري^(٤)، فيمكن القول إنَّ عبد القاهر قد اهتمَّ بتوضيح وسيلة فهم البيان القرآني في الآية، والزمخشري أبرز هذا البيان مستخدماً فهم عبد القاهر وتوجيهاته^(٥).

إلا أنَّه في تفسيره لم يشمل كلَّ ما حواه النص القرآني من أمور بلاغية، فقد يتجاوزها أحياناً، لتوضيح مسألة لغوية أو نحوية أو تاريخية...، وقد اتسعت نظره في دراسة التقديم فشملت تقديم جملة

١- ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط ٧ (مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٠م) ١/ ٣٠٦.

٢- ينظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد كريم كواز، ص ٢٦٤، و الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، ط ٢ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ت) ص ٢٠٥.

٣- ينظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ١٠٨.

٤- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص ٢٤٣، والزمخشري المفسر البليغ، كامل عويضة، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م) ص ١٣٢، ١٣٦.

٥- ينظر: معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، محمد بركات حمدي أبو علي، ص ٢٢.

على جملة، ونظر في ترتيب الجمل، وكان يشير إلى موضع التقديم، ويبين الغرض منه، وما أضفاه على المعنى من دلالات بليغة، وأحياناً كان يكتفي بالانبهار بجمال البيان القرآني، فيطلق عبارة الاستحسان فحسب^(١).

- مصادر التفسير:

وعى الزمخشري دقة علم التفسير وأهميته، وخطورة الإقدام عليه ممن لم يتحلَّ بشروطه، فالتفسير "باب من أبواب المعارف العليا التي لا ينهض بها من الخاصة إلا أوحدهم، لأنَّه في حقيقته ملح لمحاسن النكت، ودرك للطائف المعاني، وبصر بغوامض الأسرار"^(٢) وذكر في مقدمته صفات للمفسِّر، منها صفات جبليَّة ترجع إلى طبيعة المفسِّر، ومنها ما هو مكتسب يحصل بالتعلُّم والممارسة، ويبيَّنهما فقال: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق [معاني القرآن ولطائفه]، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهَّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنا، وبعثته على تتبُّع مظاهِرهما همَّة في معرفة لطائف حجَّة الله، وحرصٌ على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظٍّ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات،... فارساً في علم الإعراب، مقدِّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القرينة وقادها، يقظان النفس، دراكاً للمحة وإن لطف شأنها، متنبهاً على الرزمة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلِّف، وكيف ينظم ويرصف"^(٣).

١ - ينظر: الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني، ابتسام حمدان، ص ٦٨، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى، د.ط/ت (دار الفكر العربي، القاهرة) ص ٢٦٩، ومنهج الزمخشري

في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، ط ٢ (دار المعارف، مصر، د.ت) ص ٢٦٣.

٢ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد أبو موسى، ص ٥٨.

٣ - الكشف، ٦ / ١.

والمخشري بطبيعة الحال متمكّن من الأدوات التي تؤهله لتفسير كلام الله ﷻ، وقد استفاد في تأليفه من سبقه، وأشار إلى ذلك في تفسيره، فنراه رجّع في كل فنٍّ إلى مصادره، فأخذ في التفسير عن مجاهد^(١) (ت ١٠٤هـ) والزجاج^(٢) (ت ٣١١هـ)، وأبي بكر الأصبم المعتزلي^(٣) (ت ٢٢٥هـ)، وغيرهم، ووفي القراءات كان يرجع إلى مصاحف قرّاء وأمصار مختلفة كمصاحف أهل الحجاز والبصرة، وفي اللغة رجّع إلى كثيرين منهم: سيويه (ت ١٨٠هـ) والمبرد^(٤) (ت ٢٨٥هـ) وابن جني^(٥) (ت ٣٩١هـ)، وأخذ عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في الأدب، كما عاد إلى مؤلفاته كنوابع الكلم^(٦).

– أثر الكشف فيمن بعده:

إنَّ "استخراج محاسن النكت..."، ولطائف المعاني التي تستعمل فيها الفكر، وبيان ما في القرآن من الأساليب لا يتهياً إلا لمن برّع في هذين العلمين [المعاني والبيان]، لأنَّ لكلِّ نوع أصولاً وقواعد، ولا يدرك فنُّ بقواعد فنٍّ آخر، والفقيه والمتكلم بمعزل عن أسرار البلاغة، وكذا النحوي واللغوي. وقد كان الصحابة يعرفون هذا المغزى بالسليقة، فكانوا يعرفون بالطبع وجوه بلاغته كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه، ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين في ذلك، لأنَّه لم يكن يجهلها أحد من أصحابه، فلمّا ذهب

١- هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج، المكي المقرئ المفسّر، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ولد في خلافة عمر، سمع من السيدة عائشة، ومن أبي هريرة، وابن عباس وغيرهم، وأخذ عنه الكثير، توفي وهو ساجد سنة ١٠٤هـ. ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ٣/ ١٤٨.

٢- هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق البغدادي، المعروف بالزجاج، عالم بالنحو واللغة، جعله وزير المعتضد العباسي مؤدّباً لابنه، من كتبه (معاني القرآن)، وكتاب (الاشتقاق)، وكتاب (العروض والقوافي)، وغيرها، توفي سنة ٣١١هـ. ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، ٧/ ٢٣٢، والأعلام، الزركلي، ١/ ٤٠.

٣- هو عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصبم، الفقيه المعتزلي المفسّر، كان من أفصح الناس وأفقههم، له كتاب بالتفسير، توفي نحو سنة ٢٢٥هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٣/ ٣٢٣.

٤- هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبو العباس، المعروف بالمبرد، ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد، كان إماماً في اللغة والأدب، والأخبار، أخذ عن أبي حاتم السجستاني، وغيره، من مصنفاته: (الكامل) و(إعراب القرآن) و(طبقات النحاة البصريين)، توفي سنة ٢٨٦هـ. ينظر: طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ١/ ١٠١، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٤/ ٣١٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٣/ ٥٧٦-٥٧٧، والأعلام، الزركلي، ٧/ ١٤٤.

٥- هو: عثمان بن جني، أبو الفتح، الموصلّي، كان إماماً في العربية، قرأ الأدب على أبي علي الفارسي ولازمه طويلاً، له مؤلفات كثيرة، منها: (الخصائص)، و(سر الصناعة)، و(المختضب في الشواذ)، توفي سنة ٣٩٢هـ. ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأنباري، ١/ ٢٤٤، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٣/ ٢٤٦-٢٤٨، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٧/ ١٧-١٩.

٦- ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، ص ٨٠-٩٢.

أرباب السليقة وضع لكلٍ من الإعراب والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع فكان حكم علم المعاني والبيان كحكم النحو، ولما كان (كتاب الكشف) هو: الكافل في هذا الفن، اشتهر في الآفاق واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه^(١).

من خلال هذا الكلام، نعرف سبب شهرة الكشف، ومدى ذبوع صيته في الآفاق...، لهذا كان حرياً على كلِّ طالب علم، ومريد لفهم كلام الله تعالى ألا يستغني عن الكشف في طريقه العلمي، "فالكتاب واحد في بابه، وعلم شامخ في نظر علماء التفسير وطلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال"^(٢).

ولهذا فقد قام العديد من العلماء بشرح الكشف ووضع الحواشي عليه، فمنهم من ناقشه في المسائل الاعتزالية وردّها، ومنهم من توسّع في المسائل البلاغية واهتمّ بها^(٣)، من هذه الدراسات:

١ _ حاشية الانتصاف: للعلامة أحمد بن محمد بن منصور الإسكندري المالكي المشهور بأبي العباس ابن المنير^٤ (ت ٦٨٣هـ)، وسمّاها (الانتصاف فيما تضمّنه الكشف من الاعتزال) وهي من أشهر الحواشي التي اهتمّت بالمسائل الاعتزالية في الكشف وناقشتها.

١ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت) حاجي خليفة، ١٤٧٦ - ١٤٧٧.

٢ - التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ١ / ٣٠٨.

٣ - ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ٦٠ - ٦١، ومنهج الزمخشري في تفسير القرآن، مصطفى الجويني، ص ٢٧١ - ٢٧٩.

٤ - كان قاضي الإسكندرية وعالمها، وكان إماماً بارعاً بالفقه والأصول والعربية، له مصنفات عدة، منها: (البحر الكبير في نخب التفسير) في تفسير القرآن الكريم، وحاشيته المشهورة على الكشف، توفي سنة ٦٨٣هـ. ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ١٥ / ٤٩١، والأعلام، الزركلي، ١ / ٢٢٠، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط ٣ (مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م) ١ / ٦٦.

٢_ وكتب أيضاً العلامة عمر بن محمد خليل السكوتي^١ (ت ٧١٧هـ) كتاباً سَمَّاه (التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز)، وكان ألعياً شديداً الذكاء في مناقشاته مع الزمخشري^(٢).

٣_ حاشية الطيبي: كتبها العلامة شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي^٣ (ت ٧٤٣هـ)، وسَمَّاه (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، وهي من الدراسات التي اهتمت بالبحث البلاغي في الكشف.

٤_ ومن ناقشه في المسائل النحوية، أبو حيَّان الأندلسي^(٤) (ت ٧٤٥هـ) في البحر المحيط، وغيره، مع الإشارة إلى أنه لم يستغن مفسرٍ ممن جاء بعد الزمخشري عن الاستفادة من الكشف وذكر أقواله في تفسيره، إلا أنَّ منهم من يناقشه، ومنهم من يعارضه ومنهم من يرُدُّ عليه كلامه^(٥).

ومن العلماء من قام باختصار الكشف:

١_ تفسير البيضاوي^(١) (ت ٦٨٥هـ) لخصه عن الكشف وغيره، وأضاف عليه فوائد جمَّة واسم تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

١- كان مقرئاً من فقهاء المالكية، له مصنفات عدة، منها: كتاب (الأربعين مسألة في أصول الدين على مذهب أهل السنة)، وتفسيره المشهور. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٥ / ٦٣.

٢- ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ٦٤.

٣- كان عالماً بالحديث والتفسير والعربية، وكان شديد الرد على المبتدعة، له العديد من التصانيف، منها: (البيان في المعاني والبيان)، و(الخلاصة في معرفة الحديث)، وحاشيته (فتوح الغيب). ينظر: الأعلام، الزركلي، ٢ / ٢٥٦، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ١ / ١٥٨ - ١٥٩.

٤- هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي، أثير الدين أبو حيان، كان عالماً بالعربية، والتفسير، والحديث، والتراجم واللغات، له العديد من المصنفات، منها: (البحر المحيط) في التفسير، و(النهر الماد) اختصر به تفسيره، و(تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب)، توفي بمصر سنة ٧٤٥هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٧ / ١٥٢، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٢ / ٦٥٥.

٥- ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ٦٣ - ٦٤.

٢_ العلامة قطب الدين الشيرازي^٢، لخصّ الكشف وأزال عنه الاعتزال وسمّى كتابه (تقريب التفسير).

هذه نبذة عن جهود القدماء في تفسير الكشف، أمّا في وقتنا الحاضر، فقد قامت العديد من الرسائل والبحوث العلمية على دراسة التفسير من مختلف الجوانب، منها:

١_ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، لمصطفى الصاوي الجويني، وهي رسالة دكتوراه مطبوعة.

٢_ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، لفاضل صالح السامرائي، وهي أيضاً رسالة دكتوراه مطبوعة.

٣_ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، لمحمد أبو موسى، وهي رسالة دكتوراه مطبوعة.

المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في الكشف:

لم يكن استنباط المنهج البلاغي عند الزمخشري في تفسيره بالأمر السهل، لأنّه يذكر الوجه البلاغي ويحلّله وقد يذكر أثره على المعنى، دون أن يصرّح باسمه، فهو لم يحدّد المصطلح العلمي للأمور البلاغة في كلّ موضع لها، فلا بدّ من متابعة وقراءة دقيقة لكلامه حتى نحظى بدرر التفسير الكامنة^(٣).

١- هو: عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي، كان متكلماً، ومفسراً، وأصولياً، ولد في المدينة البيضاء، وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها سنة ٦٨٥ هـ، من تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) و(طوالع الأنوار) في التوحيد، و(منهاج الوصول إلى علم الأصول). ينظر: الأعلام، الزركلي، ١١٠/٤، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٩٧/٦.

٢- هو محمود بن مسعود بن مصلح، الفارسي الإمام قطب الدين الشيرازي، كان قاضياً مفسراً عالماً في الفقه والأصول والكثير من العلوم، له مؤلفات عدة، منها: (فتح المنان في تفسير القرآن) و(مشكلات التفاسير). ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٨٧/٧، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٦٦٧/٢.

٣- ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ١٨٨.

إنَّ الزمخشري أشار في مقدمته إلى ضرورة تَضَلُّع المفسِّر بعلمي المعاني والبيان، فهل كان يقصد فيهما ما تواضع عليه علماء البلاغة ممن جاؤوا بعده، بالطبع لا، فالمصطلحات لم تكن تحدَّدت وتبلورت، كما هو الحال الذي صارت إليه على يد السكَّاكي.

لذا فإنَّ الزمخشري قد يطلق علم المعاني على مباحث علم البيان، أو العكس، وهذا الأمر لا ينقص من مكانة الزمخشري، ولا يقلِّل من شأن جهوده، بل العكس، فقد كان صاحب السبق في إبراز الجوانب البلاغية في تفسير القرآن الكريم^(١). فعند حديثه عن الفصل والوصل^(٢)، قال: "وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه"^(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِإِلٰهِنَا يَا بَرَهِيمُ﴾^(٤) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ وَكَبُرُهُمْ هَٰذَا فَتَسَاءَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٢ - ٦٣]، يقول: "هذا من معارضض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني..."^(٥).

وكذلك فقد عدَّ التقديم والتأخير من مباحث علم البيان، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوِ اُنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، قال: "فأمَّا ما يقتضيه علم البيان، فهو أنَّ (أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصاص، وأنَّ الناس هم المختصون بالشرح المتبالغ"^(٥).

١ - ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ١ / ٣٠٦، ٣١٣.

٢ - هو العلم بمواقع الجمل، والوقوف على ما ينبغي أن يصنع فيها من العطف، والاستئناف، والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها. جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ت: يوسف الصميلي، د. ط (المكتبة العصرية، بيروت، د. ت) ص ١٧٩. وقال القزويني: "الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه". الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١١٨.

٣ - الكشف، ١ / ٥١٧.

٤ - الكشف، ١ / ٧٣٥.

٥ - الكشف، ١ / ٦٤٩.

وما يهئنا في الأمر، هو كيفية تعامل الزمخشري مع مختلف الألوان البلاغية، بغض النظر عن التقسيمات التي اعتمدها. فتراه في حديثه عن التكرار^(١) في القرآن الكريم، يقف عنده ويبين أثره البلاغي في مختلف مواقعها، في القصص القرآني، وفي مقام الوعيد، وفي الوعظ والنصيحة،... ويوضح صلته المباشرة بنفس السامع أو المتكلم.

فتكرار النداء له أثر في استجابة النفس إلى ما تُدعى إليه، ذكر ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمٌ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَقَوْمٌ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩... وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ۝﴾ [غافر: ٣٨ - ٤١]، يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم كرّر نداء قومه؟... قلت: أمّا تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم، وإيقاظ عن سِنَةِ الغفلة، وفيه: أُنْهَم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحرّز لهم ويتلطّف بهم، ويستدعي بذلك ألا يهتموه، فإن سرورهم سروره، وغمّهم غمّه، وينزلوا على نصيحته لهم، كما كرّر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: يا أبت^(٢)."

ويتضح ربطه لأسلوب التكرير مع أثره في النفس في تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرِمْنُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝﴾ [الزمر: ٢٣]، فالله عزّ وجلّ وصف كتابه العزيز، أنّه متشابه، في الصحة والإحكام، والبناء على الصدق والحق ومنفعة الناس، وفيه من القصص والأحكام والتقارير التي تُكرّر وتُعاد بين طيات الكتاب، وهو كتاب لا يملّه قارئه مهما كرّر فيه وأعاد، فيقول الزمخشري عن فائدة التثنية والتكرير في القرآن الكريم: "أنّ النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرّر عليها عوداً عن بدء، لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثمّ كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرّر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرّات وسبعاً، ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم"^(٣).

١- التكرار: هو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض، وهو أحد طرق الإطناب، الذي هو: الزيادة في الكلام عمّا يمكن أن يؤدّى به من المعاني في معتاد الفصحاء، لفائدة تقصد. ينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٢٠٢، والبلاغة العربية، الميداني، ٦٠ / ٢، وقال ابن الأثير: "التكرير، هو: دلالة اللفظ على المعنى مرّداً". المثل السائر، ١٤٦ / ٢.

٢- الكشف، ١٠٧٥ / ٢.

٣- الكشف، ١٠٥١ / ٢.

وفي تناول الزمخشري لأسلوب الالتفات^(١)، نراه يقف عنده ويحلّله، ويظهر أثره في تحريك مشاعر السامع، وتنبهه من يقظته، وقد شرح هذا في تبينه لأوّل التفات ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يقول: "فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمّى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، ... وذلك على عادة افتنائهم [أي العرب] في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختصّ مواقعته بفوائد، ومما اختصّ به هذا الموضوع: أنّه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلّق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق الثناء... فخطب ذلك المعلوم المتميّز بتلك الصفات، فقليل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ليكون الخطاب أدلّ على أنّ العبادة له لذلك التميّز الذي لا تحقّق العبادة إلا به"^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكُ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، يقول الزمخشري: "فإن قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: للمبالغة، كأن يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح"^(٣).

وفي حديثه عن المجاز المرسل^(٤)، فرّق بينه وبين الاستعارة^(٥)، وذكر عدة علاقات للمجاز^(٦)، يظهر ذلك في تفسيره لمعنى الأكل في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

١- الالتفات، هو: التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث، (التكلم، والخطاب، والغيبة) مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحوّل عنها.

البلاغة العربية، الميداني، ١ / ٤٧٩. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ت: عبد المنعم خفاجي، ٢ / ٨٦.

٢- الكشف، ١ / ١١.

٣- الكشف، ١ / ٤٧٦.

٤- المجاز المرسل، هو: الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي، وله علاقات كثيرة. جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٢٥٢. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ٢٠٥.

٥- الاستعارة، هي: استعمال لفظ ما في غير ما وُضع له في اصطلاح به التخاطب لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب. البلاغة العربية، الميداني، ٢ / ٢٢٩. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٢١٢.

لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿التوبة: ٣٤﴾، حين قال: "معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يُستعار الأكل للأخذ، ألا ترى إلى قولهم: (أخذ الطعام وتناوله)، وإمّا على أنّ الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل" (٢) وهذا هو المجاز.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، يبيّن وجه المجاز المرسل وعلاقته السببية، فإنّ الله تعالى ذكر المسبّب وأراد السبب، يقول الزمخشري: "فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذه بهما؟ قلت: ذكر النسيان والخطأ، والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإمّا يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان" (٣).

وفي علم البديع يعرض الزمخشري في تفسيره لبعض وجوهه، ويرى أثرها في قوّة الكلام وبلاغته، فهو في تفسيره يشيد ببلاغة القرآن المعجزة، ولا يأل جهداً في كشفها وتحليلتها للقارئ.

وقد نبّه الزمخشري للمشكلة (٤) الواردة في (صبغة) في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فقال: "وهي (فعلة) من صبغ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى: تطهير الله، لأنّ الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسّمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: (قولوا آمنا بالله)، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول

١- المجاز، هو: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، بقرينة صارفة عن إرادة ما وضع له اللفظ. ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٣٥٩، والبلاغة العربية، الميداني، ٢ / ٢١٨. ومما ذكره من علاقات المجاز، ذكر: علاقة السببية، وإطلاق الكل وإرادة البعض، وإطلاق الجزء وإرادة الكل، وتسمية الشيء باعتبار ما كان عليه، وتسمية الشيء بما سيؤول إليه، وتسمية الشيء بما يجاوره، وتسمية الشيء باسم آله، وتسمية الشيء باسم محله. ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ٤٤٢ - ٤٤٦.

٢- الكشف، ١ / ٤٤١.

٣- الكشف، ١ / ١٥٠.

٤- المشكلة، هي: أن يُذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته. مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤٢٤، وجواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٣٠٩.

المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتك، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة^(١).

ويبين أنَّ فصاحة الكلام وبلاغته إنما تكون بما جاء فيه من أساليب وفنون في التعبير، فيقول في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، "والمعنى: تعلم معلومي، ولا أعلم معلومك، ولكنَّه سلك بالكلام طريق المشاكلة، وهو من فصيح الكلام ويبيِّنه، فقليل (في نفسك) لقوله (في نفسي)"^(٢).

هذه لمحة عن البلاغة القرآنية في الكشف، والكلام في البلاغة يطول، والأمثلة تشدُّ الباحث للمزيد، إلا أنَّ حدود هذا البحث تلجئنا لتسليط الضوء على منهج الزمخشري في بلاغة التقديم والتأخير على وجه الخصوص، وذلك في كلٍّ من سورتي هود والنساء الكريمتين.

١- الكشف، ١/ ٨٩ - ٩٠.

٢- الكشف، ١/ ٣١٦.

المبحث الثاني: التقديم والتأخير في سورة هود:

أولاً: بين يدي سورة هود:

- التسمية: سُمِّيت هذه السورة بسورة هود، وأسماء السور توقيفي^(١)، فعن ابن عباس^(٢) رضي الله عنه، أنَّ رسول الله قال: "شيبني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت"^(٣). سُمِّيت بهذا الاسم لاشتغالها على قصة هود بتفاصيلها، فحكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها من السور الكريمة، وقد وُصف عاد فيها بأنهم قوم هود في قوله تعالى: ﴿الْأَبْعَادُ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وليس لهذه السورة اسم آخر^(٤).
- عدد آياتها: مئة وإحدى وعشرون آية.
- وهي سورة مكية بالإجماع^(٥).
- فضائل السورة وخصائصها:

ورد في سورة هود وبعض آياتها العديد من الآثار، منها ما ورد سابقاً ومنها:

- ما رواه الحسين بن علي^(٦) رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا (السفينة) أن يقولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾" [هود: ٤١]^(١).

١- ينظر: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ١/ ١٦٦.

٢- هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، خبر الأمة، وترجمان القرآن، روى عنه الكثير، توفي بالمدينة سنة ٦٨ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٣/ ٣٥٩.

٣- أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، كتاب التفسير، باب (سورة الواقعة)، وقال حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، والحاكم في مستدركه (٣٣١٤). ينظر: سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت) ٥/ ٤٠٢، والمستدرک علی الصحیحین، الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠ م) ٢/ ٣٧٤.

٤- ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦ م) ١/ ٢٤٦، والتحريير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١١.

٥- ينظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ١/ ٢٤٦، والتحريير والتنوير، ١١/ ٣١١.

٦- هو الحسين بن علي بن أبي طالب، القرشي الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه الكثير، توفي سنة ٦١ هـ. ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، د. ط (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩ م) ١/ ٤٩٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ٣/ ٢٨٠.

- وعن ابن مسعود^(٢) رضي الله عنه، أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال: يا رسول الله، إلي هذا؟. قال: لجميع أمتي كلهم^(٣).

- مقصد السورة ومحورها:

إنَّ المقصد الذي تسعى إليه السورة من خلال موضوعاتها، هو تقرير حقيقة الألوهية والربوبية لله ﷻ، وتقرير حقيقة الدعوة إلى العقيدة الربانية، على مختلف العصور والأزمان، وحقيقة مواجهة الكفر والجحود بشتى وسائله^(٤).

- موضوعات السورة:

تنوّعت الموضوعات التي تناولتها السورة الكريمة، رغم تشابحها وصلتها القريبة من المقصد الأساسي للسورة:

ابتدأت السورة بالتنويه بشأن القرآن الكريم، وبيان أنَّ الله مطلع على السرائر وما تخفيه الصدور، وأنَّه تعالى تكفل برزق مخلوقاته.

وعرضت لإثبات البعث والجزاء، وبَيَّنَّتْ حال كلِّ من المؤمن والكافر، ثمَّ أرشدت إلى ما يوجب السعادة القائمة، وهو الاستقامة على الدين، وعدم الركون إلى الظالمين، وإقامة الصلاة. وذكرت طائفة من قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، للتسليّة عن النبي ﷺ وتثبيت فؤاده، ولتثبيت المسلمين عموماً وأخذ العبرة والعظة من السابقين^(١).

١- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٦٦١)، وفي المعجم الأوسط (٦١٣٦)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى عن شيخه جُبارة بن مغلس، وهو ضعيف. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، د.ط (دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ) ١٠ / ١٨٧، والمعجم الكبير، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ٢ (مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت) ١٢ / ١٢٤، والمعجم الأوسط، الطبراني، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن الحسيني، د.ط (دار الحرمين، القاهرة، د.ت) ٦ / ١٨٤.

٢- هو عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن الهذلي، صحابي جليل من أوائل المسلمين، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه الصحابة والتابعون، شهد بدرًا وغيرها، توفي بالمدينة سنة (٣٢هـ) ودفن بالقيع. ينظر: أسد الغابة، عز الدين ابن الأثير، ٢ / ٢٨٠-٢٨٦، وسير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ١ / ٤٦١.

٣- أخرجه البخاري (٥٠٣) كتاب مواقيت الصلاة، باب (الصلاة كفارة). ينظر: الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى البغا، ط ٣ (دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م)، ١ / ١٩٦.

٤- ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٥ (١٩٦٧م) ٤ / ١١-١٦.

ثانياً: أسلوب التقديم والتأخير في السورة:

سندرس مواضع التقديم والتأخير على مستويين، الأول: مستوى الآية، والثاني: مستوى السورة، ولكلٍ تقسيماته.

١- التقديم والتأخير على مستوى الآية القرآنية:

وهذا المستوى قسمته قسمين، الأول: ما يكون في جمل الآية وأجزائها، والثاني: ما يكون في مقطع الآية. وكلٌّ من هذين القسمين، يندرج تحته ثلاثة أنواع سيتم تصنيف مواضع التقديم والتأخير على أساسها. الأول: التقديم الذي على نية التأخير.

الثاني: التقديم الذي لا على نية التأخير.

الثالث: ما قُدِّم في آية وأُخِّر في أخرى.

- ما يكون في جمل الآية وأجزائها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير: ذكر الزمخشري في هذا الجانب:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، حيث تقدّم الظرف (يوم) على عامله (مصروفاً)، وجعل من هذه الآية شاهداً على جواز تقديم خبر ليس عليها، ولم يذكر الجانب البلاغي لهذا التقديم، فقال: "و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنّه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها، إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل"^(٢).

وهذا رأي البصريين مخالفين بذلك ما ذهب إليه الكوفيون من منع تقديم خبر ليس عليها^(٣)، وقد وافق أبو حيان الزمخشري في هذا الرأي، وقال: "وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بمعموله إلا ما دلّ عليه ظاهر هذه الآية، وقول الشاعر:

١- ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١ / ٣١٢ - ٣١٣، والتفسير المحرّر للقرآن الكريم، الشيخ علوي بن عبد القادر

السقاف، ط ١ (مؤسسة الدرر السنية، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٦م) ٨ / ١٠.

٢- الكشف، ١ / ٤٩٧.

٣- ينظر: التقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ص ٧٥.

فِيَأْبَىٰ فَمَا يَزِدَادُ إِلَّا لِحَاجَةً وَكَنتَ أَبْيَأَ فِي الْخَفَا لَسْتُ أَقْدِمُ"^(١)
وأصل الكلام (وكنْتَ أبياً لست أقدم في الخفا).

أمَّا الغرض البلاغي من هذا التقديم، فهو التهويل والتخويف وترهيب الناس من هذا اليوم، حتى يتقوه، ويستعدوا له^(٢).

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير: ذكر الزمخشري عدَّة مواضع في هذا الجانب، وهي:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالْإِنشَاءُ خَيْرٌ مِّنَ الْإِسْقَاتِ قَالَ يَوْمَ يَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، حيث تقدَّم المبتدأ (الضمير)، والغرض من هذا التقديم، تخصيص الله تعالى بالخلق والإنشاء، فقال: "هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" لم ينشئكم فيها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، تقدم الاستغفار على التوبة، والغرض منه: السبق بالحدوث، فالاستغفار يكون أولاً، ثم تأتي التوبة بالعزم على عدم العودة إلى الذنب. وذكر الزمخشري فيها: "فإن قلت ما معنى (ثم) في قوله ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة"^(٤). وهما معنيان متباينان، "فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب للمنفعة، فالمغفرة أن يقيه شرَّ الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه"^(٥). ودار كلام المفسرين على هذا المعنى، فذكر أبو حيان في سبب التقديم، أنَّ "الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر، والمعنى أنه لا يبقى لها تبعة، والتوبة: الانسلاخ من المعاصي والندم على ما سلف منه والعزم على عدم العودة إليها"^(٦).

١- البحر المحيط، ٦/ ١٢٧.

٢- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي أبو القاسم عون، ٢/ ٥١٤.

٣- الكشف، ١/ ٥٠٩، وإلى هذا ذهب أبو السعود في تفسيره، ينظر: إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٢٠.

٤- الكشف، ١/ ٤٩٥، والموضع الآخر في: ١/ ٥٠٧.

٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، ط ٢ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م) ١/ ٣٠٩.

٦- البحر المحيط، ٦/ ١٢٠، وينظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ط ٣ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ) ١٧/ ٣١٥.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، تقدم المبتدأ (أنت) على خبره، والغرض من هذا التقديم: تخصيص صاحب الضمير (الرسول شعيب) بانتفاء عزته عند قومه. قال الزمخشري: "وقد دلَّ إيلاء ضميره حرف النفي، على أنَّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، وكأنَّه قيل: وما أنت علينا بعزیز، بل رهطك هم الأعزَّة علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرَهْطَى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]، ولو قيل: (وما عززت علينا) لم يصح هذا الجواب" (١). ففي حال النفي يتقدَّم بعده ما الكلام متجه إليه، وهو محلُّ النفي، فلمَّا نفى الكفار مكانة شعيب عليه السلام (رسولهم) قدَّموا ذكره في كلامهم، فجاء الضمير المعبر عن الرسول بعد حرف النفي، ولم يقدِّموا الفعل، فلم يقولوا (وما عززت علينا) فالإنكار والخذلان متَّجه إلى ذات الرسول لأنَّه جاءهم بما يحوِّلهم عما كان عليه آباؤهم (٢). وقد اعترض القزويني على هذا الكلام بقوله: "وفيه نظر، لأنَّ لا نسلم أنَّ إيلاء الضمير حرف النفي إذا لم يكن الخبر فعلياً يفيد الحصر" (٣) أي التخصيص. ويمكن الرد بأنَّ المشتق هنا في مقام الفعل، وهو الأنسب للسياق والنظم، فلو كان فعلاً (وما عززت علينا) لم يصح الجواب الوارد، - كما ذكر الزمخشري سابقاً - والقول بالاختصاص نابع من سياق الآية (٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْوِرْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [هود: ٦٤]، تقدَّم الحال (لكم) على صاحبها (آية)، وهو في الأصل صفة لها، فذكر الزمخشري هذا ولم يبيِّن الغرض البلاغة منه، قال الزمخشري: "فإن قلت: فبم يتعلق (لكم)؟ قلت: بآية حالاً منها مقدَّمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدَّمت انتصبت على الحال" (٥)، وبهذا قال أبو حيان إلا أنه اعترض على تعبير الزمخشري، فالجور متعلق بمحذوف حال من آية (٦).

١- الكشف، ٥١٦ / ١. وهنا يظهر جلياً تطبيق الزمخشري لكلام الجرجاني، فقد شرح وطوَّل الحديث في ترتيب الكلام بعد النفي. ينظر ص ٣٣.

٢- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ط ١ (دار ابن كثير، دمشق، ٢٠١٧م) ٣ / ٣٢٤ - ٣٢٥.

٣- الإيضاح في علوم البلاغة، ت: خفاجي، ٧٠ / ٢.

٤- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٣ / ١٠٢١.

٥- الكشف، ٥٠٩ / ١.

٦- البحر المحيط، ١٧٧ / ٦.

أمّا الغرض من هذا التقديم فهو الاهتمام بالمخاطبين، وتخصيصهم بهذه الآية، فكأنه قال: لكم خصوصاً^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، الحديث عن فرعون، الذي قاد أتباعه في الدنيا وتقدّمهم في الشرك والغواية والضلال، فأخبر الله تعالى أنّ هذا هو حاله أيضاً في الآخرة حيث يتقدّمهم ويقودهم إلى النار، فجاء بلفظ (يقدم) للدلالة على أنّ هذا شأنه (التقدم في الضلال، والتقدم إلى النار) في الدنيا والآخرة، وأيضاً فإنّ الضمير المضمر في (يقدم) الدال على (فرعون) متقدّم على لفظ القوم، لأنّ القائد إلى الشيء يكون في المقدّمة، والتقدير: يقدم هو قومه. قال الزمخشري: "﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدّمهم إلى النار وهم يتبعونه"^(٢).

والغرض من هذا المعنى التبكيت والتوبيخ، زيادة له في السوء وتنكيلاً به، وقد يكون لبيان السبق بالطبع والذات، فالمتقدّم في الدنيا متقدّم في الآخرة.

ج- ما قدّم في آية وأخر في أخرى:

لم يذكر الزمخشري ما يندرج تحت هذا القسم في سورة هود، ولعلّه أشار إلى هذا النوع في تفسيره لغير هذه السورة.

- ما يكون في مقطع الآية:

يعتري آخر الآية أمران: الفاصلة والتذييل^٣، لذا سنفرد كل أمر في قسم، ونبيّن ما يندرج تحته من معان.

١- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٩٢ / ٥.

٢- الكشف، ٥١٨ / ١، وينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢٠٥ / ٦.

٣- التذييل لغة: من الذيل، وهو آخر كلّ شيء ومنه طرف الثوب، والتذييل اصطلاحاً: هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد، وهو نوعان: نوع لا يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد، ونوع يخرج مخرج المثل. وعرفه السيوطي، بأنّه: أن يؤتى بجملة عقب جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه أو مفهومه، ليظهر المعنى لمن لم يفهمه، ويتقرّر عند من فهمه. وهو نوع من أنواع الإطناب، يأتي في القرآن الكريم لتأكيد المعنى وتقريره. ومنهم من حصّره في خواتيم الآيات فقط، فيأتي التذييل في ختام آية أو عدة آيات لتقرير ما ورد فيها من معان. وهو محلّ البحث في هذه الدراسة. ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ١٥٤ - ١٥٥، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٨٦٩ / ٢، وبلاغة القرآن في تذييل الآيات دراسة تأصيلية، أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي، مجلة تدبر، العدد الثاني، السنة الأولى، ص ٣٥ - ٣٨.

أ- التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

إنَّ رعاية الفاصلة غرض أساسي من أغراض أسلوب التقديم والتأخير، ولقد اهتمَّ العلماء بأمر الفاصلة، وما لها من أثر جماليٍّ ودلاليٍّ في الآيات، إلا أنَّ أمر الفاصلة القرآنية، لم يلقِ اهتماماً كبيراً عند الزمخشري، فلم أجد موضعاً واحداً عزا فيه الغرض من التقديم والتأخير إلى رعاية الفاصلة، مع أنَّه ذكّر كثيراً، وسيأتي بيانه.

ب- التقديم والتأخير في تذييل الآية:

إنَّ تذييل الآيات الكريمة يأتي على نظم معيَّن ليناسب ما تحمله الآية من معنى، ولقد أشار الزمخشري إلى هذا في عدة مواضع:

- في قوله تعالى: ﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمْتُ آيَتُهُ وَتُفْصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، جاء ترتيب خاتمة الآية على هذا النحو ليناسب المعنى المذكور قبله، فأيات الكتاب نُظِمَتْ نظماً رصيناً محكماً، ثمَّ فُصِّلَتْ بما ذُكِرَ فيها من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص. قال الزمخشري في تفسير (حكيم خبير): "أحكمها حكيم، وفصلها: أي بيَّنها وشرحها خبير عالم بكيفيَّات الأمور"^(١).

وقد يكون الغرض من وصف الكتاب بأنَّه من عند الحكيم الخبير، هو تعظيم شأنه ورفع منزلته. وذلك أنَّ أهمية الكتاب إمَّا تكون في أمرين: في الجهة التي أصدرته، والأمر الثاني: في محتواه. فالحكيم (الذي بيده الحكم، يدبّر كل أمر) هو الذي أصدره، وضمَّنه ينابيع الحكمة. فكان أفضل وأعظم كتاب^(٢).^(٣)

- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُكُمْ وَإِلَهُ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، جاء الترتيب في تذييل الآية مناسباً لما يطلبه صالح من قومه، فهو يدعوهم إلى طلب المغفرة من الله تعالى، فأخبرهم بأن الله قريب منهم

١- الكشف، ١ / ٤٩٥.

٢- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣ / ٧-٨.

٣- وما جاء لتحقيق التناسب المعنوي أيضاً في هذه السورة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، فهي وإن كانت آية مستقلة، إلا أنَّها كالتعقيب لما قبلها، فلها وظيفة التذييل، وجاء الترتيب بين الأخبار وفق ما يناسب السياق، فلما كان السياق في العذاب وإنزال العقوبة بالكافرين، قدَّم صفة الحلم لإبراهيم "غير عجلول على كلِّ من أساء إليه، (أواه) كثير التأوُّه من الذنوب [يتأسف على ما صدر من قوم لوط]، (منيب) راجع إلى الله بما يحب ويرضى". الكشف، ١ / ٥١١،

وينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣ / ٢٨٠-٢٨١.

يسمع دعاءهم فيجيبهم. فالغرض تقديم السبب على المسبب، قال الزمخشري: "(قريب) داني الرحمة سهل المطلب، (مجيب) لمن دعاه وسأله"^(١).

وقد صرَّح السامرائي بهذا التقديم، فقال: "وقدَّم (قريب) على (مجيب) لأنَّ الإجابة تستدعي السماع، والقريب أدعى إلى السمع من البعيد، فقدَّم القريب لأنَّه يسمعك فيجيبك"^(٢).

- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [هود: ١١٤ - ١١٥] أحرَّ الله وعجل الحديث عن الصبر وختم به، بعدما جاء بـ ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ التي هي خاتمة للتذكير الذي قبلها، ولهذا التأخير دلالة عظيمة، فقد دلَّ على أهمية الصبر ومزيَّته وضرورته في جميع الأعمال، "كأنَّه قال: وعليك بما هو أهمُّ مما ذكَّرت به، وأحقُّ بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أُمِّرت به، والانتهاء عما نُهيْت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به"^(٣).

- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]، دلَّ تذييل الآية على تأكيد كمال حفظ الله تعالى وعمومه لكل شيء، وذلك من خلال تقديم متعلِّق خبر إنَّ (على كل شيء) على الخبر (حفيظ)، قال الزمخشري: "أي: رقيب عليه مهيمن، فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم"^(٤).

وذهب السامرائي إلى أنَّ تقديم الجار والمجرور أفاد التخصيص، ليبين أنَّ الله تعالى لا يفوت حفظه شيئاً على الإطلاق^(٥)، ومنهم من أضاف إلى هذه الأغراض، رعاية الفاصلة، فالفواصل بعدها (غليظ، عنيد)^(٦)، وإمَّا ذكرت هذا المثال هنا ولم أذكره تحت البند السابق، لأنَّ الزمخشري لم يشر إلى هذا الغرض في هذا الموضع.

١- الكشف، ١/ ٥٠٩.

٢- على طريق التفسير البياني، ٣/ ٢٥٥.

٣- الكشف، ١/ ٥٢٣.

٤- الكشف، ١/ ٥٠٨.

٥- ينظر: على طريق التفسير البياني، ٣/ ٢٢٠.

٦- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٢/ ٥٥٦.

٢- التقديم والتأخير على مستوى السورة القرآنية:

ينقسم هذا المستوى قسمين، القسم الأول: ما يكون بين الآيات المتتابعة في السورة. والقسم الثاني: ما يكون بين المقاطع المتتابعة في السورة.

- ما يكون بين الآيات المتتابعة:

ويندرج تحت هذا القسم ما يتعلّق بالمناسبات بين الآيات، ولم يهتم الزمخشري كثيراً ببيانها، إلا ما كان منها جلياً واضحاً، وثيق الصلة بما قبله، كآيات المعطوفة على ما قبلها، من ذلك:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿الْأَتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴿هود: ٢ - ٣﴾، من تقديم الأمر بتوحيد الله ﷻ ﴿الْأَتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، على الأمر باستغفاره، لأنّ إفراد الله تعالى بالعبودية مقدّم على ما يقتضيه هذا الاعتقاد من استغفار وعبادات، وذلك في قوله تعالى: "كأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار" (١).

والغرض من هذا التقديم بيان السبق بالحدوث، فالإيمان يكون أولاً، ثم يأتي بعده الاستغفار وغيره من العبادات.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُوا أَلْمِيزَانَ﴾ إِنِّي أَرَى كُفْرًا كَثِيرًا مِمَّنْ ظَهَرَ لَكَ الْإِيمَانُ وَلَمْ يَكُن فِيهِ إِلَّا الْغِيظُ ﴿هود: ٨٤ - ٨٥﴾، ذكر الزمخشري لطائف الترتيب بين المأمورات، فقد قدّم الأولى فالأولى، ذكر النهي عن النقصان أولاً لأنّه عين القبح، فصريح به ليكون أزجر للسامع، ثمّ أعقبه بالأمر بالإيفاء، وهو أمر حسن تستحسنه الطباع والعقول السليمة، ليكون تأكيداً، وترغيباً وتشجيعاً على القيام به بعد ترك القبيح. وقال الزمخشري: "إن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله: أوفوا؟ قلت: تُهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأنّ في التصريح بالقبيح نعيّاً على المنهي، وتعبيراً له، ثمّ ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرّحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه.." (٢).

١- الكشف، ١/ ٤٩٥.

٢- الكشف، ١/ ٥١٤.

فالغرض من تقديم النهي عن النقصان، هو الزجر عن هذا الفعل، والغرض من إتباعه بالأمر بالإيفاء هو التأكيد على ضرورة الالتزام به، والحثُّ والتشجيع على فعله. ويمكن أن يكون من باب تقديم السبب على المسبب، ف"بدأ بالنهي عن النقص في المكيال والميزان لأنَّ ذلك أسبق من الإيفاء، فإنَّه لا بدَّ أن يكون حجم المكيال وما يتعلَّق بالميزان سالماً من النقص حتى يكون الإيفاء بالقسط، فإن لم يكونا سليمين فلا يكون إيفاء بالقسط، فنهى عن نقص المكيال والميزان أولاً، ثمَّ أمر بالإيفاء بالقسط بعدهما فلا يكون تكراراً، وإثماً قدَّم السبب على المسبب"^(١).

- ما يكون بين المقاطع المتتابعة في السورة:

إنَّ الموضوعات في السورة القرآنية الواحدة تتعدَّد وتتنوَّع، ويربطها كلُّها رابط واحد، فالسورة لها محور ومقصد تسعى إلى بيانه، تدور حوله مختلف الموضوعات التي تتناولها، لذلك قسَّم بعض العلماء السورة إلى مقاطع، كلُّ مقطع فيه مجموعة آيات تؤدِّي معنى معيناً، وقسموا سورة هود إلى ثلاثة مقاطع سيأتي بيانها، وبيان الصلة بينها، إلا أنَّ الزمخشري لم يوضِّح هذا الأمر، وسار في تفسيره يشرح الآية تلو الآية من أول السورة إلى آخرها.

- المواضع التي لم يذكرها الزمخشري في تفسيره:

١- التقديم والتأخير على مستوى الآية:

- ما يكون في جمل الآية وأجزائها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير:

- في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] تقدم الخبر (على الله) على المبتدأ، والغرض: تخصيص الله تعالى بأنَّه وحده الرازق، وفيه معنى آخر، وهو تكفُّل الله برزق المخلوقات بما ألزمه على نفسه، ف(على) تدل على اللزوم^٢.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] تقدم الخبر (إلى الله) على المبتدأ، للدلالة على الاختصاص، فالرجوع لا يكون إلا الله تعالى^١.

١- على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٣١٧.

٢- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٢٨٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]
- تقدم الخبر (ضائق) على المبتدأ^٢، والغرض: الاهتمام بالحالة النفسية التي اعترت النبي عليه السلام، وفيه أيضاً حثُّه على الاستمرار بالدعوة والتبليغ وعدم التضايق مما يقولون^٣.
- وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٣]
- تقدم خبر إنَّ (في ذلك) على اسمها (لاية)، لتوكيد أمر المشار إليه (وهو أخذ الله وإهلاكه للأمم الظالمة)، وللتنبية إلى أنَّ فيه عظة وعبرة لمن يعتبر^٤.
- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]
- تقدم الجار والمجرور (به) على الفاعل (الله)، للدلالة على عظم ما سيأتيهم، وأيضاً ليناسب السياق المعنوي للآيات، فالحديث بعد هذه الآية عما سيأتيهم من الله تعالى، وفيه أيضاً قصر الفعل على الفاعل، فلا يأتيهم بهذا الأمر إلا الله، ولو كان (إنما يأتيكم الله به) لما صح المعنى، إذ يدل على أن الله لا يأتي إلا به، ولا يأتي بشيء آخر، وهذا غير صحيح^٥.
- وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]
- فإنَّ تقديم (بسم الله) على ما بعدها أفاد التبرك، باعتبار أنَّ (بسم الله) خبر مقدَّم، و(مجريها ومرساها) مبتدأ مؤخَّر، فالمعنى: ببركة الله إجرأوها وإرساؤها^٦.
- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]
- تقدم خبر أنَّ (لي) على اسمها (قوة)، وأفاد إظهار الاهتمام بالأمر الذي يتمناه (وهو دفع أذى قومه عنه بنفسه، أو بمساندة أحد له) وتوكيده، لامتناع تحقق هذا الأمر في الواقع^١.

١- ينظر: تفسير الرازي، ١٧/ ٣١٧.

٢- وهذا الإعراب أحد وجهين، والوجه الآخر: أنَّ ضائق مبتدأ، وصدرك خبره. ينظر: إملاء ما منَّ به الرحمن، العكبري، د. ط.

(دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م) ص ٣٣١.

٣- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

٤- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٥٣٠.

٥- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ١٣٦ - ١٣٧.

٦- ينظر: المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، د. ط (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م) ٣/ ١٧٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]

تقدم الجار والمجرور (لذلك) على الفعل، وأفاد الاهتمام بعلة خلق الإنسان، وهي كما ذكرها الزمخشري: مدلول الكلام السابق، من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]

تقدم الجار والمجرور (له) على نائب الفاعل (الناس)، لإظهار الاهتمام بهذا اليوم، وهو يوم القيامة حيث يجمع الناس للحساب^٣.

ولما كان الاهتمام الغرض الأول والأساسي من التقديم، تداخلت معه أغراض أخرى، من ذلك، ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]

تقدم الظرف (معه) على الفاعل (ملك)، ودل على اهتمام المشركين بمصاحبة ملك للرسول عليه السلام يصدقه فيما يقول، وغرض آخر من تقديم الظرف على الفاعل، وهو: تحقيق التناسب اللفظي في الآية، فجاء قبلها تقديم المجرور (عليه) على الفاعل (كنز)^٤.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ [هود: ٧٤]

تقدم الجار والمجرور (عن إبراهيم) على الفاعل (الروع)، والغرض منه: إظهار الاهتمام بنبي الله إبراهيم عليه السلام، فهو المقصود بزوال الخوف، وإدخال الطمأنينة إلى نفسه، وأيضاً لإظهار شرف إبراهيم عليه السلام^٥.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْهُمْ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]

تقدم الخبر (آتيهم) على المبتدأ (عذاب)، للاهتمام والقصر، فليس يأتيهم إلا العذاب^٦.

١- ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، د. ط (دار إحياء التراث العربي، د. ت) ٢٢٩ / ٤، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٥٦٩ / ٢.

٢- ينظر: الكشف، ١ / ٥٢٤، وبلاغة لتقديم والتأخير، علي عون، ٧٤٥ / ٣.

٣- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٨١٢ / ٣، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، تقدم الخبر (الموعِد) للاهتمام به فهو المقصود من الكلام.

٤- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٧٩٦ / ٣.

٥- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٨٠٦ / ٣.

٦- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٢٨٣ / ٣. ويوجد إعراب آخر، وهو أنَّ (آتيهم عذاب) مبتدأ وخبر في محل رفع خبر إنهم، أو أنَّ (آتيهم) خبر إنَّ، و(عذاب) فاعل لاسم الفاعل آتيهم. ينظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ٣٦٠ / ٦.

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير:

- وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَآتَرَهُ قُلٌّ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَهُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ - ١٤]

قدم قوله: ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ على قوله: ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك مراعاة للسياق، فالآيات تتحدث عن القرآن الكريم، وليس عن التوحيد، فذكر ما يتعلق بإنزاله أولاً^١.

- في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: ٤٨]، تقدّم السلام على البركة، وهذا من باب السبق بالحدوث، فطلب الأمن والسلام مقدّم على حصول البركات، والنفوس تطلب ما يحقق أمنها، وهذا عندها أهم من تحصيل النعم^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يٰأَرْضُ أْبَلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾ [هود: ٤٤] قدّم أمر الأرض ببلع الماء، لأنه الأهم والأصل، فابتداء الطوفان منها، ولو لم تبلع الأرض ماءها لما رست السفينة، ولما خرج منها أحد^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]

إنّ تقديم إرسال الغيث على زيادة القوة من باب تقديم السبب على المسبب، لأنّ الغيث سبب في زيادة المال، وزيادة المال من أسباب القوة^٤.

- وفي قوله تعالى: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قدّم الجنّة على الناس في استحقاقهم العذاب، لأنّهم السبب في الكثير من معاصي الناس، بما يوسوسون لهم به، فضلاً عن معاصيهم هم^١.

١- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٥٠.

٢- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٤٢٧، وعلى طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ١٨٧.

٣- ينظر: روح المعاني، الألوسي، ٦/ ٢٦٤، وعلى طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ١٦٩.

٤- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٢١٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

قدّم الشقيّ لسبقه بالكثرة عن السعيد، وأيضاً لمناسبة السياق، فقد تقدّم الكلام عن الأشقياء من الأمم المعذبة^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]

شبه الكافر بالأعمى والأصم، وشبه المؤمن بالبصير والسميع، وقدّم ما يدلّ على الكافر مراعاة للسياق، فقد ورد الحديث عن الكافر أولاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١] وما قبلها، ثمّ تبعها الحديث عن المؤمنين^٣، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

ج- ما قدّم في آية وأخر في أخرى:

اهتمّ المفسّرون بهذا النوع من التقديم والتأخير، فهو يكشف عن بلاغة القرآن الكريم، حيث إنّ نظم كلّ آية يكون بحسب السياق الواردة فيه، فالأساليب المستخدمة فيها هي التي تحدّد المعنى المراد حسب ما يقتضيه السياق، فيظهر الاختلاف في النظم في الآيات المتشابهة، وتقوم الدراسات بتجلية الفروق وتبيين سبب العدول عن هذا النظم بين تلك الآيات المتشابهة، من هذه الآيات:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿الْأَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢]، حيث تقدّمت النذارة

على البشارة، وفي مواضع أخرى تقدّمت البشارة، في سورة البقرة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وفي سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وفي سورة فصلت: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤].

والغرض من هذا مراعاة السياق (التناسب المعنوي)، ففي سورة هود لما سبق الأمر بالتوحيد، ناسب تقديم الإنذار لمن يعبد غير الله تعالى، وأيضاً فإنّ جوّ السورة العامّ هو إنذارات الرسل

١- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٣٦٩.

٢- ينظر: البرهان، الزركشي، ٣/ ٢٦٠، وعلى طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٣٤٣، ويمكن إدراجها أيضاً تحت ما يتعلق بالفاصلة القرآنية.

٣- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٨٢-٨٣.

لأقوامهم، ولما كان الخطاب موجَّهاً إلى الكفار، كان تحذيرهم من النار أهمَّ لهم وأنسب للسياق. في حين أنَّ الخطاب في البقرة والأحزاب كان للنبي ﷺ، فناسب تقديم البشارة إكراماً له ﷺ. أمَّا في سورة فصلت فلائها مسبقة بذكر الرحمة ووصف الكتاب^(١)، قال تعالى:

﴿حَمْدٌ تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَقُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤].

- ومن ذلك أيضاً ما ورد في قوله تعالى في قصة نوح: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، مع ما ورد في قوله في قصة صالح: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتِنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، فقد تقدَّم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور، وتأخَّر عنهما في الآية الثانية.

والغرض من اختلاف النظم هنا تحقيق التناسب اللفظي، حتى يوافق كلُّ موضع ما قبله من الآيات من حيث تقديم المفعول أو تأخيره، فقبل الآية الأولى ورد ثلاثة أفعال لم يتقدَّم على مفعولها الثاني شيء فجرت هذه الآية على ما جرت عليه سابقتها. والأفعال هي في قوله تعالى:

﴿فَقَالَ أَلَمَّا أَلَدْتِ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَكُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَكُ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْدُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

أمَّا الآية الثانية فقد جاء قبلها قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَيَصْلَحُ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]، وفصل بين خبر (كنت) _الذي هو في موضع المفعول_ والفعل الناقص، جار ومجرور (فيْنَا)، فأتى جواب صالح موافقاً لما قبله في تأخير المفعول الثاني.

وفيه أيضاً تحقيق للتناسب المعنوي فالآية الأولى تتحدَّث عن الرحمة حيث ختمت بقوله:

﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فتقدَّمت الرحمة على الجار والمجرور، أمَّا الآية الثانية فالحديث عن الله ﷻ فتقدَّم الجار والمجرور المتصل بالضمير الدالِّ عليه سبحانه وتعالى، قال تعالى:

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]

١- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ت: عبد الجواد خلف، ط ١ (دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٠م). ص ٢٠٨، والجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، ت: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ) ٢٧٢/٣، ودلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٤٢٢، وعلى طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ١٠ - ١١.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفاد تقدم الجار والمجرور في قصة صالح مزيد تأكيد بأن الرحمة منه وَعَلَى لا من غيره، وهذا التأكيد جاء لضرورة المقام، فقد أساء قومه الرد حين جعلوا مرتبته دونهم، غير ملتفتين إلى مقامه النبوي، حيث قالوا: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾، أما قوم نوح فلم تبلغ شناعة قولهم هذا المبلغ وإنما قالوا: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، فلو كان نبياً لكان من الملائكة، وهو مثلهم الآن، فلم يحتج الرد عليهم إلى تأكيد كما في الوضع السابق^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]، قدّم ذكر البنات على ذكر الضيف، بينما كان العكس في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾^(٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ^(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ^(٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [الحجر: ٦٨ - ٧١]، والسبب في هذا مراعاة السياق، ففي هود لم يجر حديث مع الضيف قبل مجيء قومه، فقدّم ذكر البنات، بخلاف موضع سورة الحجر، فقد ورد: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(٦٦) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ^(٦٧) وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [الحجر: ٦٢ - ٦٤]، فضيوفه حاضرون، ودار بينهم حديث فقدّمهم بالذكر^٢.

- ما يكون في مقطع الآية:

أ- التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] تقدّم الجار والمجرور على الفعل، وأفاد تخصيص الله تعالى بالتوكل عليه، والإنابة والرجوع إليه في جميع الحوائج، معرضاً عن كل

١- ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل، الخطيب الإسكافي، ت: محمد مصطفى آيدين، ط ١ (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠١م) ٢/ ٧٥٦ - ٧٥٨، وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، ط ١ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م) ٢/ ٦٥٢ - ٦٥٤، وعلى طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ١١٧ - ١١٨.

٢- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

ما عداه، فهو وحده القادر على كل شيء، وأفاد الموضع الثاني بالإضافة إلى التخصيص، تحقيق التناسب اللفظي (رعاية الفاصلة)^١.

- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكُومَهَا وَاتَّزِمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]

تقدّم الجار والمجرور (لها) على الخبر (كارهون)، وأفاد الاختصاص، فقوم نوح كانوا يخصّون البيئة بالكرهية، فلا يكرهون شيئاً ككرهتهم لها، ولو قال (وأنتم كارهون لها) لم يدل على شدة كرههم لها^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] الخطاب في هذه الآية لقوم نوح، والمقصود بالعذاب الأول هو الغرق، والعذاب الثاني: هو عذاب النار الدائم، وقد تقدّم الجار والمجرور (عليه) على الفاعل (عذاب مقيم)، والغرض التهديد والوعيد لهم بالعذاب الذي ينتظرهم، إلى جانب مراعاة الفاصلة^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] الخطاب في هذه الآية لقوم شعيب، وتقدّم الجار والمجرور (في الأرض) على الحال (مفسدين)، للاهتمام بالنهي الوارد، وهو ألا يفسدوا في الأرض، وبالإضافة إلى هذا الغرض هناك أيضاً مراعاة الفاصلة^٤.

ومن الأغراض التي خرج إليها التقديم والتأخير إلى جانب مراعاة الفاصلة: التوكيد، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَى لَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣]

١- ينظر: تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٣٤، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/ ٧٦٣ - ٧٦٤، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، دل تقدم الجار والمجرور (لك) على الخبر (بمؤمنين)، على تخصيص النبي بعدم الإيمان به، بالإضافة إلى رعاية الفاصلة.

٢- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ١١٩ - ١٢٠.

٣- ينظر: تفسير البضاوي، ٣/ ١٣٤، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/ ٧٩٩.

٤- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/ ٨٦٥ - ٨٦٦، ولنفس الأغراض جاء التقديم في قوله تعالى: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] فقد تقدم الجار والمجرور (عليكم) على الخبر (بحفيظ)، وقد جاء هذا الكلام بعد أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، وعدم بحس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض، وأن ما عند الله هو خير لهم، فكان الاهتمام بهم من هذا الجانب.

يعود الضمير في جملة (وما هي من الظالمين ببعيد) إلى الحجارة لأنها أقرب مذكور، وفي هذا وعيد لكل ظالم من هذه الأمة، وقد تقدم الجار والمجرور (من الظالمين)، وأفاد تأكيد الوعيد وأن العذاب قريب من كل ظالم، بالإضافة إلى رعاية الفاصلة^١.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ سُلَاطِمَهُمْ فِيمَا هُمْ بِمَا عَذَابُ إِلِيمُ﴾ [هود: ٤٨] تقدم المفعول به (ضمير الغائبين المتصل في يمسهم) على الفاعل (عذاب أليم)، وفيه تهديد ووعيد بوقوع العذاب عليهم، بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة^٢.

هذا وحصر الأمثلة الواردة في سورة هود يطول، وقد تمَّ الغرض في هذا القدر، من بيان أن مراعاة الفاصلة ليس غرضاً مستقلاً، وإنما تتداخل معه أغراض أخرى، وأمر آخر وهو بيان كثير من المواضع الواردة التي لم يذكرها الزمخشري في تفسيره.

ب- التقديم والتأخير في تذييل الآية:

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]

حيث ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ وهذا تذييل مناسب لما قبله من الآيات، فالمقام مقام عقوبة وإنجاء صالح والمؤمنين معه، وهذا يستدعي القوة والعزة، فجاء به التذييل، وقدم القوة على العزة بالذكر، لأن العزة إنما تكون من القوة^٣.

٢- التقديم والتأخير على مستوى السورة:

- ما يكون بين الآيات المتتابعة: وهذا يتضمن الحديث عن المناسبات بين الآيات، ولن يتسع المقام لذكرها بأكملها، وإنما يكفي الإشارة إلى بعض منها:

١- ينظر: تفسير البضاوي، ٣/ ١٤٤، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٣٨٦ - ٣٨٧. ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْجَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، تقدم الجار والمجرور (على كل شيء) على الخبر (وكيل) لتوكيد المعنى، وهو: أن الله يحفظ كل ما يقال، وأن سيجازيهم بما يستحقونه، ووجوب تسليم الأمر كله إليه. ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٦/ ١٢٨.

٢- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٦٤٩.

٣- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٢٦٢.

ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ آوَّجَاءَ مَعَهُ وَمَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِهِ لَعِلْمُ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٢ - ١٤]

فمناسبة آية التحدي لما قبلها ما ذكره أبو حيان بقوله: "أثما لا تتعلّق أطماعهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه، لدعواهم أنّه ليس من عند الله، وأنّه هو الذي افتراه" فجاء التحدي لإبطال دعواهم، ودحض آمالهم.

ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، فهاتان الآيتان مناسبتان لما ورد قبلهما من ناحيتين:

الأولى: أنّه سبقهما الحديث عن حال الكافرين مع القرآن، فجاء هنا وصف حالهم مع الدنيا وزينتها.

والثانية: أنّه ذكر في أوّل السورة سبيل المتاع الحسن، وهو الاستغفار والتوبة، ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، والناس كلّهم مؤمنوهم وكافروهم يرغبون بالمتاع الحسن في هذه الدنيا، ففرّق الله تعالى بين الاثنين، فقال في الصنف الثائب: ﴿يُعْطِيهِمْ مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ و ﴿يُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ بينما قال في الآخر: ﴿نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، فبيّن نصيب كلّ من الفريقين في الدنيا والآخرة^١.

ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٧﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٣]

١- البحر المحیط، ٦/ ١٣٠.

٢- ينظر: البحر المحیط، أبو حيان الأندلسي، ٦/ ١٣٢، وعلى طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٥١ - ٥٢.

فهذه الآيات شديدة الصلة ببعضها، وقدّم العمل على الانتظار، لأنّ العمل يسبق انتظار العاقبة، ولما كانت العاقبة من الأمور الغيبية فلا يعلمها إلا الله، أتبعها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالترتيب كالآتي: عمل ثم انتظار لما يأتي به الله تعالى من الغيب^١.

- ما يكون بين المقاطع المتتابعة في السورة:

إنّ المحور الرئيس في سورة هود دار على إثبات الألوهية والربوبية لله، وتثبيت العقيدة في قلوب الناس، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع رئيسية، في كل منها عدة موضوعات^٢:
المقطع الأول: تناولت مقدمة السورة الحديث عن حقائق العقيدة، وذلك في الآيات (١ - ٢٤).
المقطع الثاني: بيان حركة حقائق العقيدة في التاريخ، من خلال ذكر حوارات الأنبياء مع أقوامهم، وذلك في الآيات (٢٥ - ٩٩).

المقطع الثالث: تعقيب وتعليقات على ما ورد في قصص الأقوام السابقين، وفيها بيان للعبارة والعظة فيما قصه الله علينا، ثم تحدث عن الاختلاف في الحق والركون إلى الظالمين، وبيان أنّ الفتنة تعم بسكوت الصالحين، وختمت السورة ببيان أن في قصص الأنبياء مع أقوامهم تثبيتاً لفؤاد النبي ﷺ وتسليّة لقلبه.

فهذه هي مقاطع السورة، وترتيبها وتسلسلها المنطقي واضح، فأولاً تقرير لبعض أمور العقيدة، فتفتتح مدارك القارئ لأخذ العبرة والاستفادة مما سيرد في قصص السابقين.
ثم كان في القصص جولات وجولات في صفحات التاريخ، يرى فيها القارئ تعامل الأنبياء مع أقوامهم وصبرهم على أذاهم، وينظر إلى صدّ الكافرين وعنادهم...
ثم ختمت بتعقيبات وتعليقات لتثبيت العبرة والعظات مما سبق ذكره، وتفعيله إلى عمل. فالعقيدة في حركة دائمة على مرّ التاريخ، وتحتاج منا إلى حركة أيضاً.

١- ينظر: على طريق التفسير البياني، السامرائي، ٣/ ٣٧٢ - ٣٧٤.

٢- ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مصطفى مسلم، ط ١ (كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، الشارقة، ٢٠١٠م) ٣/ ٤٤٧ - ٥٠٢.

المبحث الثالث: أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء:

أولاً: بين يدي سورة النساء:

- التسمية: سُمِّيت هذه السورة بسورة النساء، ، فعن مَعْدَان بن أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمُرِيُّ^(١)، قال: "إِنَّ عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة، فذكر نبي الله ﷺ، وذكر أبا بكر، ثم قال: إِنْني لا أدع بعدي شيئاً أهمّ من الكلالَة، ما راجعت رسول الله ﷺ ما راجعته في الكلالَة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها، حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال: يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟ وإِنْني إن أعش أفض فيها بقضية، يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن"^(٢).
ويطلق عليها أيضاً سورة النساء الكبرى، تمييزاً لها عن سورة النساء القصرى (الطلاق)، وسميت بهذا الاسم لما تضمّنته من العديد من أحكام النساء، أزواج، وبنات^(٣).

- عدد آياتها: مئة وسبع وستون آية.

- وهي سورة مدنية بالإجماع، بدليل ما قالته السيدة عائشة^(٤) رضي الله عنها: "وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده"^(٥) ومعلوم أنّ النبي تزوجها بعد الهجرة.

١- هو معدان بن أبي طلحة اليعمرى الشامي، أحد التابعين، ذكره أبو زرعة في الطبقة التي تلي الصحابة، توفي سنة (٨٠هـ).

ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، ٢ / ٨٨٤.

٢- أخرجه مسلم رقم (٥٦٧)، ينظر: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، مسلم النيسابوري، ت:

محمد فؤاد عبد الباقي، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت) ١ / ٣٩٦.

٣- ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، (المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م) ١ / ١٦٩، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١ / ١٧٥، والتحريم والتنوير، ابن عاشور،

٤ / ٢١١.

٤- هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوّجها النبي قبل الهجرة بستين وعمرها ست سنوات، وبنى بها بالمدينة وعمرها

تسع سنوات، روت عن النبي علماً كثيراً، وروى عنها الكثير من الصحابة، توفي عنها النبي وعمرها (١٨) سنة، توفيت سنة

(٥٧هـ). ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، ٦ / ١٨٨ - ١٩٢.

٥- أخرجه البخاري رقم (٤٧٠٧) باب تأليف القرآن، ينظر: ٤ / ١٩١٠.

– فضائل السورة وخصائصها:

ورد في سورة النساء العديد من الآثار، منها:

– ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اقرأ عليّ القرآن، فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمع من غيري، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ – ٤٢] رفعت رأسي...، فرأيت عينيه تسيل" (١).

– وعن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ، قال: "من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير" (٢).

– وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن في النساء لخمس آيات، ما يسرني بهن الدنيا وما فيها، وقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: ﴿إِنْ تَجَتَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَكِرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعْفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] (٣).

١ – أخرجه مسلم، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه.. ينظر: صحيح مسلم ١ / ٥٥١.

٢ – أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وإسناده حسن. والحاكم في مستدركه. ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ط ١ (مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ٤٠ / ٥٠١، والمستدرک علی الصحیحین، الحاكم النيسابوري، ١ / ٧٥٢.

٣ – أخرجه الطبراني في معجمه (٩٠٦٩)، وسعيد بن منصور في سننه (٦٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح. ينظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور (٢٢٧هـ)، ت: سعد بن عبد الله آل حميد، ط ١ (دار الصمعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٧م) ٤ / ١٢٩٧، والمعجم الكبير، الطبراني (٣٦٠هـ)، ٩ / ٢٢٠، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، ٧ / ٧١ حديث رقم (١٠٩٥٤).

- وعن ابن مسعود أيضاً، أنه قال: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ لَأَيَّتَيْنِ، مَا أَذْنِبَ عَبْدٌ ذَنْباً، ثُمَّ تَلَاهُمَا وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُمَا، فَلَمْ يَخْبِرْهُمَ، فَقَالَ عُلُقَمَةُ وَالْأَسُودُ أَحَدُهُمَا لَصَاحِبِهِ: قُمْ بِنَا، وَقَامَا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَخَذَا الْمَصْحَفَ، فَتَصَفَّحَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَقَالَا: مَا رَأَيْنَاهُمَا، ثُمَّ أَخَذَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، فَقَالَا: هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ تَصَفَّحَا آلَ عِمْرَانَ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، قَالَا: هَذِهِ أُخْرَى، ثُمَّ أَطْبَقَا الْمَصْحَفَ، ثُمَّ أَتَيَا عَبْدَ اللَّهِ فَقَالَا: هُمَا هَاتَانِ الْآيَتَانِ؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ" (١).

- مقصد السورة ومحورها:

إِنَّ الْمَقْصِدَ الَّذِي تَسْعَى السُّورَةُ إِلَى تَثْبِيته من خلال موضوعاتها، هو: الْحُثُّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَتَرْسِيخَ قَوَاعِدِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، بِالْقَضَاءِ عَلَى آثَارِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَرْسِيخَ الْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَنْظِيمِهِ عَلَى أَسَاسِ التَّكَافُلِ وَالتَّرَاحُمِ وَالتَّنَاصُحِ، وَالتَّسَامُحِ، وَالْأَمَانَةِ وَالْعَدْلِ، وَالْمُودَةِ وَالطَّهَارَةِ، وَتَحْصِينِهِ دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا (٢)، وَتَنَاوَلَتِ السُّورَةُ هَذِهِ الْقِيَمَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا.

- موضوعات السورة:

تَنَاوَلَتِ سُورَةُ النِّسَاءِ مَخْتَلَفَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَهْتَمُّ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الدَّخْلِ (مِنْ خِلَالِ تَنْظِيمِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأُسْرِيَّةِ)، وَمِنْ الْخَارِجِ (مِنْ خِلَالِ تَنْظِيمِ عِلَاقَةِ الْمُسْلِمِينَ بغيرهم): فَقَرَّرَتْ أَوَّلًا حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ ﷻ، وَوَحْدَةَ أَصْلِ الْإِنْسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَقَرَّرَ حَقِيقَةَ قِيَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى قَاعِدَةِ الْأُسْرَةِ، وَاتِّصَالِهَا فِيمَا بَيْنَهَا بِوَسَائِلِ الرَّحْمِ. وَجَعَلَتْ مِنْ هَذِهِ الْبَدَايَةِ رَكِيزَةً لِنِظَامِ التَّكَافُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي أُسِّسَتْ فِي تَشْرِيعَاتِهَا:

١- أخرجه الطبراني (٩٠٧٠)، وقال الهيثمي إسناده جيد، إلا أن إبراهيم لم يدرك ابن مسعود. ينظر: المعجم الكبير، الطبراني،

٩/ ٢٢٠، ومجمع الزوائد، الهيثمي، ٧/ ٧٠، حديث رقم (١٠٩٥٣).

٢- ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ط ١ (مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٧م) ٢/ ٨٨ - ٨٩،

وفي ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٢١٣.

فذكرت حماية اليتامى وحقوقهم، وضرورة رعايتهم، وصيانة أموالهم، وحفظها لهم من الهدر والضياع، وردّها لهم حين التماس أهليتهم للتصرف بها.

وأكدت على حماية الإناث خاصة في أموالهنّ وأنفسهنّ، وبيّنت ما يجوز للرجل أن ينكح منهنّ، وذكرت المحرّمات عليه، ووضّحت طبيعة العلاقة بين الرجل وزوجته، وسُبل حلّ الخلاف بينهما. ووضعت حدّاً للفاحشة في المجتمع المسلم بتوفير أسباب الإحصان، وتحريم المخادنة.

وشرّع أحكام توزيع الميراث وتقسيمه، وأكّدت على نصيب الإناث فيه.

وحثّت على إنفاق المال في سبيل الله، وأكّدت تحريم أكل أموال الناس بغير حق.

ولما كان صيانة الدين أولى الأوليات فقد أوجب الله في هذه السورة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ليعبد الله كما أمره. وذكر الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله وشريعته في أرضه.

وفي حديثه عن الجهاد ذكر أحكاماً خاصة بصلاة الخوف، وبيّنت حكم من يقتل مؤمناً متعمّداً أو مخطئاً لحقن الدماء. ولم تُغفل السورة الكريمة في ظلّ كلّ هذه التشريعات أن تذكر أعمال المنافقين وأهل الكتاب، تحذيراً منهم ومن أفعالهم، وبيّنت عاقبتهم، وذكر أنّ الله يغفر للتائبين المستغفرين.

وفي كلّ حكم وتشريع تحثّ السورة على مكارم الأخلاق، وإقامة العدل بين الناس، والشهادة لله وحده، وأداء الأمانات^(١).

١- ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٢٠٨ - ٢٢٨، والتفسير المحرّر للقرآن الكريم، الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ٣/ ١٠ - ١٢.

ثانياً: التقديم والتأخير في السورة:

١- التقديم والتأخير على مستوى الآية القرآنية:

- ما يكون بين أجزاء الآية وجملها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير:

في قوله تعالى في بيان الميراث: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، قدّم الخبر (للذكر) على المبتدأ (مثل...)، فتقدّم بيان نصيب الذكر على الأنثى، ليدلّ على فضل الذكر، وفيه دلالة أخرى أهم من هذه، وهي تأكيد حقّ الإناث في الميراث، فعادة العرب قبل الإسلام ألا يورثوا النساء، فدلّت الآية بنظمها هذا أنّ نصيب الأنثى ثابت مقرّر، وجعلت نصيب الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى. يقول الزمخشري في هذا: "فإن قلت هلاً قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظّ الذكر؟ قلت: ليبدأ ببيان حظّ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك... ولأنّهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث -وهو السبب لورود الآية- فقل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يُتمادى في حظّهنّ حتى يُحرمن مع إدلائهنّ من القرابة بمثل ما يدلون به"^(١).

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير:

في قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١١]، تقدم ذكر الوصية على ذكر الدين، رغم أنّها تؤدّي من الميراث بعد ما تؤدّي ديون المتوفّى، والغرض من هذا التقديم: تأكيد أهميّة الوصية، وتأكيد لزومها والحثّ على المسارعة في إخراجها، حتّى لا يتهاون الناس في أدائها، قال الزمخشري: "فإن قلت لم قدّمت الوصيّة على الدّين، والدّين مقدّم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشقّ على الورثة ويتعاضمهم ولا

تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنةً للتفريط. بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدّمت على الدين، بعثاً على وجوبها والمصارعة إلى إخراجها مع الدين^(١).

وفي قوله تعالى في آية التيمم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، رتب أصحاب الأعدار المبيحة للتيمم حسب الأكثرية، فذكر أولاً المرضى، ومن كان على سفر، ثم أتبعهم بكل من لم يجد الماء. قال الزمخشري: "فخصّ أولاً من بينهم، مرضاهم وسفرهم، لأنهم المتقدّمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر، وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عمّ كلّ من وجب عليه التطهّر وأعوزه الماء لخوف عدوّ أو سبع أو عدم آلة استقاء... وغير ذلك مما لا يكثر كثرة المرض والسفر^(٢)."

وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، تقدّم الشكر على الإيمان، وهذا من باب تقديم السبب على المسبب، فمعرفة النعم والنظر فيها، وشكرها، والامتنان لها، يوصل إلى معرفة المنعم والإيمان به وَعَلَيْكُمْ. يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم قدّم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأنّ العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثمّ شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدّماً على الإيمان، وكأنّه أصل التكليف ومداره^(٣)."

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٤٩]، قدّم الحديث عن إبداء

١- الكشف، ١/ ٢٢١، ينظر: معاني القرآن الكريم، النحاس، ت: محمد علي الصابوني، ط ١ (مركز إحياء التراث الإسلامي،

١٩٨٨م) ٢/ ٣٢ - ٣٣، ومفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ٥١٨، ومحاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، ت: محمد فؤاد عبد

الباقي، ط ١ (دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م) ٥/ ١١٤٤.

٢- الكشف، ١/ ٢٣٦.

٣- الكشف، ١/ ٢٦٧، ينظر: تفسير القاسمي، ٥/ ١٦٢٥، والتفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، د. ط (دار الفكر

العربي، القاهرة، د. ت) ٣/ ٩٤٥ - ٩٤٦.

الخير وإخفائه، على الحديث عن العفو، وذلك لتنبيه النفوس وتهيئتها لما بعد المقدم (العفو)، والحث عليه، فالدعاء على الظالم وأخذ الحق منه أمر جائز لا يؤاخذ عليه الله وَعَلَى، إلا أنَّ العفو عمن ظلمك مع قدرتك على استيفاء حَقِّك منه من معالي الأخلاق وهو من صفات الأنبياء. ولتأكيد أمر العفو أيضاً، ختم الله تعالى الآية بتقديم العفو على القدرة، فدلَّ على أنَّه أولى. يقول الزمخشري في هذا: "وذكر إبداء الخير وإخفائه تنبيهاً لعفو، ثمَّ عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته، وأنَّ له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أنَّ العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه، هو قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله" (١).

ج- ما قدم في آية وأخر في أخرى:

لم يذكر الزمخشري ما يندرج تحت هذا القسم في هذه السورة.

- ما يكون في مقطع الآية:

أ- التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

كما مرَّ سابقاً فإنَّ الزمخشري لم يهتم كثيراً بالتنبيه على مواضع مراعاة الفاصلة في النظم القرآني.

ب- التقديم والتأخير في تذييل الآية:

وردت بعض المواضع التي أشار فيها الزمخشري إلى علاقة تذييل الآية بما حوته من معان، وتقريره لها، منها:

ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فالآية كما سبق بيانها تحثُّ على العفو، وتبيِّن أهميَّته، وختمت بأنَّ الله (عفو قدير) فتقدم العفو على القدرة، لتقرير المعنى الذي رمت الآية إلى بيانه، وتأكيدده، فالله يعفو عن المسيء، ولا يعاجله بالعقوبة، مع أنَّه على كلِّ شيء قدير. قال الزمخشري: "وذكر إبداء الخير وإخفائه تنبيهاً

١- الكشف، ١/ ٢٦٧، وينظر: تفسير القاسمي، ٥/ ١٦٣٠.

لعفو، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته، وأن له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه، هو قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَ قَدِيرًا﴾ (١٦٩) أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله^(١).

وفي قوله تعالى في آية الموارث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمَتُ لِحَظِ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، جاء التذييل بأن الله عليم حكيم، فهو عليم بشؤون خلقه، ومصالحهم، حكيم في تقدير ما ينفعهم. قال الزمخشري: "﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح خلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما فرض وقسم من الموارث وغيرها"^(٢)، وتقديم العليم على الحكيم من باب تقديم السبب على المسبب، فحكمة الله تعالى إنما هي بسبب علمه الشامل لكل شيء.

وفي الآية التي تليها وهي في الموارث أيضاً، قال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، بعدما ذكر بعض الحالات في الميراث، ونهى عن المضارة في وصيته فلا يوصي بأكثر من الثلث، جاء التذييل بأن الله عليم بمن يخالف أمره، يمهله فلا يعاجله بالعقوبة. قال الزمخشري: "(والله عليم) بمن جار أو عدل في وصيته، (حليم) عن الجائر لا يعاجله، وهذا وعيد"^(٣).

٢- التقديم والتأخير على مستوى السورة.

لم يذكر الزمخشري ما يمكن إدراجه تحت هذا المستوى، سواء ما كان من مناسبات بين الآيات، أو بين مقاطع السورة المتتابعة، فسننتقل مباشرة إلى ذكر المواضع التي لم يذكرها.

١- الكشف، ١/ ٢٦٧، وينظر: تفسير القاسمي، ٥/ ١٦٣٠.

٢- الكشف، ١/ ٢٢١.

٣- الكشف، ١/ ٢٢٢-٢٢٣.

ثالثاً: المواضع التي لم يذكرها الزمخشري في الكشف:

- ما يكون بين جمل الآية وأجزائها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير:

في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]
ورد موضعان تقدم فيهما الجار والمجرور (منهم) و(إليهم)، على المفعول به (رشدًا) و(أموالهم)،
والغرض من هذا التقديم، إظهار الاهتمام والعناية بمن يعود عليهم الضمير، وهم اليتامى، بالإضافة إلى
مراعاة نظم الآية، فما تقدم في موضع، تقدم في الموضع الآخر^١.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ [النساء: ٨].
تقدم المفعول (القسمة) على الفاعل (أولو القربى)، والغرض: الاهتمام بهذا الأمر (قسمة الميراث)
فالبيان متجه إليه، وهو مدار الحديث ومحل الاهتمام^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]

تقدم الجار والمجرور (في بطونهم) على المفعول به (نارًا)، وأفاد التنبيه إلى أنَّ ما يأكلونه من أموال
اليتامى يجزئهم إلى النار والعذاب، وفيه أيضاً تهديد لكل من يفعل فعلهم^٣.

١- ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]،
فقد تقدم الجار والمجرور (منها) و(منهما) على المفعول به (زوجها) و(رجالاً)، ودل على الاهتمام بالأصل البشري الذي يعود
إليه الضمير، بالإضافة إلى تحقيق التناسب اللفظي (رعاية النظم) في تقديم المجرور على المفعول في موضعين في هذه الآية ينظر:
بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٣/ ٨٢٨ - ٨٢٩.

٢- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٢٨٤، ومثله التقديم في قوله تعالى:
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ... [النساء: ٢٣]، حيث تقدم الجار والمجرور (عليكم) على نائب الفاعل (أمهاتكم) للاهتمام بالمخاطبين
بالتحريم فتقدم ضميرهم. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، تقدم الجار والمجرور، على الحال، للاهتمام
بأن النبي عليه السلام مبعوث للناس كافة. ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/ ٨٦٤.

٣- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/ ٨٤٨ - ٨٤٩.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

تقدّم الجار والمجرور (لهم) على المفعول به (عذاباً)، وأفاد معنى التهديد والوعيد للمذكورين في الآية، فهم بذنبهم الذي ارتكبهوا استحقوا هذا العذاب المعدّ لهم^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥]، تقدّم المفعول الأول (كلاً) على الفعل (وعد)، ودلّ على الاهتمام بالعموم، فكلا الفريقين مستحق للجنة، وأفاد أيضاً تأكيد الوعد، فكلّ من بذل جهده في سبيل الله ولم يتوانَ عما يستطيعه فله جزيل الثواب عند الله تعالى^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبْنَاكُمْ وَأَلْبَسْنَاكُمْ مَلَأَةً مِّنَ الثَّيَابِ وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَزَاءً ثَوَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٤]، الآية تنهى المسلمين عن قتل من يظهر الإيمان وأخذ غنيمته، فما عند الله خير مما يسعون وراءه، فجاء الخبر متقدماً (فعند الله) على المبتدأ (مغانم)، في سياق الوعد والضمان فدلّ على تقوية هذا الوعد وتوكيده^٣.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، جاءت هذه الآية بعد قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النساء: ١٢٤].

١- ينظر: تفسير أبي السعود، ١٥٧ / ٢، وروح المعاني، الألوسي، ٤٤٩ / ٢، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٨٤٠ / ٣.

ولها غرض آخر وهو مراعاة الفاصلة، فاجتمع في هذا الموضع غرضان.

٢- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٣٨ / ٤.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، دلّ التقديم إلى جانب تخصيص ظرفية الثواب، بأنه عند الله فقط، على الحث على نيّله، فعنده تعالى خيرا الدنيا والآخرة. ينظر: تفسير أبي السعود، ٢١٨ / ٢، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢٦٥ / ٢، ٣٣٣.

وأفاد تقديم الخبر (لله) على المبتدأ، تخصيص الله تعالى بأن له ملك ما في السموات والأرض، فطاعته واجبة عليهم^١.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

تقدّم الخبر على المبتدأ في موضعين في هذه الآية، ودلّ على تخصيص كل من الرجال والنساء بما قسم الله له، فليرضوا بنصيبهم، ولا يتطلعوا إلى ما لغيرهم^٢.

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير:

ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثِلَتَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣]، حيث تقدّم اللفظ الذي يدلّ على الاثنين، على ما يدلّ على الثلاثة، وهذا تقدّم على ما يدلّ على الأربعة، وهذا الترتيب من باب السبق بالطبع والذات فالأعداد يتقدّمها أسبقها^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ۖ﴾ [النساء: ٢٢ - ٢٣]، ذكرت الآية المحرمات من النساء، فبدأ بالأعظم حرمة، وهم الأقرب إلى الرجل. "ولما ابتدأ بتعظيم الآباء واحترامهم في أن ينكح الأبناء أزواجهم على العموم، ثنّى بخصوص الأم... فكان تحريمها مذكوراً

١- وهذا ينطبق على باقي المواضع في سورة النساء خصوصاً، وغيرها من السور عموماً، والآيات الواردة في النساء (١٣١)-

(١٣٢). ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٢٦٨.

٢- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ٧١-٧٢، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٢٧٥، وكلّ ما ورد في آيات الميراث من تقديم وتأخير، دلّ على تخصيص صاحب الفرض بنصيبه، وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧]، دلّ تقدم الخبر (لهم) على المبتدأ (أزواج) على تخصيص المؤمنين بهذا النعيم، وفي تأخير المبتدأ تشويق له. ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٢٨٩-٢٩٠، ٣٢٨.

٣- ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، ت: عبد الحميد هنداوي، ط ١ (المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م) ٢/ ٣٤.

مرتين تأكيداً له وتغليظاً لأمره في نفسه، واحتراماً للأب وتعظيماً لقدره،..."^(١) فالتقديم هنا لبيان الأعظم حرمة.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ [النساء: ٨].

تقدّم الأمر بإعطاء أقارب الميت غير الوارثين من التركة، على غيرهم من اليتامى والمساكين، وذلك لأنّ إعطاءهم صدقةً وصلة، فالتقديم هنا دلّ على أولوية المقدّم وعظم الأجر بإعطائه^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

تبين الآية حكم من يتولّى رعاية أموال اليتيم، ويريد أن يأخذ منها، فقدّم بيان حكم الولي الغني، على الفقير، إمّا لأنّ غالب من يتولّى هذا الأمر يكون من الأغنياء، أو لأنّ إثم من يأخذ من مال اليتيم بغير حاجة أعظم ممن يأخذ وهو محتاج، فالتقديم هنا من باب السبق بالأكثرية^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، قدّم الإخبار بدخول الجنة على الإخبار باستيفاء الحق كاملاً، والغرض من "هذا تطمين لقلوب المؤمنين، وأنهم سيدخلون الجنة على أي حال، فضلاً وكرماً من الله عليهم، أمّا مناقشتهم الحساب، فإنّه لكي يروا ما عملوا من خير، وكيف نّمّاه الله لهم، وأجزل لهم الثواب عليه"^(٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، نسق بين المعطوفات (النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين) بناء على أسبقيتها بالشرف والفضل فالنبيّ أشرف من الصديق، والشهيد أعلى

١- نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٢٢٨ - ٢٣٢.

٢- ينظر: تفسير القاسمي، ٥/ ١١٣١.

٣- ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، منير المسيري، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

٤- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ٩١٠.

منزلة من الصالحين^(١). وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦]، تقدّم الأفضل على المفضول، فردّ السلام بمثله حسن، وردّه بأحسن منه هو الأفضل، فتقدّم في الآية.

- وفي قوله تعالى: ﴿فِظْلِهِم مِّنَ الْزَيْنِ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

بدأ بأنواع الظلم بما هو أشد، لأهمية اجتنابه، فبدأ بأمر الدين وهو الصد عن سبيل الله، ثم أتبعه بما هو من أمر الدنيا، فذكر التعامل بالربا، وارتقى إلى ما هو أبلغ في الظلم، وهو أكل أموال الناس بغير حق ولا عوض. فساق أنواع الظلم على سبيل التدرج، فما يتعلق بالعقيدة أهم مما يتعلق بالمعاملات، ثم في سرده لما يتعلق بالمعاملات ترقى فذكر أكل المال بعوض أولاً، وأتبعه بأكله بغير عوض^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]، تقدّم على بيان الحكم قوله ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ استثناء من الحكم، و"لعلّ تقديم الاستثناء ... للإيدان من أوّل الأمر بأنّ حكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق،... تشويقاً إلى البيان، وروماً لزيادة تفرّره في الأذهان"^(٣) فالتقديم هنا للتشويق إلى المقدّم، وحتى يتمكن في الذهن.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

تقدم الإخبار عن عيسى عليه السلام بأنّه رسول الله على كونه كلمة وروحاً منه وَعَلَيْكُمْ، وفي هذا دلالة على تقرير الأمر وتوكيده، فالتقديم كان "للتحقيق الحقّ من أوّل أمر بما هو نصّ فيه غير محتمل للتأويل،... وسدّ باب التأويل الزائغ"^(٤).

١- ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلوي، ٢ / ٣٥، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٩٤٨/٣.

٢- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤ / ١٣٣، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣ / ٩٤١.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ٢ / ١٨٠.

٤- تفسير القاسمي، ٥ / ١٧٦٤.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

تقدّم الوعد بدخول الجنة على الوعد بالهداية إليها، رغم أنّ دخولها لا يكون إلا لمن هداه الله لذلك، فدل التقديم على المسارعة إلى التبشير بنعيم الجنة^(١).

- ومن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، استنبط الفقهاء أصول التشريع (الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس) حسب ترتيبها الوارد في الآية، فالكتاب والسنة مقدمان على غيرها (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، ولا يجوز استنباط حكم من طريق القياس إذا كان مأخوذاً من أصل تشريعيّ متقدّم^(٢)، فالتقديم هنا دلّ على حكم شرعي لا يجوز مخالفة الترتيب فيه وقد أقرّ النبي ﷺ معاذ بن جبل حين بعثه قاضياً إلى اليمن على هذا الترتيب، فقال له "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله تعالى، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ^(٣).

- وكذلك الترتيب في آية التيمم، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، فقد قدّم مسح الوجه على مسح اليدين، وهو ما علّمنا إياه النبي، ففي حديث عمار، قال: أجنبتم فلم أصب الماء، فتمعّكت في الصعيد، وصليت، فذكرت ذلك للنبي فقال: "إنّما كان يكفيك هكذا" وضرب النبي بكفيه الأرض "وتنفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه"^(٤).

١- ينظر: تفسير القاسمي، ١٧٧٦/٥.

٢- ينظر: مفاتيح الغيب، ١١٢/١٠.

٣- أخرجه الترمذي في سننه (١٣٢٧)، وأبو داود في سننه (٣٥٩٢). ينظر: سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ٣/٣.

٦١٦، وسنن أبي داود، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، د.ط (المكتبة العصرية، بيروت، د.ت) ٣/٣٠٣.

٤- أخرجه البخاري رقم (٣٣١). ينظر: الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى البغا، ط ٣ (دار

ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م) ١/١٢٩.

- ما قدم في آية وأخر في أخرى:

- يكون التقديم في موضع والتأخير في آخر في الآيات المتشابهة، لمراعاة سياق الآيات، فقدّم الإيمان على الكفر، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۖ فَمِنْهُمْ قَنَازٌ آمِنٌ بِهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَعَنَّهُ﴾ [النساء: ٥٤ - ٥٥]، وأخره في مواضع أخرى، ففي سورة التغابن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وذلك ليناسب سياق الآيات، ففي سورة النساء كان الحديث عن سيدنا إبراهيم فقدّم من آمن به تكريماً له ﷺ، بخلاف آية التغابن، فاللفظ فيها عام^(١).

- وأيضاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، قدّم الأمر بالقسط (العدل)، وأخره في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، فأيات سورة النساء تتحدث عن الإحسان إلى اليتامى ورعاية شؤونهم، والعدل بين النساء، وعن العلاقة بين الزوجين، وإصلاح ما بينهما، وغيرها من القضايا الاجتماعية، فتقدّم الأمر بالقسط أولاً، أمّا في سورة المائدة فجاءت الآيات تأمر بالوفاء بالعقود والمواثيق، وتذكر نعم الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ۖ﴾ [المائدة: ٧]، فناسب تقديم (الله)، والمعنى: كونوا قوامين بما أمّرتكم به الله^(٢).

وهناك من نظر إلى التقديم في آية النساء، والتأخير الوارد في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والترتيب هنا على هذا النحو لملاءمة السياق، فشهادة الله تعالى تعني أنه خالق للمخلوقات، وقيامه بالقسط يعني: رعاية قوانين العدل في تلك المخلوقات، والأوّل مقدّم على الثاني، وتقدّم القسط في سورة النساء لكون السورة تتحدّث عن قوانين العدل والتعامل بين الناس، ولأنّ الإنسان إذا لم يكن مقسطاً، فلن تقبل شهادته على الغير^(٣).

١- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص ١٤٠.

٢- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص ١٤٢ - ١٤٣.

٣- ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، حسن بن محمد النيسابوري، ت: الشيخ زكريا عميرات، ط ١ (دار الكتب العلمية،

بيروت، ١٩٩٦م) ٢/ ٥١٢، ومفاتيح الغيب، ١١/ ٢٤١.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، تقدّم ذكر المشهود عليهم على الشهيد، وفي سورة النحل ورد العكس، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، وذلك لتناسب كل آية مع السياق والنظم الواردة فيه، ففي سورة النحل، تقدّم ذكر الشهيد قبل المشهود عليهم، فجاءت الآية على هذا النظم، أمّا موضع النساء فلم يرد هذا النظم، ولتقديم المشهود عليهم على الشهيد في سورة النساء دلالة أخرى، فقد سبق هذه الآية آية ذكرت صفات للمنافقين ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٨]، فدلّ تقديم المشهود عليهم على أن المراد بـ(هؤلاء) هم أولئك المنافقون المذكورون بصفاتهم، وهذا تخويف ووعيد لهم، وإن كان الرسول ﷺ شهيداً على كل الأمم^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، دلّ تقديم الدية في الموضع الثاني بخلاف تأخرها في الموضع الأول، دلّ على الحثّ والمساورة إلى دفع الدية إلى أصحابها، حتى لا يُتَوَهَّم نقضهم للميثاق الذي بينهم^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]، تقدّم ذكر الأموال على الأنفس، وفي موضع آخر كان العكس، في قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، يقول الرازي في هذا لطائف بديعة، فالنفس أشرف المذكورين على الإطلاق، فلمّا كان الحديث عن الشراء قدّمها، ليدلّ على أنّ الرغبة فيها أشدّ، ولما كان الحديث عن الطرف المقابل أخرها، فإنّ المجاهد في سبيل الله لا يضحي بنفسه جزافاً، وإنّما يقدّمها بكل ثقة وجور عندما يحين الوقت لذلك، فأخرها بالذكر^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٩]، قدّم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإنفاق في سبيل الله، لأنّ الإيمان أهمّ، ولولاه لا يُعتدّ بالإنفاق، أمّا

١- ينظر: ملاك التأويل، الغرناطي، ١/ ٣٤١-٣٤٢.

٢- ينظر: تفسير القاسمي، ٥/ ١٤٤٩.

٣- ينظر: مفاتيح الغيب، ١١/ ١٩٣.

تأخير الإيمان في الآية التي سبقتها: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٨]، فلمراعاة السياق والتناسب بين الآيات، فكانت الآيات تذكر بخلهم وأمرهم للناس بالبخل، فناسب تقديم ما هو متعلق بهذا الجانب، وهو أنهم إذا أنفقوا كان إنفاقهم رياء وسمعة، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]، تأخر ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، مع أنَّ المعتاد في القرآن الكريم تقديمه، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ حَسَنٌ﴾ [الكهف: ٨٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: ٦٠]، وغيرها من المواضع التي دائماً يتقدم الإيمان على العمل الصالح، وذلك مراعاة للسياق، فيتقدم ما بيانه أهم في هذا الموضع، ولما كان الحديث في الآية عن الراسخين في العلم من أهل الكتاب، وبيان أحوالهم، كان الأهم في هذا المقام بيان أنَّ أحبارهم آمنوا بكل ما أنزل الله، على جميع رسله، ثم أتبعه بما يعتقد به الجميع، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر.

وموضع آخر في سورة النساء تأخر ذكر الإيمان عن العمل الصالح، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ أَوْ أَنْتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فسياق الآيات لبيان أن العبرة بالعمل لا بمجرد الانتماء إلى الدين، فتقدم ذكر العمل الصالح للاهتمام بهذا الغرض^(٢).

١- ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ١٧٧/٢.

٢- ينظر: تفسير البيضاوي، ١٠٩/٢، وتفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ط ٢ (دار المنار، القاهرة،

- ما يكون في مقطع الآية:

أ- التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

- التقديم الذي على نية التأخير: مما ورد من بلاغة الفواصل في هذه السورة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

الخطاب في الآية للمؤمنين، ودلّ تقديم متعلق الخبر (لكم) على الخبر (عدواً) على الاهتمام بهم، فالحديث متّجه إليهم، وفيه معنى التنبيه مما يحيط بهم من مكر العدو، بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة، حتى تتناسب مع ما قبلها وما بعدها من الفواصل^١.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢] تقدّم الجار والمجرور (بكل شيء) على الخبر (عليما)، ودلّ على تأكيد عموم علم الله تعالى، فالتقدم أفاد التوكيد، و(كل) تدل على العموم، بالإضافة إلى مراعاة الفاصلة^٢.

وفي قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]. فالتبشير هنا للتهكم بهم وتهديدهم، وتقديم الخبر (لهم) على اسم أن (عذابا) أفاد تأكيد هذا العذاب، وتخصيصهم به، بالإضافة إلى تحقيق التناسب اللفظي في مراعاة الفاصلة^٣.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

١- ومثله التقديم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]،

حيث دلّ تقديم الجار والمجرور (على المؤمنين) على الخبر (كتاباً) على الاهتمام بالمؤمنين، والتنبيه إلى وجوب المحافظة على الصلاة، ومراعاة الفاصلة. ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٤٩٥.

٢- ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣] و﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ [النساء: ٨٥]،

و﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، فقد حقق التقديم في هذه المواضع تأكيد عموم شهادة الله تعالى على كل شيء، وتوكيد عموم قدرته، وتوكيد عموم حسابه على كل صغيرة وكبيرة، بالإضافة إلى التناسب اللفظي، بمراعاة الفاصلة. ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

٣- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/ ٥٧٥ - ٥٧٦.

فالمستضعفون من المؤمنين، يدعون ربهم ليخلصهم مما سَلَطَ عليهم من ظلم المشركين، وتقدّم المفعول الثاني (لنا) على المفعول الأول (ولياً)، و(نصيراً)، فدلّ على تخصيص المتكلمين بالولي والنصير من عند الله تعالى، وتحقيق بهذا التقديم، رعاية النظم، فتقدّم المفعول الثاني في الموضعين في الآية، بالإضافة إلى تحقيق التناسب اللفظي في الموضع الثاني بمراعاة الفاصلة^١.

– التقديم الذي ليس على نية التأخير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

تقدّم الحال (له) على صاحبه، وكانت قبل التقديم صفة، والمعنى: "ومن يضلل الله بعدم استعداده للهداية والتوفيق، فلن تجد موصلاً له إلى الحق والصواب فضلاً عن أن تهديه إليه"^٢، والغرض من التقديم، إظهار الاهتمام بالمؤخّر من خلال تقديم أحواله، "فإنّ في تأخير ما حقه التقديم، عما هو من أحواله المرغبة فيه، كما يورث شوق السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة"^٣، بالإضافة إلى رعاية الفاصلة^٤.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَجَعَلَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَجَعَلَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: ٧٥].

تقدّم الحديث عن هذه الآية في التقديم الذي على نية التأخير، من خلال تقديم المفعول الثاني على الأول، وهنا سندرسها من خلال تقديم الحال المتقدم (من لذنك) الذي كان أصله صفة، على صاحبه (نصيراً). وكما في المثال السابق، فقد دلّ التقديم على الاهتمام بالمؤخر من خلال تقديم بعض أحواله، فحصل بهذا التقديم التشويق إلى المتأخر، هذا بالإضافة إلى رعاية النظم والفاصلة^٥.

١- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٧١٢/٣، وبلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٢/٦٩٠.

٢- تفسير أبي السعود، ٢/٢٤٦.

٣- تفسير أبي السعود، ٢/٢٠٢.

٤- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/٩٢١.

٥- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير، علي عون، ٣/٩٢٣.

بـ التقديم والتأخير في تذييل الآية:

إنَّ الأمثلة السابقة التي جاءت تحت عنوان التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية، يصلح أغلبها لذكره هنا (التقديم والتأخير في تذييل الآية)، وإنما ذكرها هناك كان نظراً للتصريح بالقول بمراعاة الفاصلة فيها، فلا داعي لإعادتها.

٢- التقديم والتأخير على مستوى السورة:

أ- ما يكون بين الآيات المتتابعة: وهنا بعض مما ورد في سورة النساء:

ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّخَذُوا آلَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ يَدْعُوهُمُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعَدْوِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْبَيْتِ الْأَوَّلَى وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْبَيْتِ الْآخِرَى﴾ [النساء: ٤٤]، تتحدث الآية عن اليهود، وقد وردت بعد قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وذلك لأنه لما ذكر في آية التيمم، حكم من ذل لسانه في الصلاة بغير عمد، وجاء تحريم شرب الخمر وقت الصلاة على إثر هذه الحادثة، أتبعها ببيان من ضلَّ بقلبه ولسانه^١.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعَادٍ مُجْمِعِينَ﴾ [النساء: ٧١]، تحدثت الآية عن أمور القتال مرة أخرى، بعد آيات تتحدث عن طاعة الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وذلك لأنه من أشق الطاعات، وأعظم الأمور التي يحصل بها تقوية الدين، فلا هميته أعاد الحديث عنه، بعد أن تقدّمه ترغيب بطاعة الله ورسوله^٢.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٩٥]، تتحدث الآية عن فضل المجاهد في سبيل الله ومكانته، وذلك عقب الحديث عن

١- ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٨٩ / ٥.

٢- ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠ / ١٤٧.

أمور الجهاد وما يتعلق به، وآخر ما ذكرته الآيات قبل هذه الآية، كان تحذيراً للمسلمين أن يقتل بعضهم بعضاً، وضرورة التحري والتأكد في هذه القضايا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

ووجه آخر أنه تعالى بعدما عاتبهم في هذه الآية عما صدر عنهم، أتبعتها ببيان فضيلة المجاهد في سبيله، حتى لا يترك أحدهم هذا الأمر خشية الوقوع في الخطأ^١. فالتنبية على الخطأ وتصويبه أهم وهو مقدّم على بيان فضيلة الأمر.

ب- ما يكون بين المقاطع المتتابعة:

إنَّ سورة النساء من السور الطوال، وقد تعددت موضوعاتها وتنوعت، وكلها تقوم على بناء مجتمع قائم على العدل والتوحيد في علاقاته الداخلية والخارجية، بدأ من أصغر نواة فيه وهي الأسرة. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة عشر مقطعاً^٢:

المقطع الأول: قرّر أنّ أصل البشرية واحد، وخالقها واحد، ومنع العدوان على المال والنسل. وهذا بين الآيات (١ - ١٨).

المقطع الثاني: تناول الحديث عن تكريم المرأة، وحقوقها كزوجة. وذلك بين الآيات (١٩ - ٢٨).
المقطع الثالث: تحدث عن حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة. وذلك بين الآيات (٢٩ - ٤٣).

والحديث في هذه المقاطع دائر عن العلاقات الداخلية في المجتمع المسلم.
المقطع الرابع: تحدث عن دور اليهود التخريبي في المجتمع. وذلك بين الآيات (٤٤ - ٥٨).
أمّا عن علاقة هذا المقطع بما قبله، فإنّه لما تابعت التكاليف من أول السورة، كان لا بد من تروح للنفس حتى تستعيد نشاطها في استقبال ما سيرد من أحكام، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن آية التيمم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي

١- ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١ / ١٩٢.

٢- ينظر: التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ٢ / ٢٨٤ - ١.

سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ [النساء: ٤٣]، ختمت بما يُفهم أنَّ التشدد في الأحكام سبب للفساد _ ذلك أنَّ تشريع التيمم من باب التيسير على العباد، والصلاة فيه مع عدم القدرة على الماء حسنة، واستخدام الماء رغم ضرره تنطع وتشدد ولا يحصل به مزيد أجر، فمن كانت عادته العفو والمغفرة كان ميسراً غير معسّر _ أتبعها بذكر أحوال اليهود الذين تشدّدوا فشدد الله عليهم^١.

المقطع الخامس: قرّر أنَّ أساس الدين وحقيقته هو طاعة الله وطاعة رسوله طاعة حقيقية، وفيه حديث عن المنافقين. وذلك بين الآيات (٥٩ - ٧٠)

وعلاقة هذا المقطع بما قبله ظاهرة: وهو أنَّه لما ذكر العدو الخارجي للمسلمين، تحدث عن العدو الذي يتخفّى بينهم، وهم المنافقون^٢.

المقطع السادس: بيّن فيه أنَّ القتال طريق ضروري لتحرير المستضعفين من المسلمين، وذلك بين الآيات (٧١ - ٩٤).

ووجه صلته بما قبله، أنَّه لما بيّن أنَّ أساس الدين في طاعة الله ورسوله، اتجه إلى سبيل إعلاء كلمته، وتحرير المستضعفين ليقوموا لله كما أمرهم^٣.

المقطع السابع: علاقة الهجرة بالتححر والقتال. وذلك بين الآيات (٩٥ - ١٠٤).

المقطع الثامن: تقرير أنَّ حكم الله وجزاءه عدل مطلق. وذلك بين الآيات (١٠٥ - ١٣٥).

المقطع التاسع: بيّن أنَّ تولية الكافرين نفاق، وأنَّ الإيمان الصحيح هو يحرّر من الكفر والنفاق. وذلك بين الآيات (١٣٦ - ١٤٩)

المقطع العاشر: بيان لبعض سلوكيات وانحرافات أهل الكتاب، لتقرير الإيمان الصحيح. وذلك بين الآيات (١٥٠ - ١٦٢)

المقطع الحادي عشر: بيان أنَّ الوحي لتحرير الناس من مختلف أشكال العبودية لم ينقطع حتى بعثة سيدنا محمد عليه السلام. وذلك بين الآيات (١٦٣ - ١٧٠)

١- ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠ / ٩١، ونظم الدرر، البقاعي، ٥ / ٢٨٨ - ٢٨٩.

٢- ينظر: التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ٢ / ١٤٢.

٣- ينظر: التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ٢ / ١٥٦.

المقطع الثاني عشر: بيان أنَّ غلوَّ أهل الكتاب هو الذي أخرجهم عن الإيمان الصحيح. وذلك بين الآيات (١٧١-١٧٣)

المقطع الثالث عشر: وكان الختام بتقرير أنَّ القرآن دليل قاطع وحجَّة واضحة. وذلك بين الآيات (١٧٤-١٧٦).

فالآيات تنتقل من موضوع إلى غيره، وتؤكد بين الحين والآخر مقومات الإيمان الصحيح، حتى يرى القارئ انحرافات اليهود والمنافقين، فيزداد ثباتاً على الدين الحقِّ وتمسكاً به في جميع جوانب حياته، متمثلاً به في عقله وروحه وسلوكياته.

المبحث الرابع: كيفية تعامل الزمخشري مع أسلوب التقديم والتأخير:

إنَّ هذا المبحث عبارة عن نتائج لما تمَّ ذكره في الفصل، تكشف عن طريقة تعامل الزمخشري مع أسلوب التقديم والتأخير، وبما أنَّ تفسير الكشاف من التفاسير البلاغية الموجزة، فجاءت عبارته مقتضبة، ولم ييسط الشرح في تحليله للأساليب البلاغية ومنها أسلوب التقديم والتأخير. والنتائج المذكورة هنا ناجمة عن استقراء لمواضع التقديم والتأخير في سورتي هود والنساء من خلال تفسير الكشاف.

- الخطوط العامة لتناول الزمخشري لأسلوب التقديم والتأخير:

- يشير الزمخشري أحياناً إلى موضع التقديم والتأخير في الآية دون أن يبيِّن الغرض البلاغيَّ منه، وإنما يحلِّله تحليلاً نحوياً فقط.
- وقد يفسِّر الآية، ويبين دلالة التقديم والتأخير فيها، دون أن يصريح بذكر الأسلوب.
- لم يصريح بذكر آراء غيره من العلماء، أو يناقشها، في تحليله لمواضع التقديم والتأخير.
- لم يذكر الزمخشري ما يتعلَّق بالتشابه اللفظي في الآيات، فقد يتقدَّم لفظ في آية ويتأخَّر في أخرى، فلم يُشر إلى بلاغة هذا الأمر (على الأقل في سورتي هود والنساء).
- إنَّ اهتمام الزمخشري بالفاصلة القرآنية لم يتجلَّ على نحو كبير، فلم يُشر إلى هذا الغرض رغم كثرة مواضعه.

- وكذلك لم يهتم كثيراً ببيان التناسب بين الآيات المتتابعة في السورة الواحدة، ولا بين مقاطع السورة، والتي يظهر به الوجه البلاغي في نظم السورة، والحكمة وراء ترتيب الآيات على النحو الذي هي عليه.

- آراء الزمخشري في التقديم والتأخير والأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب عنده:

- يرى الزمخشري أنَّ تقديم المسند إليه (الضمير) يفيد التخصيص.
- أجاز الزمخشري تقدُّم الظرف على عامله، وهذا ما ذهب إليه البصريون.
- ينظر الزمخشري أحياناً إلى الترتيب بين المعطوفات في الآية ويذكر دلالة.
- يرى الزمخشري أنَّ ما بعد النفي هو المخصوص بالنفي، والكلام متجه إليه، وهو موافق بهذا لرأي الجرجاني فيه.

- من لطائف تحليله لهذا الأسلوب شرحه لدلالة كلمة (التقدُّم) في القرآن الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، يقول الزمخشري: "أي: كما كان قدوة لهم في الضلال، كذلك يتقدَّمهم إلى النار وهم يتبعونه"^(١)

- من الأغراض البلاغية لأسلوب التقديم والتأخير التي ذكرها الزمخشري في سورتي هود والنساء: الاهتمام، التخصيص، التوكيد، الحث والحض على المقدم، التوبيخ والتبكيث، التهديد والوعيد، الزجر عن المقدم، بيان الأفضلية، التناسب المعنوي، تقديم السبب على المسبب، السبق بالحدوث، السبق بالأكثرية.

الفصل الثالث: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند ابن عاشور:

- تمهيد: التعريف بابن عاشور وتفسيره.
- المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في التحرير والتنوير.
- المبحث الثاني: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود.
- المبحث الثالث: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.
- المبحث الرابع: كيفية تعامل ابن عاشور مع أسلوب التقديم والتأخير.

تمهيد: التعريف بابن عاشور وتفسيره:

أولاً: التعريف بابن عاشور:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، المالكي التونسي الأندلسي الأصل.

- مولده ونشأته:

وُلد ابن عاشور في تونس سنة (١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م)، في أسرة علمية معروفة، لها مكانتها في البلاد، فجده لأبيه محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٢٨٤هـ)، كان عالماً مجتهداً قاضياً، تولّى الإفتاء، والتدريس، وكان مشرفاً على الأوقاف، وعضواً بمجلس الشورى، له مؤلفات عديدة، منها: (شفاء القلب الجريح) في شرح البردة، و(هداية الأريب) حاشية على قطر الندى^(١)، ومن تلامذته من أصبح من شيوخ الزيتونة وعلمائها، وأحدهم جد المفسّر لأئمّه الشيخ الوزير محمد العزيز بوعتور (ت ١٣٢٥هـ)^(٢)، الذي ولد ابن عاشور في قصره في تونس. نشأ ابن عاشور وترعرع في بيئة عائلية كريمة، بين العلماء والوجهاء، فحفظ القرآن الكريم في السادسة من عمره، وشرع في حفظ المتون العلمية، كمتن الأجرومية في النحو، ومتن ابن عاشور في الفقه المالكي^(٣).

- مكانته العلمية:

التحق ابن عاشور بجامع الزيتونة فنهل من معينه، وتتلّمذ على علمائه. درس النحو والبلاغة، واللغة، والمنطق، وعلم الكلام، والفقه، وأصوله، واللغة الفرنسية وغيرها من مختلف العلوم. ثم انتقل إلى التدريس في الجامع، وكان مهتماً بالإصلاح والتجديد، أدخل بعض التعديلات على التعليم في جامع الزيتونة، فقسم التعليم إلى ثلاث مراحل، وعيّن لكل حصّة مدرّسها ووقتها، فلا يتجاوز المدّرس، وأضاف مواداً دراسية جديدة، كالكيمياء، والفيزياء، والجبر، وغيرها^(٤).

ولعلمه الوفير وفكره الثاقب تولّى مناصب عدة في حياته، فعين نائباً أول للحكومة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة، وعضواً في لجنة تنقيح برامج التعليم، وتسلم منصب كبير أهل الشورى،

١- ينظر: الأعلام، الزركلي ٦/ ١٧٣.

٢- ينظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، ط ١ (دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٦م) ص ٣٥ - ٣٦.

٣- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد خالد الطباع، ط ١ (دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م) ص ٢٥.

٤- ينظر: شيخ الجامع الأعظم، بلقاسم الغالي، ص ٣٧ - ٣٨، ومحمد الطاهر ابن عاشور، إياد خالد الطباع، ص ٢٨، ٨٠.

ومنصب شيخ الإسلام المالكي، وعيّن شيخاً للجامع الأعظم، ثمّ عميداً للجامعة الزيتونية، وانتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق^(١).

"وهبه الله متانة علم، وسعة ثقافة، وعمق نظر، وقدرة لا تفتر عن التدوين والنشر، وملكات نقدية يتّضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتفريعات، وما يلحق بها من تصرفات وإبداعات. وهكذا صدرت مقالاته وتحقيقاته... فنُشر منها مائتشر، وبقي الكثير منها محفوظاً بخزانة آل عاشور ينتظر من يتولّى نشره وطبعه وتحقيقه"^(٢) وكان أوّل من فسّر القرآن الكريم كاملاً في إفريقية، وذلك في تفسيره (التحرير والتنوير)، وأعاد الحياة في التصنيف في المقاصد الشرعية. من مؤلفاته: (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(أليس الصبح بقريب) في الإصلاح والتجديد التعليمي، و(شرح ديوان الحماسة) و(مقاصد الشريعة الإسلامية) و(موجز البلاغة) وغيرها الكثير^(٣).

- شيوخه وتلامذته:

تلقّى محمد الطاهر ابن عاشور العلم منذ نعومة أظفاره، فجالس العديد من العلماء، منهم:

- ١- محمد العزيز بوعتور (ت ١٣٢٥هـ)^(٤): وهو جدّه لأمه، نشأ الشيخ ابن عاشور تحت رعايته، فلقّنه القرآن الكريم، ولشدّة اهتمام جدّه به، دوّن له بخط يده مجموعاً فريداً من عيون الأدب، وبدائع النظم والنثر، ومصنفات في الحديث والبلاغة، وفتح له خزانة كتبه، تشجيعاً له وحبّاً فيه^(٥).
- ٢- الشيخ عمر بن الشيخ (ت ١٣٢٩هـ)^(٦): أخذ عنه ابن عاشور (المواقف) للإيجي، و(تفسير البيضاوي)^(٧).

١- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إيداد خالده الطباع، ص ٥٠-٥٥.

٢- شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الحبيب ابن الخوجة، د. ط (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م)، ١ / ٣١٥.

٣- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إيداد خالده الطباع، ص ٧٨-٧٩، ٩٢-٩٤.

٤- هو محمد العزيز بن محمد الحبيب بوعتور الصفاقسي التونسي، الوزير العالم، كان كاتباً خاصاً لأسرار الملك، وعضو مجلس الشورى، كان من العاملين في تأسيس جمعية الأوقاف، وفي تنظيم المحاكم الشرعية. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦ / ٢٦٧-٢٦٨.

٥- ينظر: شيخ الجامع الأعظم، بلقاسم الغالي، ص ٤٠-٤١، وشيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الحبيب ابن الخوجة، ١ / ١٥٧.

٣- الشيخ سالم بوحاجب (ت ١٣٤٣هـ)^(٣): قرأ عليه ابن عاشور صحيح البخاري، والموطأ، وأجازة الشيخ سالم بجميع محفوظاته وملحوظاته^(٤).

وكما مرَّ سابقاً فقد أمضى الشيخ وقته ونذر حياته للعلم والتدريس، وعمل على تطويره فكان له تلاميذ كثر، قصدوا الزيتونة واستمعوا لدروسه ونهلوا من علمه، منهم:

١- محمد الفاضل ابن عاشور (ت ١٣٩٠هـ): الكاتب الأديب المفكر، وهو ابن الإمام محمد الطاهر بن عاشور، درّس بجامع الزيتونة، وأصبح معيداً فيه، تولّى منصب مفتي الجمهورية، وهو عضو بمجمع اللغة بالقاهرة، ورابطة العالم الإسلامي بمكة، له عدد من المؤلفات، منها: (أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي) و(التفسير ورجاله)^(٥).

٢- محمد الصادق بن محمد الشطي (ت ١٣٦٤هـ): وهو فقيه فَرَضِي، درّس بالزيتونة، وله كتاب (روح التربية والتعليم) و(لباب الفرائض)^(٦).

هذا هو العالم الجليل المتواضع، كريم الأخلاق، عالي الهمة، ذو الفكر النير والقلم السديد، توفي في تونس سنة (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)^(٧) مخلفاً وراءه مكتبة زاخرة بالعلم، رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه.

١- هو الشيخ المعروف بـ (سيدي عمر) وُلد بقرية (الماتلين) من عمل بنزرت، تلقّى العلم على كبار الأساتذة، ثمّ تصدّر للتدريس في الزيتونة، واشتهرت دروسه بفائدتها وقيمتها العظيمة، لم يعن بأمر التأليف إلا ما دَوَّنه تلامذته من فوائد وشروح في مجالسه. ينظر: شيخ الجامع الأعظم، بلقاسم الغالي، ص ٤٢-٤٣.

٢- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إيداد خالد الطباع، ص ٣٤-٣٥.

٣- هو فقيه محقق، ولغوي أديب شاعر، ملّم بطرف من التاريخ والجغرافية والرياضيات، كان على اتصال بكبار علماء عصره، وأبرز رجال السياسة، كان مدرّساً بالزيتونة، وشارك في تحرير جريدة الحاضرة. ينظر: شيخ الجامع الأعظم، بلقاسم الغالي، ص ٤٤، ومحمد الطاهر ابن عاشور، إيداد الطباع، ص ٣٠-٣٣.

٤- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إيداد خالد الطباع، ص ٣٠-٣٣.

٥- ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦/ ٣٢٥.

٦- ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦/ ١٦٢، ومحمد الطاهر ابن عاشور، إيداد خالد الطباع، ص ٤٤-٤٩.

٧- ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦/ ١٧٣-١٧٤، وقيل كانت وفاته سنة (١٣٩٤هـ) ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إيداد الطباع، ص ٨٧.

ثانياً: التعريف بالتحريـر والتنوير:

(تحريـر المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد)، هكذا سَمَّى ابن عاشور تفسيره، واختصره بالاسم المشهور: (التحريـر والتنوير من التفسير)^(١).

وقد نُشر أوَّلُه على شكل مقالات في المجلة الزيتونية، وطُبِع كاملاً سنة ١٩٨٤م، في الدار التونسية بتونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر في ثلاثين جزءاً^(٢).

وحالُ ابن عاشور في تأليفه للتفسير كحال غيره من كثير من المفسرين، تردّد بين توق نفسه للتأليف، ووجله من عِظم ما يرنو إليه، إلى أن هَيَّأ الله تعالى له الأسباب، هَمَّة النفس ووفرة الوقت، ويصف ذلك بقوله: "فبقيت أسوِّف النفس مرّة، ومرّة أسومها زجراً، فإن رأيت منها تصميماً أحلتها على فرصة أخرى، وأنا آمل أن يُمنح من التيسير ما يشجّع على قصد هذا الغرض العسير. وفيما أنا بين إقدام وإحجام، أتخيّل هذا الحقل مرّة القتاد وأخرى الثُّمام"^(٣). إذا أنا بأملِي قد خيّل إليّ أنّه تباعد أو انقضى، إذ قدّر أن تُسند إليّ خطّة القضاء"^(٤) ويمضي في سرده فتشعر معه بكلّ بارقة أمل تنير في مستقبل هذا الحلم، وكلّ صعوبة تتعرّ لك في طريقه، وبعلوّ الهمة وصدق العمل، حين يأتي العون من الله **وَجَلَّ**، ف"ما يهول من توقّع كلّ أو غلط، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط [يقصد التفسير]، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد، وتوخيت طرق الصواب والسداد"^(٥) فبدأ بمحاضرات يفسّر فيها كتاب الله الكريم، ويبحر في معانيه، ويغوص بحثاً عن لآئِه، يعلم فيها طلبته من الدراسات العليا ومن يحضر مجلسه من شيوخ ومدّسين، يعلمهم طريقة فهم كلام الله وتذوّق معانيه، بفكر متمكّن مما سبق منفتح على ما يمليه عليه عصره وزمانه^(٦).

١- ينظر: التحريـر والتنوير، ١/ ٨ - ٩.

٢- ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، إِياد الطباع، ص ١٠٤.

٣- يشير بالقتاد إلى صعوبة الأمر وبالثُّمام إلى السهولة، فالقتاد، هو: الشوك، ولذلك يقال لما عَزَّ وصُعِب: دونه خُط القتاد، وأمّا الثُّمام، فهو: نبت قصير سهل التناول، فصار مثلاً لما سهّل تناوله. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (قتد) ٥/ ٣٥٢٥، ومادة (ثَمَمَ) ١/ ٥٠٧، والتقريب لتفسير التحريـر والتنوير لابن عاشور، محمد بن إبراهيم الحمد، د. ط (دار ابن خزيمة، د. ت) حاشية ١/ ٩٢.

٤- التحريـر والتنوير، ١/ ٦.

٥- التحريـر والتنوير، ١/ ٦.

٦- ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الحبيب ابن الخوجة، ١/ ٣١٨.

افتتح الشيخ تفسيره بعشر مقلّـمات حوت من فنون علم التفسير الشيء الكثير، فكانت عوناً للباحث في التفسير، تناول فيها ما يلي:

المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً.

المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير.

المقدمة الثالثة: في صحّة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير بالرأي ونحوه.

المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر.

المقدمة الخامسة: في أسباب النزول.

المقدمة السادسة: في القراءات.

المقدمة السابعة: في قصص القرآن.

المقدمة الثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره، وترتيبها وأسمائها.

المقدمة التاسعة: في أنّ المعاني التي تتحمّلها جمل القرآن تعتبر مرادة بها.

المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن.

ابتدأ تأليفه سنة (١٣٤١هـ) وفرغ منه سنة (١٣٨٠هـ)، فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر. واختتمه بقول يوضّح فيه ضرورة خدمة كلام الله تعالى، وفهمه والسعي في إفهامه للناس، والتهيؤ لهذا الغرض النبيل بالهمم المتجددة الوقّادة، ف"إنّ كلام ربّ الناس حقيقٌّ بأن يُخدم على الراس، وما أدّى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإنّ قلمي طالما استنّ بشوط فسيح، وكم زُجر عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حقّ له أن يستريح"^(١).

- منهجه في التفسير:

كان ابن عاشور رائد الإصلاح في عصره، فلا عجب أن ينظر إلى التفسير نظرة المصلح، وأن يسعى إلى تقدمته لطلبة العلم بأفضل صورة يُرجى منها النفع والفائدة والهداية، فوقف موقف الحُكم بين طوائف المفسرين، وجعل من تفاسير القدماء زاداً له في مسيرته، فكان يناقش أقوالهم ويهذّبها، ينقد منها ما يراه مجانباً للصواب، ويؤيّد ما يوافق رأيه، بأسلوب علميٍّ رصين، ذلك لأنّ في "الاقتصار على الحديث المُعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاذ... والناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي

كلتا الحالتين ضُرَّ كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نَعْمِدَ إلى ما أشاده الأقدمون فنهْدَبَهُ ونزِيدَهُ، وحاشا أن ننقضه أو نبيده" (١).

فتفسير التراكيب القرآنية حسب ما يراه ابن عاشور يكون "جرياً على تبين معاني الكلمات القرآنية بحسب استعمال اللغة العربية، ثم أخذ المعاني من دلالة الألفاظ والتراكيب وخواص البلاغة، ثم استخلاص المعاني المدلولة منها بدلالات المطابقة والتضمن والالتزام^٢، مما يسمح به النظم البليغ، ... ثم نقل ما يؤثر عن أئمة المفسرين من السلف والخلف مما ليس مجافياً للأصول ولا للعربية، [مع تجنب] الاستطراد والاندفاع في أغراض ليست من مفادات تراكيب القرآن" (٣).

فكلام الله ﷻ عربي، وفهمه يبدأ من فهم اللغة العربية، وأساليب الكلام فيها، بما يتوافق مع نظم القرآن البديع، ثم النظر في أقوال المفسرين وتقييمها، مع تخلص التفسير مما لا فائدة منه ولا صلة وثيقة له بالآية المفسرة، حتى لا تغدو الآيات القرآنية كعناوين لمقالات صحفية، فلا بدّ من التفريق بين مدلولات التراكيب، وما ليس منها في شيء (٤).

وأمثلة ذلك في تفسيره كثيرة، منها:

فمن تركيزه على الاستعمال العربي للألفاظ، حديثه عن معنى (السبيل) في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فشرعية الله تعالى التي بعث بها الرسل، هي "المعبر عنها بالسبيل على وجه الاستعارة، لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد، كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر، وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب" (٥).

١ - التحرير والتنوير، ١ / ٧.

٢ - دلالة المطابقة، هي: دلالة اللفظ على تمام معناه الحقيقي أو المجازي، وتبيّت مطابقة: للتطابق الحاصل بين معنى اللفظ، وبين الفهم الذي استُفيد منه. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن الميداني، ط ١٢ (دار القلم، دمشق، ٢٠١١م) ص ٢٨.

دلالة التضمن، هي: دلالة اللفظ على جزء معناه الحقيقي أو المجازي، وتبيّت دلالة تضمن لأن جزء المعنى قد فهم ضمن فهم تمام المعنى، إلا أن المقصود هو جزء المعنى لا تمامه. ينظر: ضوابط المعرفة، الميداني، ص ٢٨ - ٢٩.

دلالة الالتزام، هي: دلالة اللفظ على معنى خارج عن معناه الحقيقي أو المجازي، إلا أنه لازم له عقلاً أو عرفاً، وتبيّت دلالة التزام، لأن المعنى المستفاد لم يدل عليه اللفظ مباشرة، وإنما معناه يلزم منه عقلاً أو عرفاً. ينظر: المرجع السابق، ص ٢٩.

٣ - أليس الصبح بقريب، محمد الطاهر ابن عاشور، ط ١ (دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٦م) ص ١٦٥.

٤ - ينظر: أليس الصبح بقريب، ابن عاشور، ص ١٦٥.

٥ - التحرير والتنوير، ١٣ / ٦٥.

وأيضاً في حديثه عن معنى (الإلهام) في قوله تعالى: ﴿فَالْهَمُّهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، ذكر كلام الراغب: بأنَّ "الإلهام: إيقاع الشيء في الرُّوع، ويختصُّ ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملاء الأعلى"^(١) ثمَّ قال: "ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن، يكن مما أحياه القرآن، لأنَّه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية، وقليلٌ رواج أمثال ذلك في اللغة قبل الإسلام، لقلَّة حُطور مثل تلك المعاني في مخاطبات عامَّة العرب"^(٢).

إنَّ مسيرة ابن عاشور العلمية والثقافية، وحسه الأدبي الرفيع، وبلاغته الفدَّة، وعبارته الرصينة، لا بدَّ وأن تثمر تفسيراً عظيماً، يستنبط دقائق المعاني، ويستخرج بدائع النكت واللطائف، فسار في تفسيره على النحو الذي بيَّنه في مقدِّمته:

- اهتَمَّ ببيان وجوه الإعجاز، والنكت البلاغية، أيَّما اهتمام.
- وسعى إلى بيان المناسبات بين الآيات، ولم يرَ ضرورة تلجئ المفسِّر إلى بيان التناسب بين سور القرآن الكريم.
- اهتَمَّ بتحليل الألفاظ، وتبيين معاني المفردات.
- وحرَّص على بيان الأغراض التي تشتمل عليها كل سورة، واستنباط الفوائد وربطها بحياة المسلمين.
- واستخلص العبر من القرآن الكريم، لتكون سبباً في النهوض بالأمة^(٣).
- وقد اعتنى ابن عاشور بأقوال المتقدمين، فكان حكماً على التراث كما أراد، يناقش أقوال المفسرين، ويختار منها ما يراه صواباً، ويبين بطلان غيره من الأقوال، بالإضافة إلى ما يضيفه من نكات ولفظات بلاغية قيِّمة، فكان تفسيره، "فيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير"^(٤).

١- المفردات في غريب القرآن، ص ٧٤٨.

٢- التحرير والتنوير، ٣٠ / ٣٦٩ - ٣٧٠.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ١ / ٨، والتقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، محمد بن إبراهيم الحمد، د. ط (دار ابن خزيمة، د. ت) ١ / ٣٩.

٤- التحرير والتنوير، ١ / ٨.

أما طريقته في العزو، فثلاث حالات:

١- أن يعزو إلى القائل، دون ذكر الكتاب.

٢- أن يعزو إلى القائل وكتابه.

٣- أن يُبهم المصدر: فيقول (قيل)، (بعض المفسرين)، وهذا حين يكون القول ضعيفاً^(١).

مثال الأول: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وحديثه عن معنى (كافّة) قال: "قال الزمخشري: وحق التاء على هذا التفسير، أن تكون للمبالغة كتاء العلامة والراوية"^(٢)، فابن عاشور هنا نقل عن الزمخشري كلامه، دون أن يحيل إلى اسم الكتاب.

ومثال الثاني كثير في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيْنَهُ﴾ [البقرة: ٢١١] يقول: "وجوّز التفتازاني^٣ في شرح الكشاف أن جملة (كم آتيناهم) بيان للمقصود من السؤال، أي سلّمهم جواب هذا السؤال، قال السلوكوتي^(٤) في حاشية المطول: فتكون الجملة واقعة موقع المفعول، أي ولا تعليق في الفعل"^(٥).

ومثال الإبهام: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، حيث قال: "فجملة (فزادهم الله مرضاً) خبرية معطوفة على قوله (في قلوبهم مرض)، واقعة موقع

١- ينظر: أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)، أطروحة دكتوراه إعداد الطالب: مشرف الزهراني، إشراف الدكتور: أمين محمد عطية باشه، جامعة أم القرى، كلية أصول الدين، قسم الكتاب والسنة. ص ١٤٣-١٤٦.

٢- التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٩٨، والكشاف ٢/ ٩٧١.

٣- التفتازاني، هو: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، من علماء العربية والبيان والمنطق، من مؤلفاته: حاشيته على الكشاف، و(المطوّل) في البلاغة، و(المختصر) اختصر به شرح تلخيص المفتاح، و(تهذيب المنطق)، وغيرها، توفي سنة ٧٩٣هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٧/ ٢١٨، ومعجم المفسرين، ٢/ ٦٧٠.

٤- السيلالكوتي، هو: عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي، له العديد من الحواشي، منها: حاشية على تفسير البيضاوي، و(زبدة الأفكار) حاشية على شرح العقائد النسفية، وحاشية على المطول في البلاغة، وغيرها، توفي سنة ١٠٦٧هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٣/ ٢٨٣، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ١/ ٢٥٨.

٥- التحرير والتنوير، ٢/ ٢٨٨.

الاستئناف للبيان^١، ... وقال بعض المفسرين: هي دعاء عليهم... وهو تفسير غير حسن، لأنه خلاف الأصل في العطف بالفاء، ولأنَّ تصدِّي القرآن لشتتهم بذلك ليس من دأبه^(٢).

- مصادره في التفسير:

اهتمَّ ابن عاشور بالتحقيق والتدقيق والتوثيق، فكان يرجع في كلِّ معلومة إلى مظانِّها، وتنوعت مصادره ما بين مطبوع ومخطوط، ومسموع، فقد كان ينقل أحياناً مسموعاته عن أساتذته^(٣)، من ذلك ما ذكره في بيان الجدل المحرَّم في الحجِّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فقال: "واتفق العلماء على أنَّ مدارس العلم والمناظرة فيه، ليست من الجدل المنهي عنه، وقد سمعت من شيخنا العلامة الوزير، أنَّ الزمخشري لمَّا أتمَّ تفسير الكشاف وضعه في الكعبة في مدَّة الحجِّ، بقصد أن يطالعه العلماء الذين يحضرون الموسم، وقال: من بدا له أن يجادل في شيء فليفعل، فزعموا أنَّ بعض أهل العلم اعترض عليه قائلاً: بماذا فسَّرت قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، وأنَّه وجَّه لها، وأنا أحسب إن صحَّت هذه الحكاية، أنَّ الزمخشري أعرض عن مجابته، لأنَّه رآه لا يفرِّق بين الجدل الممنوع في الحجِّ وبين الجدل في العلم^(٤).

ومن تلك المصادر، ما صرَّح بها في مقدِّمته حين قال: "وإنَّ أهمَّ التفاسير (تفسير الكشاف) و(المحرر الوجيز) لابن عطية، و(مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي...، وتفسير الشهاب الألوسي^(٥)، وما كتبه الطَّبِّي والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف^(٦)، وما كتبه

١ - الاستئناف البياني، هو: الإتيان بعد تمام كلام بقول يُفهم منه جواب سؤال مقدَّر. كقولك: أكرم زيداً فزيداً أهل الإكرام، أو أكرم زيداً صديقك الصدوق، كأنَّه توهم أنَّ قائلاً يقول له: لم يكرم زيد؟ فكان استئنافه كالجواب لذلك. معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ١ / ١٠١. والجملة المستأنفة بيانياً، هي: الجملة التي تفيد بياناً أو تفصيلاً أو رفعاً للبس نشأ في جملة سابقة. مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، شوقي البوعناني، ط ١ (مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، ٢٠١٨م) ص ٧٨٥.

٢ - التحرير والتنوير، ١ / ٢٨٢.

٣ - ينظر: أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)، أطروحة دكتوراه إعداد الطالب: مشرف الزهراني، ص ١٠٠.

٤ - التحرير والتنوير، ٢ / ٢٣٥.

٥ - هو محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الشاء، من أهل بغداد وُلِدَ وتُوفِّي فيها، كان مفسِّراً، ومحدِّثاً، وأديباً، ولغوياً، له عدَّة مصنفات، منها: تفسيره (روح المعاني)، وله (دقائق التفسير)، و(حاشية على شرح القطر) في النحو،

الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي^(٢)...^(٣). وغيرها من التفاسير التي سردها.

وإنَّ الناظر في التحرير والتنوير، يرى سعة اطلاع ابن عاشور وغزارة علمه ومعرفته، من خلال ما يعزو إليه من مصادر في شتى المجالات، فمن المعاجم: جمهرة اللغة، والصحاح، والقاموس المحيط، ولسان العرب، وتاج العروس، وأساس البلاغة، والمفردات للراغب الأصفهاني. ومما رجع إليه في النحو والصرف: الكتاب، وشرح المفصل لابن يعيش^٤، والمفصل للزمخشري، ومغني اللبيب.

وفي البلاغة: دلائل الإعجاز، ومفتاح العلوم، والتلخيص، والإيضاح، وغير هذا الكثير^(١).

وله (مقامات) في التصوُّف والأخلاق، توفي سنة ١٢٧٠هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٧٦ / ٧، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٦٦٥ / ٢.

١- القزويني، هو: عمر بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الفارسي، سراج الدين، أبو حفص، كان مفسراً، مشاركاً في بعض العلوم، من مؤلفاته: حاشيته على الكشاف (الكشف على الكشاف) توفي شاباً سنة ٧٤٥هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٤٩ / ٥، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٣٩٦ / ١.

٢- الخفاجي، هو: أحمد بن محمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجي المصري، كان طبيباً فقيهاً أديباً، له مصنّفات عدّة، منها: (عناية القاضي وكفاية الرازي) حاشيته على تفسير البيضاوي، وله (شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل)، وغيرها، توفي سنة ١٠٦٩هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٢٨٣ / ١، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٧٥ / ١.

أبو السعود، هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، كان مفسراً، أصولياً شاعراً عارفاً باللغات لعربية والفارسية والتركية، من فقهاء الحنفية، من مؤلفاته: تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، وله (تحفة الطلاب) في المناظرة، و(رسالة في المسح على الخفين) وغيرها، توفي سنة ٩٨٢هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ٥٩ / ٧، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ١ / ٧٥.

القرطبي، هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، كان متبحراً في العلم، من مؤلفاته: (الجامع لأحكام القرآن) في التفسير، وله (التذكار في أفضل الأذكار)، وله (الأسنى في الأسماء الحسنى)، توفي سنة ٦٧١هـ. ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، ٢٢٩ / ١٥، والأعلام، الزركلي، ٣٢٢ / ٥، ومعجم المفسرين، عادل نويهض، ٤٧٩ / ٢.

٣- التحرير والتنوير، ٧ / ١.

٤- هو: يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا، موفق الدين الأسدي، أبو البقاء، من كبار علماء العربية، من مؤلفاته: شرح المفصل للزمخشري، وشرح التصريف لابن جني، توفي سنة ٦٤٣هـ. ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٤ / ٤٩٠ - ٤٩١، والأعلام، الزركلي، ٢٠٦ / ٨.

– أثر التفسير فيمن بعده:

لقد كان للتحرير والتنوير صيت واسع بين طلبة العلم عموماً، والمختصين بالدراسات القرآنية واللغوية على وجه الخصوص، ولكونه تفسيراً معاصراً مبنياً على الشرح والتطوير، فقد اتجهت إليه أنظار الباحثين بالدراسة والتمحيص، فقامت العديد من الرسائل العلمية على دراسته، وأقام المعنيون بفكر الشيخ الطاهر ابن عاشور مؤتمرات دولية لتسليط الضوء على جهوده وتراثه ومنهجه العلمي^(٢)، ومن الرسائل الجامعية:

١- أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، أطروحة دكتوراه للباحث مشرف الزهراني، إشراف الدكتور: أمين محمد عطية باشه، جامعة أم القرى، كلية أصول الدين، قسم الكتاب والسنة، سنة (١٤٢٧هـ).

٢- الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسيره التحرير والتنوير (المعاني والبديع)، رسالة ماجستير للباحثة رانية الشوبكي، إشراف الدكتور: محمد شعبان علوان، الجامعة الإسلامية - غزة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، سنة (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٣- مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، أطروحة دكتوراه للباحث شعيب الغزالي، إشراف الدكتور: عبد الحافظ البكري، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، سنة (١٤٣٤هـ - ١٤٣٥هـ).

وما يزال الباحثون حتى اليوم يصبّون جهدهم، ويُفرغون وُسْعهم في دراسة هذا التفسير العظيم، وهذه الدراسة واحدة من تلك الجهود النيرة التي تحاول الاستفادة والاستزادة من التحرير والتنوير.

١- ينظر: أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)، أطروحة دكتوراه إعداد الطالب: مشرف الزهراني، ص ١٠٢ - ١٣٨.

٢- مثل مؤتمر: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر (رؤية معرفية ومنهجية)، نظّمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي في العاصمة المغربية الرباط، بالتعاون مع شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، في (٢ / ٣ / ٢٠٠٩م)، وأيضاً المؤتمر الدولي الذي أقامته جامعة الزيتونة حول الشخصية التأسيسية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور مشروع الإصلاح الديني العميق لتونس اليوم، والمؤتمر الدولي الأول حول المفسرين المغاربة المعاصرين، في (٢ / ماي / ٢٠١٣م)، كان الحديث عن ابن عاشور أحد محاوره.

المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في التحرير والتنوير:

يُعَدُّ تفسير التحرير والتنوير من التفاسير التي اهتمت بالبلاغة القرآنية، فأبرزتها ووضّحتها على أحسن وجه، والإمام ابن عاشور، بقامته العلمية، وثقافته الواسعة، وأسلوبه الأسر، يتناول كلام الله ﷻ بالشرح والتبيين، محيطاً بجوانب الآية كافة، من لغة وصرف ونحو وبلاغة وأحكام، ومناسبة، وأسباب نزول، ولطائف بيانية، إلى غير ذلك من أمور، وكون موضوعنا عن التقديم والتأخير فستكلم هنا عن البلاغة على وجه العموم في هذا التفسير.

الإمام ابن عاشور العالم الموسوعي، حوى في تفسيره مجموعة من العلوم، وعند حديثه عن البلاغة في القرآن تجده البلاغي المحنك، شرح فأفهم، ووضّح فأبدع، اهتمَّ بالبلاغة بجميع فروعها. فالنظم القرآني عنده نظم فريد، "مبنيٌّ على وفرة الإفادة وتعدُّد الدلالة"^(١)، والجملة القرآنية لها عدة دلالات، وعلى المفسّر تبينها وتوضيحها، وهذه الدلالات هي:

١ _ **الدلالة الوضعية التركيبية:** وهذه تعود إلى أصل الوضع العربي، وقواعد النحو في تركيب الكلام.

٢ _ **الدلالة البلاغية:** وتظهر من خلال الكشف عن الأساليب البلاغية الواردة في الجملة القرآنية.

٣ _ **الدلالة المطوية:** وتعني: دلالة الكلام المذكور على كلام مقدّر، يُعرف بالقرينة^٢ المذكورة، كتقدير القول، وتقدير الصفة وغير ذلك.

٤ _ **دلالة الموقع:** فالجملة القرآنية بالنظر إلى ما قبلها وما بعدها، يكون لها دلالة تناسب ذلك الموقع، فقد تكون تعليلاً، وقد تكون للاستدراك، أو للتعريض، إلى غير ذلك من أغراض^(٣).

ذكر ابن عاشور هذه الأمور في مقدمته، وسعى إلى تطبيقها في تفسيره، فلننظر إلى نماذج من هذا التطبيق:

اهتمَّ بالالتفات، الذي هو: "نقل الكلام من أحد طرق التكلّم أو الخطاب أو الغيبة، إلى طريق آخر منها"^(١)، وعدّه من أعظم أساليب التفنن^(٢)، لما فيه من تحديد نشاط السامع، وزيادة إقبال

١ - التحرير والتنوير، ١ / ١١٠.

٢ - القرينة هي: أمر يشير إلى المطلوب، وهي إمّا حالية، أو معنوية، أو لفظية. التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢٣.

٣ - ينظر: التحرير والتنوير، ١ / ١١٠.

واهتمام. "تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه، تحاشياً من تكرُّر الأسلوب الواحد عدَّة مرارٍ، فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يملَّ من إعادة أسلوب بعينه" (٣).

ففي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٥]، التفات من الغائب إلى الخطاب، كان له أثر كبير على المعنى، فجسَّد الحالة النفسيَّة لتالي سورة الفاتحة المتدبِّر في معانيها، يقول ابن عاشور: "وما هنا التفات بديع، فإنَّ الحامد لمَّا حمِد الله تعالى، ووصفه بعظيم الصفات، بلغت به الفكرة منتهاها فتخيَّل نفسه في حضرة الربوبيَّة، فخطب ربَّه بالإقبال" (٤)، ورأى أيضاً ضرورة الالتفات لمناسبتة لموضوع الآيات فقال: "وما يزيد الالتفات وقعاً في الآية، أنَّه تخلَّص من الشَّاء إلى الدعاء ولا شكَّ أنَّ الدعاء يقتضي الخطاب، فكان قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، تخلُّصاً يجيء بعده ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]" (٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، التفات إلى الخطاب، من الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، وفي هذا الالتفات تهديد للكفَّار وتأكيد لعذابهم، فلا يطمعوا بشفاعة أعوانهم. يقول ابن عاشور: عدل "عن الغيبة إلى الخطاب، ارتقاء في المواجهة بالتهديد، حتَّى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة، فإنَّ ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة.... فالمعنى: وما منكم أحد ممن نُزِع من

١- التحرير والتنوير، ١/ ١٠٩.

٢- التفنُّن: اسم أطلقه ابن عاشور على أسلوب القرآن الكريم، الذي يظهر في بداعة تنقلاته من فنٍّ إلى فنٍّ بطرائق الاعتراض والتذييل، والإتيان بالمترادفات عند التكرير، تجنُّباً لثقل تكرير الكلِّم. ينظر: التحرير والتنوير، ١/ ١١٦.

٣- التحرير والتنوير، ١/ ١٧٩.

٤- التحرير والتنوير، ١/ ١٧٩.

٥- التخلُّص أو (حسن التخلُّص)، هو: أن ينتقل الشاعر أو الناثر من فنٍّ من فنون الكلام إلى فنٍّ آخر، أو من موضوع إلى موضوع آخر بأسلوب حسن مستطاب، وأحسنه ما لا يشعر المتلقِّي معه بالانتقال. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢/ ٥٦١. وقال ابن الأثير: التخلُّص، هو: "أن يأخذ مؤلِّف الكلام في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى غيره وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفْرِغُ إفراغاً". المثل السائر، ٢/ ٢٤٤.

٦- التحرير والتنوير، ١/ ١٧٩.

كلّ شيعة إلا واردٌ جهنّم، حتماً قضاءه الله، فلا مبدّل لكلماته، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم شفاعتهم، أو تمنعكم عزّة شيعيكم...^(١).

واهتمّ بالتقديم والتأخير، وبيّن أثره على المعنى، ووضّح بلاغته ولطائفه، كما سيظهر في المباحث القادمة، قال في مقدّمته: "وإنّ للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن، دقائق عجيبة كثيرة، لا يحاط بها"^(٢).

وترصدّ التشبيه^(٣) في القرآن فشرحه وبيّنه، وهو يراه من أقدم الفنون البلاغية، فيقول: "للتشبيه التمثيلي^(٤) الحظ الأوفى عند أهل البلاغة، ووجهه أنّ من أهمّ أغراض البلغاء وأولّها، باب التشبيه وهو أقدم فنونها، ولا شك أنّ التمثيل أخصّ أنواع التشبيه، لأنّه تشبيه هيئة بهيئة، فهو أوقع في النفوس وأجلى للمعاني"^(٥).

من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فالرياح الشديدة التي أصابت الشجر والنبات، لم تكن قويّة فقط، وإنّما كانت شديدة الحرارة، "فإطلاق لفظ (نار) على شدّة الحرّ تشبيه بليغ"^(٦).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا أَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، من النعم التي ذكرها الله على بني إسرائيل، أن

١- التحرير والتنوير، ١٦ / ١٤٩.

٢- التحرير والتنوير، ١ / ١١٠.

٣- التشبيه، هو: الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني أو أكثر، على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما، ولا يكون وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد. البلاغة العربية، الميداني، ٢ / ١٦٢، وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٣٣١، والإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ١٦٤، وجواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٢١٩.

٤- التشبيه التمثيلي، هو: التشبيه الذي يكون على شكل لوحة تصوّر أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفرد بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصورة العامّة. البلاغة العربية، الميداني، ٢ / ١٨٦. وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٣٤٦.

٥- التحرير والتنوير، ١ / ٢٤٤.

٦- التحرير والتنوير، ٣ / ٥٤.

جعلهم ملوكاً. يقول ابن عاشور في هذه الآية، أنها من باب التشبيه البليغ^(١)، أي: جعلهم كالملوك في تصرفهم في أنفسهم وسلامتهم من العبودية التي كانت عليهم، أو أنّ الفعل (جعلكم) في معنى الاستقبال، فيكون كالبشرى لهم، ولا تشبيه فيه حينئذ^(٢).

أمّا كلامه في التشبيه التمثيلي، وتحليله للصورة البيانية، فيجعلك لا تكتفي بسماع الكلمات، وإنما تراه أمامك صوراً تتحرك، ومن ذلك تحليله لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، يقول: "فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي، شُبِّهَتْ حالة كدِّهم في الأعمال، وحرصهم على الاستكثار منها، مع ظَنِّهم أنها تقرَّبهم إلى رضى الله، ثمَّ تبيَّن أنها لا تجديهم، بل يلقون العذاب في وقت ظَنِّهم الفوز، شَبَّهَ ذلك بحالة ظمآن يرى السراب فيحسبه ماء، فيسعى إليه، فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء، لم يجد ماء، ووجد هنالك غريماً يأسره، ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة"^(٣) ثمَّ عَقَّبَ على كلامه بأنَّ الحالة المشبَّهة تتكوَّن من محسوس ومعقول، أمّا الحالة المشبَّه بها فهي حالة محسوسة، أي تدخل تحت إدراك الحواس. وبهذا يكون قد قَرَّبَ المعنى المشبَّه، من المعنى المحسوس المشبَّه به، حتى يستطيع العقل تصوُّره.

وبالنظر إلى المحسنات البديعة^(٤)، فإنَّ ابن عاشور يرى ورودها في القرآن أكثر من ورودها في شعر العرب، حتَّى "صار — لحيثه نثراً — أدباً جديداً غزاً ومتناولاً لكلِّ الطبقات، وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب، حتى وصفوه بالسِّحر وبالشِّعر"^(٥).

وابن عاشور في تفسيره أشار إلى مختلف أنواع المحسنات، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، حيث

١- التشبيه البليغ، هو: التشبيه الذي حُذِفَتْ فيه أداة التشبيه ووجه الشبه. ينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٢٤٢.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ٦/ ١٦١.

٣- التحرير والتنوير، ١٨/ ٢٥١.

٤- هي التي يُقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها عن التعقيد المعنوي. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٢٥٥، وعلم البديع، عبد العزيز عتيق، د. ط (دار النهضة العربية، بيروت، د. ت) ص ٧٦.

٥- التحرير والتنوير، ١/ ١١٩.

قال: "وفي الآية محسن جناس الاشتقاق^(١) بين (البصائر) و(أبصر)، ... وفيها محسن المطابقة^(٢) بين قوله (أبصر) و(عمي)، وبين اللام [في (فلنفسه)] و(على) [في (فعلها)]"^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبَيِّلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]، جناس اشتقاق بين (ليحق) و (الحق)، وبين (يبطل) و (الباطل)، "وفيه دلالة على أن أصل مادة الحق هو فعل حق، وأن أصل مادة الباطل، هي فعل بطل"^(٤).

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، المقصود بالصراط المستقيم هنا، هو هدي القرآن الكريم، فباتباعه نجاة ووصول، "والمراد بالآيات آيات القرآن. ومن رشاقة لفظ الآيات هنا، أن فيه تورية^٥ بآيات الطريق التي يهتدي بها السائر"^(٦).

فابن عاشور في تعامله مع بلاغة القرآن الكريم، يذكر أثرها في المعنى، ويكتفي أحياناً بذكر الوجه البلاغي وشرحه. والحديث في البلاغة يطول ويطول فيلجى جهوده في أسلوب التقديم والتأخير في كل من سورتي هود والنساء.

١- الجنس، أو التجنيس: هو أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى. وجناس الاشتقاق أو (المستوفى)، هو: الجنس التام الذي يكون اللفظان المتشابهان فيه من نوعين مختلفين من أنواع الكلام، كأن يكون أحدهما اسماً والآخر فعلاً. البلاغة العربية، الميداني، ٢/ ٤٨٥، ٤٨٩. وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤٢٩.

٢- المطابقة، أو الطباق: هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاماً، ولا يُشترط كون اللفظين الدالين عليهما من نوع واحد كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيين فقط. البلاغة العربية، الميداني، ٢/ ٣٧٧. وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤٢٣، والإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٢٥٥.

٣- التحرير والتنوير، ٧/ ٤٢٠.

٤- التحرير والتنوير، ٩/ ٢٧١.

٥- التورية، هي: أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب ظاهر غير مراد، والآخر بعيد خفي هو المراد بقرينة، ولكنه ورى عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع لأوّل وهلة أنه مراد، وليس كذلك. جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٣٠١. وينظر:

الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٢٦٦.

٦- التحرير والتنوير، ٨/ ٦٣.

- المبحث الثاني: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود:

١- التقديم والتأخير على مستوى الآية القرآنية:

- ما يكون في جمل الآية وأجزائها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير: ذكر ابن عاشور عدة مواضع:

- في قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤]، تقدّم المعمول على عامله، والغرض: زيادة الاهتمام بالمقدّم، وتأكيدّه. فتقديم المجرور على عامله دلّ على الاهتمام بمسألة الرجوع بعد الموت، وتأكيدّها، إذ الكفار لا يعتقدون بها، فجاء أسلوب التقديم والتأخير هنا، يبيّن أهمية هذا الأمر ليضعوه في حسابهم. وأشار ابن عاشور، إلى أنّ التقديم هنا لم يفد الحصر، لأنّ المشركين لا يعتقدون بالبعث أصلاً، فضلاً عن أن يعتقدوا برجعهم إلى غير الله ﷻ، فقال: "وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتقوي، وليس المراد منه الحصر، إذ هم لا يحسبون أنّهم مُرجعون بعد الموت بله أن يرجعوا إلى غيره"^(١). وعند غيره أفاد التقديم معنى الحصر، فقد قال الرازي: "واعلم أنّ قوله: (إلى الله مرجعكم) فيه دققة، وهي أنّ هذا اللفظ يفيد الحصر، يعني أنّ مرجعنا إلى الله لا إلى غيره، فيدلّ هذا على أنّه لا مدبر ولا متصرف هناك إلا هو، والأمر كذلك أيضاً في هذه الحياة الدنيوية، إلا أنّ أقواماً اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعبّزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب، فظنّوا أنّهم في دار الدنيا قادرون على كل شيء، وأمّا في دار الآخرة فهذا الحال الفاسد زائل أيضاً، فلهذا المعنى بيّن هذا الحصر بقوله (إلى الله مرجعكم)"^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [إلا من رحمة ربك ولذلك خلقهم] [هود: ١١٨ - ١١٩]، تقدّم المجرور على عامله، والغرض من هذا التقديم: الاهتمام بعلة الخلق المذكورة في الآية، وهي سنة الاختلاف في الخلق، ولم يدل على القصر، إذ لو دلّ تقديم المجرور على قصر العلة من الخلق على الاختلاف، لحصل لبس بين هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذه الآية واضحة في جعل غاية الخلق هي العبادة، يقول ابن

١- التحرير والتنوير، ١١ / ٣١٩.

٢- مفاتيح الغيب، ١٧ / ٣١٧، وينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤ / ١٨٤، وروح المعاني، الألوسي، ٦ / ١٩٥.

عاشور: "وتقديم المعمول على عامله في قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ليس للقصر، بل للاهتمام بهذه العلة، وبهذا يندفع ما يوجب الحيرة في التفسير في الجمع بين الآيتين"^(١). ومنهم من جعل معنى قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: لثمرة الاختلاف، من كون فريق في الجنة، وفريق في السعير، فعندها يكون التقديم للحصر، ولا لبس بين هذه الآية وآية الذاريات^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠]، تقدّم المفعول (كلّا) على فعله (نقص)، وفي ذلك دلالة على الاهتمام بالمقدّم، وهيئة الأذهان لبيانه حتى يرسخ في الذهن، يقول ابن عاشور: "وانتصب (كلّا) على المفعولية لفعل (نقص) وتقديمه على فعله للاهتمام، ولما فيه من الإبهام ليأتي بيانه بعده فيكون أرسخ في ذهن السامع"^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿الْأَيُّومَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، تقدّم الظرف (يوم) على عامله (مصروفاً)، والغرض: تحقيق وقوع العذاب عليهم وتأكيده، يقول ابن عاشور: "وتقديم الظرف للإيماء بأنّ إتيان العذاب لا شكّ فيه حتى أنّه يوقّت بوقت"^(٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، تقدّم المجرور (على الله) على عامله (رزقها)، وأفاد القصر. فذكر ابن عاشور هذا وبين أثره على المعنى، فقد دلّ على أنّ الله وَحْدَهُ، قد تكفّل برزق كلّ دابّة في الأرض، يقول ابن عاشور: "وتقديم (على الله) قبل متعلقه، وهو (رزقها) لإفادة القصر، أي: على الله لا على غيره، وإفادة تركيب (على الله رزقها) معنى أنّ الله تكفّل برزقها ولم يهمله، لأنّ (على) تدلّ على اللزوم والحقوقية، ومعلوم أنّ الله لا يلزمه أحد شيئاً، فما أفاد معنى اللزوم فإنّما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له"^(٥). وعبرّ غيره بلفظ الحصر، قال فاضل السامرائي: "قدّم الخبر (على الله) على المبتدأ (رزقها) وذلك للحصر للدلالة

١- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٩٠.

٢- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٦ / ٢٢٧، وتفسير الألوسي، ٦ / ٣٥٧ - ٣٥٨.

٣- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٩١.

٤- التحرير والتنوير، ١٢ / ١١.

٥- التحرير والتنوير، ١٢ / ٥ - ٦، ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى معنى اللزوم الوارد، ونبّه إلى أنّ إيصال الرزق واجب على الله بما أوجبه هو على نفسه، وهو واجب بحسب وعده تعالى وتفضله وإحسانه. ينظر: تفسير الرازي، ١٧ / ٣١٨، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٦ / ١٢٤، وتفسير أبي السعود، ٤ / ١٨٦.

على أن رزقها عليه حصراً لا على غيره، ولو قال: (إلا رزقها على الله) لم يفد أن رزقها عليه حصراً^١، والمعنى واحد.

- وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْحَرُونَ﴾ [هود: ٣٥]، أفاد تقديم المجرور (عليّ) على عامله (إجرامي) القصر، فالرسول يحتاج قومه ويخبرهم بأنه لو كان كل ما جاء به من عند نفسه، فإنما تبعة ذلك تلحقه هو، ولا شأن لقومه به، فكفوا عن هذا الادعاء. يقول ابن عاشور: "وأمر النبي ﷺ أن يُعرض عن مجادلتهم بالدليل، لأنهم ليسوا بأهل لذلك، إذ أقيمت عليهم الحجّة غير مرّة فلم تغن فيهم شيئاً، فلذلك أجيبوا بأنه لو فرض ذلك، لكان تبعة افتراءه على نفسه لا ينالهم منها شيء. وتقديم (عليّ) مؤذن بالقصر، أي إجرامي عليّ لا عليكم، فلماذا تكثر ادعاء الافتراء كأنكم ستؤخذون بتبعته"^(٢).

- ويأتي التقديم والتأخير للدلالة على الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]، ففي كلا الموضعين دلّ تقديم المجرور على اختصاص الله ﷻ بالمذكور، ودلّ أيضاً على ملمح بلاغي أشار إليه ابن عاشور، هو: التعريض بفساد آراء الكفار، يقول: "وتقديم المجرورين... لإفادة الاختصاص، أي: الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض، لأنّ ذلك مما لا يشاركه فيه أحد، وإلى الله لا إلى غيره يُرجع الأمر كلّ، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحقّ أن يُعبد، ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يُفرد بالعبادة"^(٣)، وإلى معنى التخصيص أشار غيره من المفسرين أيضاً، فقال الألوسي: "أي أنّه سبحانه يعلم كل ما غاب في السماوات والأرض، ولا يعلم ذلك أحد سواه جل وعلا، وإليه لا إلى غيره عزّ شأنه يرجع الأمر"^٤. وعبرّ غيره بلفظ الحصر، قال السامرائي: "وقدّم الجار والمجرور (لله) للدلالة على الحصر، فإنّه لا يعلم الغيب إلا هو... وقدّم الجار والمجرور (إليه) ليدلّ على أنّ ذلك إليه حصراً لا إلى غيره"^٥ والمعنى واحد.

١- على طريق التفسير البياني، ٢٧ / ٣.

٢- التحرير والتنوير، ٦٤ / ١٢.

٣- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٩٤ - ١٩٥.

٤- روح المعاني، ٦ / ٣٦٠، وينظر: تفسير البضاوي، ٣ / ١٥٣، وتفسير أبي السعود، ٤ / ٢٤٩.

٥- على طريق التفسير البياني، ٣ / ٣٧٤ - ٣٧٥.

- وقد ينفي ابن عاشور دلالة التقديم والتأخير على الاختصاص، ويوضح أثره على المعنى. كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْدُ شُعَيْبٍ مَّا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَا رَهْطًا لَرَجْمَنَّاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، دلّ التقديم هنا على تحذير القوم لرسولهم شعيب عليه السلام من الاستمرار في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، فلا قيمة له عندهم. يقول ابن عاشور: "فمعنى ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أنك لا تستطيع غلبتنا، وقصدهم من هذا الكلام: تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه، بأنهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه،... وليس تقديم المسند إليه على المسند... بمفيد تخصيصاً ولا تقويّاً"^(١). ودار كلام غيره من المفسرين على إفادة هذا التقديم التخصيص، أي تخصيص شعيب بالكلام، وأنه لا مكانة له عندهم، بخلاف قومه ممن لم يؤمنوا به، ولا يتعارض التخصيص مع المعنى الذي أشار إليه ابن عاشور، فمعنى التهديد والزجر يتضح من التخصيص بالانتفاء^٢. قال البيضاوي: "﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فتمنعنا عزّتك عن الرجم، وهذا ديدن السفية المحجوج يقابل الحجج والآيات، بالسبّ والتهديد، وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أنّ الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأنّ المانع لهم عن إيدائه عزة قومه"^٣. وجاء في إرشاد العقل السليم: "﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ مكرم محترم حتى نمنع من رجمك، وإلّا نكفّ عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وإيلاء الضمير حرف النفي، وإن لم يكن الخبر فعلياً غير خال عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعل، لا سيما مع قرينة قوله (ولولا رهطك) كأنّه قيل: وما أنت علينا بعزير بل رهطك هم الأعزّة علينا"^٤.

- ويدلّ التقديم على تعظيم شأن المقدّم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئَةٍ﴾ [هود: ١٠٥]، فقد تقدّم الظرف (يوم) على فعله المتعلّق به (لا تكلم) وفي هذا دلالة على تعظيم هول ذلك اليوم، يقول ابن عاشور: "وجملة ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيئَةٍ﴾ مستأنفة ابتدائية، قدّم الظرف على فعلها للغرض المتقدم [تعظيم هول ذلك اليوم]، والتقدير: لا تكلم نفس حين يحلّ اليوم

١- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٥٠.

٢- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي أبو القاسم عون، ٣ / ١٠٢١ - ١٠٢٢.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣ / ١٤٦.

٤- تفسير أبي السعود، ٤ / ٢٣٦.

المشهود"^(١). وبهذا قال غيره من المفسرين، فقد جاء في البحر المحيط: "والمعنى: لا تكلم نفس حين يأتي ذلك اليوم إلا بإذن الله، وذلك من عظم المهابة والهول في ذلك اليوم"^٢

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير:

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، تقدّم المبتدأ (هو) على الخبر (أنشأكم) وأفاد القصر، "أي لم ينشئكم من الأرض إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره"^(٣). فلم يصرّح ابن عاشور بالقصر وقد فهم من كلامه، وصرّح به غيره، فقال الألوسي: "والمراد الحصر كما يفهمه كلام بعض الأجلة، كأن القوم لعدم أدائهم حقه سبحانه قد اعتقدوا أن الفاعل لذلك غيره تعالى، أو هو مع غيره فخطبوا على وجه قصر القلب أو قصر الأفراد بذلك"^٤، وقال أبو السعود: "أي هو كوّنكم وخلقكم منها لا غيره، قصر قلب أو قصر أفراد^٥، فإنّ خلق آدم عليه السلام منها، خلق لجميع أفراد البشر منها"^٦.

- ويرى ابن عاشور أنّ التقديم والتأخير دلالة نحوية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]، فهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥]، عطف مفردات، لا جُمْل، فعطف (إلى عاد) على (إلى قومه)، وعطف (أخاهم) على (نوحاً)، وتقدير

١- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٦٤.

٢- أبو حيان الأندلسي، ٦ / ٢٠٩، وينظر: تفسير الألوسي، ٦ / ٣٣٣.

٣- التحرير والتنوير، ١٢ / ١٠٨، وينظر: تفسير البضاوي، ٣ / ١٣٩.

٤- روح المعاني، ٦ / ٢٨٦. والحصر والقصر والتخصيص من الألفاظ المترادفة. ينظر: حاشية الدسوقي على مختصر السعد، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، ت: خليل إبراهيم خليل، د. ط (دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت) ٢ / ٣٠٦، وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ١ / ١٦٢.

٥- القصر، لغة: الحبس. واصطلاحاً: تخصيص شيء بشيء عبارة كلامية تدلّ عليه. وله عدة أنواع. قصر القلب، هو: أن يكون الكلام المشتتم على القصر موجّهاً لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه. وقصر الأفراد، هو: أن يكون الكلام المشتتم على القصر موجّهاً لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره مشاركة غير المقصور عليه في المقصور. البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١ / ٥٢٣، ٥٢٨، وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص ٩٩، وجواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ١٧٣.

٦- إرشاد العقل السليم، ٤ / ٢٢٠.

الكلام: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. "وتقديم المجرور للتنبيه على أَنَّ العطف من عطف المفردات لا من عطف الجمل، لأنَّ الجارَّ لا بدَّ له من متعلِّق" (١).

- وفي قوله تعالى: ﴿الْأَتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرِّمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢]، فقد قدَّم النذير على البشير ليتناسب المعنى مع ما جاء في أوَّل الآية الكريمة، من طلب ترك عبادة غير الله (ألا تعبدوا) فهذا يحتاج إنذاراً وردعاً، ثمَّ طلب عبادة الله بطريق الاستثناء (إلا الله) وهؤلاء يستحقون التبشير بالجنة. يقول ابن عاشور: "والجمع بين النذارة والبشارة لمقابلة ما تضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله بطريق النهي، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول، والبشارة ترجع إلى الجزء الثاني" (٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، تقدَّم الأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة، وهذا فيه ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى، وفيه تقديم ما هو أكثر أهمية، فالاستغفار اعتراف منهم بفساد فعلهم (عبادة الأصنام)، وهذا لا بدَّ منه حتى تصح التوبة، فكان مقدِّماً، يقول ابن عاشور: "و(ثمَّ) للترتيب الرتبي^٣، لأنَّ الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهمُّ من طلب المغفرة، فإنَّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمَّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام..." (٤).

١- التحرير والتنوير، ١٢ / ٩٤، وينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٦ / ١٦٦، وروح المعاني، الألوسي، ٦ / ٢٧٨. فهؤلاء أشاروا إلى أنَّ العطف عطف مفردات، وذكروا الكلام في هذه المسألة، إلا أنَّ ابن عاشور صرَّح بأنَّ التقديم هو الذي دلَّ على أنَّ العطف هو عطف مفردات، لا عطف جمل، فكان اهتمامه ببيان أثر التقديم والتأخير - خصوصاً في هذا المثال - أكثر من غيره من المفسرين.

٢- التحرير والتنوير، ١١ / ٣١٦.

٣- الترتيب الرتبي، هو: ذكر أوصاف شئ في موضوع واحد على ترتيبها في الخلقة الطبيعية. ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ١ / ٣٠٠.

٤- التحرير والتنوير، ١١ / ٣١٧، وفي موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، ينظر: ١٢ / ٩٦.

وأيضاً حصل التدرُّج والانتقال من الأدنى إلى الأعلى، في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤﴾ من دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]، فتحدّاهم أن يكيدوه، ثم ارتقى وزاد في التحدي بأن نهاهم عن التأخر في هذا الكيد^(١).

وكذلك فقد تدرّج الله في تقديم الحقائق للناس، فقدّم ما هو الأقرب إلى عقولهم ليصل بهم إلى الأبعد فيتلقّوه بالقبول، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ذكر أولاً أنّ الله رازق المخلوقات جميعاً، ثمّ أعقبها بذكر أنّه عالم بأحوالهم جميعاً لا تخفى عليه خافية، والأصل في الكلام أنّ قوله ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ معطوف على ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، إلا أنّه تأخّر في الذكر للغرض المذكور، يقول ابن عاشور: "فلأجل ذلك أحرّ الفعل المعطوف، لأنّ في التذكير بأنّ الله رازق الدوابّ التي لا حيلة لها في الاكتساب، استدلالاً على أنّه عليم بأحوالها، فإنّ كونه رازقاً للدوابّ قضيّة من الأصول الموضوعّة المقبولة عند عموم البشر، فمن أجل ذلك جعل رزق الله إياها دليلاً على علمه بما تحتاجه"^(٢). ومنهم من لم يجعلها كذلك، ولم ير في الآية تقديمًا وتأخيرًا، فقد قال الألوسي: "وجوّز في هذه الجملة أن تكون استئنافية بيانيّة، وأن تكون معطوفة على جملة (على الله رزقها)، داخلة في حيّز إلّا..."^(٣).

- وأسلوب التقديم والتأخير يبيّن ترتيب الأولويات، رأى ذلك ابن عاشور في تقديم طلب المغفرة على طلب الرحمة، في قوله تعالى: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فخلوص النفس من الآثام والمعاصي بالاستغفار يجعلها محلاً لرحمة الله ﷻ، يقول ابن عاشور: "طلب المغفرة ابتداءً، لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرحمة لأنّه إذا كان بمحلّ الرضى من الله، كان أهلاً للرحمة"^(٤).

- ويكون التقديم لتنبية السامع إلى الكلام، ليحمله محطّ اهتمامه، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلَهُوْا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، حيث قدّم النداء في الكلام على ما سيقولونه، ليتنبّه

١- ينظر: التحرير والتنوير، ١٢ / ١٠٠.

٢- التحرير والتنوير، ١٢ / ٥.

٣- روح المعاني، ٦ / ٢٠٥.

٤- التحرير والتنوير، ١٢ / ٨٨.

هود عليه السلام، ويهتم لكلامهم. يقول ابن عاشور: "وافتح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنه جدير بأن يتنبه له، لأنهم أنزلوه منزلة البعيد.. فنادوه" (١).

- وقد يكون تقديم النداء لترقيق النفوس، فتكون أكثر استجابة لما يليه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوْمَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، ف"افتتاح الكلام بالنداء وبأنهم قومه، ترقيق لنفوسهم عليه، لأنه يعلم تصلبهم في عادتهم الفظيعة" (٢).

- ويدلُّ التقديم على تعظيم المقدم ورفعة مقامه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقَمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، حيث تقدّم النبي ﷺ في الخطاب، ثم دخلت أمته فيما بعد، يقول ابن عاشور: "ووجه الأمر إلى النبي ﷺ تنويهاً بشأنه، ليعني عليه قوله (كما أمرت)، فيشير إلى أنه المتلقي للأوامر الشرعية ابتداءً، وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله (ومن تاب معك)" (٣).

- وللتقديم والتأخير أثر في الدعاء، فلما نادى نوح ربه لينجي ابنه، كان على علم بأن عذاب الله واقع على كل كافر، إلا أنه لما غلبته الشفقة قدّم عذره في الدعاء (٤). قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. وقال الألوسي: "فهذا النداء منه عليه السلام يقطر منه الاستعطاف، وجميل التوسّل إلى من عهده منعماً مفضلاً في شأنه أولاً وآخرًا، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]" (٥).

١- التحرير والتنوير، ٩٧ / ١٢، وفي موضع آخر، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوْمَ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: ٦٣]، ينظر: ١١١ / ١٢.

٢- التحرير والتنوير، ١٢٦ / ١٢، وينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣ / ٣٠٢.

٣- التحرير والتنوير، ١٧٦ / ١٢.

٤- ينظر: التحرير والتنوير، ٨٤ / ١٢.

٥- روح المعاني، ٢٦٦ / ٦.

- وقد يكون التقديم والتأخير لتقريب ما يمكن تباعده في الكلام، ليكون أكثر تمكُّناً في الذهن، من ذلك: تقديم الضمير على المُبدل منه في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، فسلك الآية مسلك الإجمال ثم التفصيل، "فجيء بالضمير المفسر فيما بعد، لما في لفظ التفسير من الطول، فيحصل بذكره بُعد بين اسم الفاعل ومرفوعه، فلذلك اختصر في ضمير يعود عليه، فحصل الاهتمام، وقوي الاهتمام بما يدلُّ على تمكُّنه في الذهن"^(١).

- ومن بلاغة الكلام أيضاً أن تترتب الأحداث فيه تبعاً لترتيبها في الحصول، فيتقدّم في الكلام ما حصل أولاً، فكما تكون البلاغة في التفنُّن في استخدام مختلف الأساليب، تكون أيضاً في تركها إذا لم يكن ثمة حاجة تدعو لها. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضًا قِيَاهُمْ ذَرَعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ﴾ [هود: ٧٧]، قال فيها ابن عاشور: "ومن بديع ترتيب هذه الجمل، أنّها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإنَّ أوَّل ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به، ويتطلب المخلص منه، فإذا علم أنّه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً، ثمَّ يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه. وتصلح هذه الآية لأن تكون مثلاً لإنشاء المنشئ إنشاءه على حسب ترتيب الحصول في نفس الأمر، هذا أصل الإنشاء ما لم تكن في الكلام دواعي التقديم والتأخير..."^(٢).

- وقد ينقل ابن عاشور كلام بعض العلماء في البلاغة دون أن يعقّب عليه، كما نقل كلام السكاكي في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي﴾ [هود: ٤٤]، حيث قال: "وقد تصدّى السكاكي في المفتاح في بحث البلاغة والفصاحة لبيان خصائص البلاغة في هذه الآية... فقال: وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجمل، فذلك أنّه قدّم النداء على الأمر فقليل: (يا أرض) دون أن يقال: ابلعي يا أرض..."^(٣) لتنبية المنادى لما سيأتي من أمر بعده فيكون أرسخ في النفس. وذكر

١- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٧، وينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٤٦ - ٤٧.

٢- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٢٥.

٣- التحرير والتنوير، ١٢/ ٨٢.

أيضاً تقديم أمر الأرض على أمر السماء، وذلك لأنَّ الطوفان ابتدأ منها، فكان الكلام جارياً على الأصل^(١).

ج- ما قُدِّم في آية وأُخِّر في أخرى:

نَبَّه ابن عاشور إلى التشابه بين آيتين في سورة هود، وقد تقدَّم في إحداها ما تأخَّر في الأخرى، ويبيِّن الحكمة والغرض من هذا التقديم والتأخير. ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِّن رَّبِّي وَعَاسَنِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُمْهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]، تقدَّم (منه) على (رحمة)، في حين كانت متأخرة سابقاً في قصة نوح، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِّن رَّبِّي وَعَاسَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهَا فَعَمَّيْتُهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. والغرض من هذا الاختلاف: أولاً: ما فيه من تفنُّن في سرد القصص القرآني، وعدم إعادة الكلام المتماثل.

ثانياً: لتكون الدلالة في كلا الموضعين واضحة جليَّة أنَّ الإيتاء إنما كان من الله تعالى، وتفصيل ذلك: أنَّه لما كان مجرور (من) في قصة نوح الظرف (عند) كان واضحاً أنَّ الدلالة من عند الله فتأخَّرت، أمَّا في الموضع الثاني فمجرور (من) هو ضمير الجلالة، فكان الأليق والأقوى للمعنى أن يعقب قول (آتاني) (منه) فيدلُّ على أنَّه إيتاء خاص من الله، ذو عناية بالموثي، ولو لم يحصل التقديم لفات هذا المعنى^(٢).

ولم يذكر ابن عاشور غير هذا الموضع في هذه السورة.

١- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ١٢ / ١١١ - ١١٢، وقد سبق ذكر أقوال العلماء في هذه الآية فلا داعي لإعادتها هنا. ينظر: ص

– ما يكون في مقطع الآية:

أ– التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

– ويرى ابن عاشور أنَّ التقديم والتأخير أيضاً قد يكون مراعاة للفاصلة القرآنية، وللاهتمام بشأن المقدم، ولم يكتف بهذا التعليل، وإنما يبين أثر التقديم على المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، جاء تقديم المجرور على عامله رعاية للفاصلة، إذ الفواصل بعدها: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]. يقول ابن عاشور موضحاً أثر التقديم على المعنى: "وتقديم المجرور على (كارهون) لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بشأنها، والمقصود من كلامه بعثهم على إعادة التأمل في الآيات، وتخفيض نفوسهم واستنزاهم إلى الإنصاف، وليس المقصود معذرتهم بما صنعوا ولا العدول عن تكرير دعوتهم"^(١). ورأى السامرائي أنَّ التقديم هنا لإفادة القصر والاختصاص، والمعنى: "أنلزمكم البينة وأنتم تخصونها بالكراهة، فلا تكرهون شيئاً ككراهتكم لها. ولو قال: (وأنتم كارهون لها) لأفاد ذلك أنهم يكرهونها ولكن لا يخصونها بالكراهة. فلما قَدَّمَ الجار والمجرور دَلَّ على قصر الكراهة عليها، وبيَّن ذلك شدة كراهتهم لها فكيف يلزمهم إياها؟"^(٢).

– والتقديم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، نفى ابن عاشور أن يدلَّ التقديم هنا على القصر، فقوم نوح عليه السلام لا يعتقدون بالبعث بعد الموت أصلاً، حتى تأتي الآيات وتبين لهم أن الرجوع يكون إلى الله لا إلى غيره، وإنما دَلَّ التقديم على الاهتمام بمسألة الرجوع بعد الموت، ورعاية للفاصلة، فما بعدها، قوله تعالى: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٥].

١– التحرير والتنوير، ١٢/ ٥٣.

٢– على طريق التفسير البياني، ٣/ ١١٩ – ١٢٠.

[٣٦]، يقول ابن عاشور: "والتقديم في ﴿وَالْيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ للاهتمام ولرعاية الفاصلة، وليس للقصر، لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً، بله أن يزعموا أنهم يحضرون إلى الله لا إلى غيره" (١).

ب- التقديم والتأخير في تذييل الآية: ذكر ابن عاشور موضعاً جاء فيه التذييل في آخر الآية،

وهو:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ آتٍ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ذُيِّلَت الآية بقوله (والله على كل شيء وكيل)، لتأكيد ما قبلها من المعاني وتقريرها، ولم يبين ابن عاشور أثر تقديم الجار والمجرور (على كل شيء) على متعلقه (وكيل) وإنما اكتفى بذكر صلة هذه الجملة بما قبلها وبيان دلالتها، فقال: "وجملة (والله على كل شيء وكيل) تذييل لقوله: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك..)، وهي معطوفة على جملة (إنما أنت نذير) لما اقتضاه القصر من إبطال أن يكون وكيلاً على إلجائهم للإيمان، ومما شمله عموم كل شيء أن الله وكيل على قلوب المكذبين وهم المقصود، وإنما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلاً وإتياناً للغرض بما هو كالـدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسليية النبي ﷺ بأن الله مطلع على مكر أولئك، وأنه وكيل على جزائهم، وأن الله عالم ببذل النبي جهده في التبليغ" (٢). فإذا كانت هذه الجملة (والله على كل شيء وكيل) لتوكيد حفظ الله لما يقوله الكفار، وأنه فاعل بهم ما يستحقونه، وفيها أمر بالتوكل على الله، فإنَّ التقديم فيها يدلُّ على تأكيد عموم ولاية الله تعالى، وشمول سيطرته، فهو تعالى رقيب على أعمال المشركين جميعها، وإليه ترجع كل الأمور (٣).

١- التحرير والتنوير، ١٢/ ٦٣.

٢- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٨- ١٩.

٣- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٦/ ١٢٨، وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٢/ ٤٠٣.

٢- التقديم والتأخير على مستوى السورة القرآنية:

- ما يكون بين الآيات المتتابعة:

يظهر جلياً اهتمام ابن عاشور بالمناسبات بين الآيات، وكان يذكر أحياناً الغرض والفائدة من تقديم الآيات بعضها على بعض، من ذلك:

- ما ورد في تقديم قصة إبراهيم عليه السلام على قصة لوط عليه السلام، والغرض من هذه القصة هو الموعظة بمصير قوم لوط إذ عصوا رسول ربهم، فحلّ بهم العذاب، ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم، وقدّمت قصة إبراهيم لذلك وللتنويه بمقامه عند ربه على وجه الإدماج^(١). فقد ذكرها ابن عاشور من باب الإدماج، وإذا نظرنا إليها من ناحية ترتيب القصص المعطوفة والغرض من ذكرها يمكن إدراجها تحت أسلوب التقديم والتأخير.

- وقد يتناول ابن عاشور مجموعة آيات ككلّ واحد يشرحه ويوضّحه لشدة ما في الآيات من تلاحم واتصال، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]، نظر ابن عاشور إلى هذه الآيات كمجموعة أوامر متتالية، وبين الحكمة من تقديم بعضها على بعض. فالمأمورات ثلاثة: أولها: إصلاح الاعتقاد ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أمّا الثاني: فهو أمر كان متفشياً سارياً بينهم فخصّه بالنهي، وهو ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ تدرّج الله وعز وجل بها لتتلقاها النفوس بالقبول، فتكون أدعى للامتثال،

١- التحرير والتنوير، ١٢ / ١١٦، والإدماج، هو: إدخال فكرة في فكرة، أو غرض بلاغي في غرض آخر، ... بأسلوب من الكلام لا يظهر منه إلا إحدى الفكرتين، أو أحد الغرضين، أو أحد الوجهين، فإذا تأمل المتفكّر ظهر له المدمج، وسرّه هذا الإدماج. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢ / ٤٢٧. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ٢٨٣.

حيث بدأ "بنهيهم عن نوع من الفساد فاشٍ فيهم، وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع، وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفساد، وهو: الإفساد في الأرض كله، وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال"^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ وَمَا تُؤْخِرُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذِيهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٥]، جاء الحديث عن يوم القيامة وأحوال الناس فيه فمنهم الشقي ومنهم السعيد، والآيات مسوقة لبيان هذه الأحوال، فقدّم ذكر اليوم إجمالاً، وهذا تمهيد وبيان لعظم وهول ذلك اليوم. يقول ابن عاشور: "فالمقصد الأول من هذه الجملة ﴿يَوْمَ يَأْتِ ...﴾ هو قوله ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بعده، وأما ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم، وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم، في موضع الكلام المتصل لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام"^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]، نهى أولاً عن الطغيان، ثم نهاهم عن التقارب مع المشركين، وبالالتزام بهما يتحقّق أمران هما أصل الدين، الإيمان والعمل الصالح^(٣)، وبما أنّ العمل الصالح لا ينفع صاحبه في الآخرة من غير الإيمان، تقدّم ما يدلّ على الإيمان، وهو النهي عن الطغيان.

١- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٣٨.

٢- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٦٣.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ١٢/ ١٧٨.

- ما يكون بين المقاطع المتتابة:

ذكر ابن عاشور في مقدّمة تفسيره لسورة هود تعريفاً مجملاً بالسورة وموضوعاتها، وهو وإن لم يقسم السورة إلى مقاطع، فإنّ دراسته للمناسبات بين أجزاء السورة كشفت عن الحكمة من تعاقب مقاطع سورة هود على النحو الذي جاءت عليه.

في سورة هود ثلاثة مقاطع: فقد ابتدأت ببيان حقائق العقيدة في مقدّمة السورة، ثمّ أعقبتها ببيان حركة حقائق العقيدة في التاريخ، وختمت السورة بتعقيب على هذه الحركة، وقد سبق الحديث عن هذا الأمر.

وضّح ابن عاشور مناسبة الحديث عن قصص الأنبياء بعدما سبقه من الآيات فرأى أنّ الشروع في سرد قصص السابقين هو "انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك، إلى موعظتهم بما أصاب المكذّبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسليّة للنبي بما لاقاه الرسل عليهم السلام، قبله من أقوامهم"^١. فقدّم أولاً إنذار المشركين وتوجيههم على نحو عام، ثمّ أتبعه بالإندار الخاص من خلال قصص السابقين وبيان أحوالهم.

ثمّ لم يذكر على وجه صريح صلة المقطع الأخير بما قبله، وإنّما تابع في تفسيره آية آية.

- المواضع التي لم يذكرها ابن عاشور في تفسيره^١:

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتَ بِهِءُ فُؤَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

تقدّم الجار والمجرور (في هذه) على الفاعل (الحق)، واسم الإشارة عائد إلى سورة هود، وجاء نظم الكلام على التقديم، لأنّ المقصود بيان منافع السورة، ولأنّ في تأخير الفاعل تشويقاً له فيزداد تمكُّنه في الذهن عند وروده. يقول أبو السعود: "وتقديم الظرف أعني (في هذه) على الفاعل لأنّ المقصود بيان منافع السورة، أو الأنباء المقصوفة فيها، واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة، لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها، ولأنّ عند تأخير ما حقّه التقديم تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكّن فيها عند الورد فضل تمكُّن^٢"، وإلى هذا المعنى أشار الرازي فقال: "واعلم أنّه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالاً مما ذُكر في سائر السور"^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

ذكر أولاً أنّ الله تعالى عنده علم الغيب، وإليه ترجع كلّ الأمور، ثمّ أعقبه بالأمر بعبادته والتوكل عليه سبحانه، فمن كانت هذه صفاته فهو أهل لأن يُعبد، وقدّم الأمر بالعبادة على الأمر بالتوكل عليه سبحانه، لأنّ التوكل على الله دون عبادته والخضوع له لا يؤتي ثماره، وهذا كلّ من باب تقديم الأسباب على المسببات. يقول أبو السعود في تفسيره: "(فاعبده وتوكل عليه) فإنّه كافيك، والفاء

١- بهذه المواضع مع ما ورد في الفصل السابق المتعلق بالزخشي، يكون قد ذُكرت أغلب مواضع التقديم والتأخير في سورة هود، ولا أقول كلها، فالسورة بأكملها محلّ لاستنباط دلالة تقديم بعض الكلام على بعض، وإنّما ذكرْتُ ما أورده بعض من المفسرين حسب بحثي، وفي هذا كفاية لإعطاء صورة واضحة عن عمل كلّ من الزخشي وابن عاشور في تفسيريهما وهو محلّ الدراسة.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤ / ٢٤٨.

٣- مفاتيح الغيب، ١٨ / ٤١٣.

لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لا ينفع دونها^١.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسَ إِلَّا بِذَنِّهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].
تقدم ذكر الشقي على السعيد، وجاء هذا الترتيب لمراعاة سياق الكلام، فلما كان المقام مقام تحذير وإنذار قدم من توجه إليه هذا الإنذار، وهم الأشقياء^٢.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

ذكرت الآية رد قوم هود على نبيهم، ورفضهم لدعوته، وإصرارهم على كفرهم وعصيانهم، فجاء نظم الكلام بتقديم المسند إليه في قوله: (وما نحن لك بمؤمنين) مفيداً تقوية هذا المعنى، وفيه "دلالة على أنهم لا يرجي منهم ذلك بوجه من الوجوه، وفي ذلك من الدلالة على الإقنات ما فيه"^٣.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ مَعَهُ وَمَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. قدم (تارك بعض ما يوحى إليك) على (ضائق به صدرك) مع أنه قد يكون سبب الترك هو ضيق الصدر، وذلك يرجع إلى "أنه قدم ما هو الأهم، وهو ما يوحى إليه، فإن ترك بعض ما يوحى إليه هو أهم وأخطر من ضيق الصدر، وقد يضيق صدر المرء من شيء غير أنه لا يترك الأهم"^٤.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. توبيخ لقوم لوط بسبب سوء أفعالهم، فلم يكن منهم رجل صالح يُعدهم عن آثامهم، وأفاد تقديم خبر ليس (منكم) بعد الاستفهام نفى هذا الخبر، أي: لا وجود لرجل رشيد منهم، ودل الاستفهام على التوبيخ^٥.

١- إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٤٩، وينظر: تفسير البضاوي، ٣/ ١٥٣.

٢- ينظر: تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٤١.

٣- تفسير الألوسي، ٦/ ٢٨٠، وينظر: تفسير البضاوي، ٣/ ١٣٨.

٤- على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٤٦.

٥- ينظر: تفسير البضاوي، ٣/ ١٤٣.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

ذكرت الآية ردَّ قوم لوط على نبيِّهم عندما طلب منهم كفَّ أذاهم عن ضيوفه، فجاءوا بمختلف أنواع المؤكِّدات ليبينوا عزمهم على ما يريدون ورفضهم لطلبه، ومن هذه المؤكِّدات: تقديم الخبر (لنا) بعد النفي، حيث أفاد تأكيد النفي.^١

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

أفاد تقديم خبر ليس (لهم) وتأخير اسمها (النار) القصر، فهؤلاء الكفار ليس لهم في الآخرة إلا النار، وذلك لأنَّ اهتمامهم كان للدنيا وملذاتها، فهم مقصرون في الآخرة على دخول النار وعذابها الدائم.^٢

- المبحث الثالث: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء:

١- ما يكون على مستوى الآية القرآنية:

- ما يكون في جمل الآية وأجزائها:

أ- التقديم الذي على نية التأخير: وفيه عدة مواضع ذكر منها ابن عاشور:

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، حيث تقدَّم الخبر (للذكر) على المبتدأ، والغرض من هذا التقديم التنبيه على الأمر المراد الإخبار عنه وهو ميراث الإناث، فالعرب

١- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٣٠٣- ٣٠٤، وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٣/ ٩٨٨، ومثله أيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، حيث تقدم الخبر بعد النفي فأفاد تأكيد النفي الوارد، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ﴾ [هود: ٢٠]، تقدم خبر كان وأفاد تأكيد انتفاء الولاية والنصرة للكفار. ينظر: المرجع السابق، ٣/ ١٠٠٦.

٢- ينظر: تفسير أبي السعود، ٤/ ١٩٣- ١٩٤.

في الجاهلية اعتادوا منع الإناث من الميراث، ولما قسّم الإسلام الإرث، أعاد لهم حقّهم في التركة، ودلّ تركيب الجملة على أنّ هناك من يشارك الذكر في الميراث، فلم يعد مستفرداً به. يقول ابن عاشور: "وتقديم الخبر على المبتدأ في هذه الجملة، للتنبيه من أوّل الأمر على أنّ الذكر صار له شريك في الإرث وهو الأنثى، لأنّه لم يكن لهم به عهد من قبل، إذ كان الذكور يأخذون المال الموروث كلّ ولا حظّ للإناث" (١).

- وما جاء التقديم فيه للاهتمام، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣]، تقدّم الجار والمجرور على متعلّقه (جعلنا)، لأنّ الكلام متجه إليه، وهو محلّ الاهتمام، فكلّ تارك مالاّ جعل الله له ورثة ترث عنه ما ترك (٢). ورأى غيره أنّ التقديم هنا "لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل ببعض دون البعض... أي: ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويجرزون منها أنصباؤهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة" (٣)، وقد نظر الرازي إلى التقديم والتأخير الوارد هنا من ناحية أخرى، فلم يذكر وجه تقديم الجار والمجرور (لكل)، وإنما جعل تقدير الكلام: ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالى، أي: ورثة، ولم يبيّن الغرض من التقديم (٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، نالت قضية برّ الوالدين اهتماماً كبيراً، من جانبين، الأول: أنّه ذُكر الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بعبادة الله ﷻ، والثاني: بتقديم الجار والمجرور على عامله، وهذا التقديم "للاهتمام، إذ لا معنى للحصر هنا، لأنّ الإحسان مكتوب على كلّ شيء" (٥). فابن عاشور لم يكتف ببيان غرض التقديم

١- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٥٧.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ٣٣، وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٢/ ٦٥٨.

٣- تفسير أبي السعود، ٢/ ١٧٢، وينظر: تفسير الألوسي، ٣/ ٢١.

٤- ينظر: مفاتيح الغيب، ١٠/ ٦٧.

٥- التحرير والتنوير، ٥/ ٤٩، وهناك مواضع أخرى لهذا الغرض، ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]، تقدّم الاستثناء على تمام الكلام المقصود

فقط، وأنه للاهتمام، بل نفى أن يكون للحصر، إذ تقديم المعمول على عامله يدل على الحصر وهو وإن لم يكن قاعدة عامة إلا أن ابن عاشور نفى هذه الدلالة في هذا الموضع لأنَّ المعنى لا يحتمله، فسياق الآية هو الذي يحدّد الغرض الدقيق المراد، والغرض من التقديم هنا (الاهتمام). وقال الآلوسي: "(وبالوالدين إحساناً) أي وأحسنوا بهما إحساناً، فالجار والمجرور متعلق بالفعل المقدّر، وجوز تعلقه بالمصدر وقدّم للاهتمام"^١، وذكر غيره الوجه الأوّل فقط وهو التعليق بفعل بمحذوف، فلا تقديم فيه^٢.

ب- التقديم الذي ليس على نية التأخير:

- وفي قوله تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، جاءت الجملة على ترتيبها المعتاد، مبتدأ تلاه الخبر، إلا أن ابن عاشور بيّن دلالة ذكر المبتدأ أولاً، فما من شيء في القرآن إلا وله غاية ودلالة، وفائدة هذا الترتيب الاهتمام بالمقدّم وتمكين الخبر في ذهن من خلال التشويق له. قال ابن عاشور: "﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ .. مسند إليهما قدّما للاهتمام، وليتمكّن الخبر في ذهن السامع، إذ يلقي سمعه عند ذكر المسند إليهما بشرائره"^(٣).

- وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، تقدّم لفظ الجلالة على الخبر الفعلي لأهميّة هذه الفتيا، ولم يفد هذا التقديم القصر، إذ النبي لا ينطق إلا عن وحي، وإسناد الإفتاء إلى الله للاهتمام بهذه الفتيا. يقول ابن عاشور: "وأمره بأن يجيب بقوله (الله يفتيكم) للتنويه بشأن الفريضة،

بيانه، وذلك للاهتمام بالحكم المستثنى، فسارع إلى بيانه. وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، تقدّم النفي على القسم اهتماماً به، وأصل الكلام: (فوربك لا يؤمنون) وأفاد تقديم النفي التعجيل بمعرفة أنّ ما بعد القسم منفي، ولتأكيد هذا النفي. ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ٦٤، ١١٠.

١- روح المعاني، ٣/ ٢٨.

٢- ينظر: تفسير الرازي، ١٠/ ٧٥، وتفسير البيضاوي، ٢/ ٧٣، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٧٥.

٣- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٦٢. والشرائر أي: النفس والحجة، ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ماد (شَرَر) ٤/ ٢٢٣٣. والمقصود في كلام ابن عاشور، أي: اهتّم بالأمر وأرعى له سمعه وكلّه.

فتقديم المسند إليه للاهتمام لا للقصر، إذ قد عُلِمَ أَنَّ الرسول لا ينطق إلا عن وحي، فهم لما استفتوه فإنما طلبوا حكم الله، فإسناد الإفتاء إلى الله تنويه بهذه الفريضة^(١).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، جاء الكلام على الترتيب المعهود، فتقدّم المبتدأ على الخبر الفعلي، ليدلّ على الاختصاص. قال ابن عاشور: "قدّم المسند إليه على الخبر الفعلي... ليدلّ على التخصيص الإضافي، أي: الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يحرضكم على التوبة، والإقلاع عن المعاصي"^(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُومًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] تقدّم لفظ الجلالة على الخبر الفعلي (ليجمعنكم) وأفاد تقوية الخبر وتأكيده، والرد على منكري البعث. يقول ابن عاشور هنا: "وجملة (ليجمعنكم) جواب قسم محذوف واقع جميعه موقع الخبر عن اسم الجلالة. وأكّد هذا الخبر بلام القسم، ونون التوكيد، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، لتقوية تحقيق هذا الخبر، إبطالاً لإنكار الذين أنكروا البعث"^(٣).

- في قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةَ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، تقدّم الأمر بالخشية على الأمر بالتقوى، لأنّ الأوّل قوي بالحجّة فصار كالحاصل، وترتب الثاني عليه. وهذا من باب ترتيب الأوامر في الآية حسب ما هي عليه في الوجود، فما يكون أولاً يتقدّم ويتبعه ما يترتب عليه. يقول ابن عاشور: "فُرّع الأمر بالتقوى على الأمر بالخشية، وإن كانا أمرين متقاربين، لأنّ الأمر الأول لما عُضِدَ بالحجّة اعتُبر كالحاصل، فصَحَّ التفريع

١- التحرير والتنوير، ٦/ ٦٦، وينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ٢١٣.

٢- التحرير والتنوير، ٥/ ٢١.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ١٤٨.

عليه، والمعنى: فليتقوا الله في أموال الناس، وليحسنوا إليهم القول"^(١). وأوضح البيضاوي الغرض من هذا التقديم بقوله: "أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها، مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثاني"^٢، والمعنى واحد، فالخشية تكون أولاً، ثم تليها التقوى.

- ويكون التقديم أيضاً لما هو أقرب إلى المرء من غيره، فعند بيان الله لأنصاء الورثة، ابتداءً بنصيب الأبناء، وذلك لأنهم أقرب الناس إلى المتوفى^(٣). قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ [النساء: ١١]. وعبر الرازي عن هذا بقوله: "اعلم أنه تعالى بدأ بذكر ميراث الأولاد وإنما فعل ذلك لأنّ تعلّق الإنسان بولده أشدّ التعلّقات... فلهذا السبب قدّم الله ذكر ميراثهم"^٤، وأضاف أبو السعود معنى آخر، فقال: "بُدي بهم لأنهم أقرب الورثة إلى الميت، وأكثرهم بقاء بعد المورث"^٥ والقول بقرينهم من الميت أبلغ.

- وقد يكون تقدّم الأمر لبيان أهمّيته، وللتنبية على ضرورته، وتقديم الوصية على الدين في قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، من هذا الباب، إلا أنّ ابن عاشور نبّه إلى أمر لطيف، وهو مراعاة حال السامع، فلا أحد يجهل حقيقة أنّ الدّين مقدّم على غيره من الالتزامات المالية. يقول ابن عاشور: "والقصد هنا التنبيه على أهمية الوصية..، وإنما ذكر الدّين بعدها تمييزاً لما يتعيّن تقديمه على الميراث مع علم السامعين أنّ الدّين يتقدّم على الوصية أيضاً، لأنّه حقّ سابق في مال الميت، لأنّ المدين لا يملك من ماله إلا ما هو فاضل عن دين دائنه"^(٦). ولغرض الاهتمام

١- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٥٣.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٢/ ٦٢، وينظر: تفسير الألوسي، ٢/ ٤٢٤، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٤٨.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ٤/ ٢٥٦، وينظر: روح المعاني، الألوسي، ٢/ ٤٢٦.

٤- مفاتيح الغيب، ٩/ ٥٠٩.

٥- إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٤٨.

٦- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٦١.

بالوصية والتنبيه على أهميتها ذهب غيره من المفسرين^١، وأضاف البيضاوي، أنَّ الوصية تشمل الجميع فيندب لمن ترك مالا أن يوصي بثلثه، بخلاف الدين فهو متعلق بالبعض، وترك إيفائه إلى موت صاحبه أمر نادر، فقال: "وقدَّم الوصية على الدين وهي متأخرة في الحكم، لأنها مشبهة بالميراث شاقَّة على الورثة مندوب إليها الجميع، والدين إنما يكون على الدور"^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالضَّالِحَاتُ قَتَّيْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، تتحدث الآية عن سبل علاج الرجل لنشوز زوجته، فابتدأت الآية بتقرير قوامة الرجال على النساء، فكان هذا الأمر كالمقدمة والتمهيد لما أرادت الآية بيانه، وذكر ابن عاشور أنَّ تقديم ذكر القوامة إنما كان للاهتمام بهذا الأمر، فقال: "فموقع (الرجال قوامون على النساء) موقع المقدمة للحكم، بتقديم دليله للاهتمام بالدليل، إذ قد يقع فيه سوء تأويل، أو قد وقع بالفعل، فقد روي أنَّ سبب نزول الآية قول النساء: (ليتنا استويننا مع الرجال في الميراث وشركناهم في الغزو)"^٣.

- ومثله أيضاً، ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، تقدَّم آخر الجملة (ليس بأمانيكُم) على أولها (من يعمل سوءاً..). وذلك للاهتمام بهذا الأمر _وهو أنَّ الجزاء تابع للعمل ولا يكون حسب ما يتمناه كلُّ امرئ ويشتهيهِ_ وفي إيهام الضمير في المقدم تشويق له وتهئية النفوس والعقول لاستقباله. يقول ابن عاشور: "وفيه تقديم جملة (ليس بأمانيكُم) عن موقعها الذي يترقب في آخر الكلام، فكان تقديمها إظهاراً للاهتمام بها، وتهئية لإيهام الضمير"^(٤). وقد جعل غيره من المفسرين هذه الآية على ترتيبها الأصلي فلا تقديم فيها،

١- ينظر: تفسير الرازي، ٩/ ٥١٨، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٥٠.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٢/ ٦٣، وينظر: تفسير الألوسي، ٢/ ٤٣٦.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ٣٨.

٤- التحرير والتنوير، ٥/ ٢٠٨.

ومعنى الكلام: "ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يُنال بأمانيكُم أيها المسلمون ولا بأمانِي أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح... ثم قَرَّرَ ذلك بقوله: (من يعمل سوءاً يجز به)..."^١

- ويكون التقديم للتنبيه على حكم المقدم، ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨]، قدَّم ذكر الرجال، وأتبعه بالنساء والأطفال، ليبين أنَّ من الرجال مستضعفين معذورين، وأنَّ وجود النساء والأطفال عذر لوليَّهم إذا لم يستطع طريقة لإخراجهم^(٢).

- وقد يكون التقديم لمراعاة سياق الآيات، فما تكون الآيات تتحدَّث عنه وبصدد بيانه، يقَدِّم على غيره، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، تقدَّم النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، على النهي عن قتل النفس مع أنَّ الثاني أشدُّ خطراً، وذلك لأنَّ الآيات السابقة تحدَّثت عن حقوق اليتامى والنساء والعدل فيهنَّ وحفظ أموالهم، وعدم أخذها بغير حقٍّ، فتقدَّم هنا النهي عن أكل المال. ولا بن عاشور قول آخر نابع من النظر في ظروف التنزيل الحكيم، فالعرب كانت تستسهل أخذ المال بغير الحق، وليس لهذا الأخذ تبعات، فهم يتسلَّطون على أموال الضعفاء، وليس هناك من يردعهم، بخلاف قتل النفس فلا يسلم من تبعاته أحد، فتقدَّم النهي عن أكل الأموال بالباطل، تأكيداً لحرمة هذا الأمر، ومنعاً للتهاون به^(٣). وذكر الآلوسي أنَّ تقديم النهي عن أكل أموال الناس عن النهي عن قتلهم، لكثرة هذا الأمر، فهو أوسع انتشاراً وفعلاً من قتل الناس بغير حق^١.

١- تفسير البيضاوي، ٢/ ٩٩، وينظر: تفسير الرازي، ١١/ ٢٢٥، وتفسير الآلوسي، ٣/ ١٤٦، وتفسير أبي السعود، ٢/ ٢٣٥.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ١٧٧.

٣- ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ٢٤ - ٢٥. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، قدَّم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك، وذلك لأنَّ الخطاب للمؤمنين، وقد تقرَّر بينهم نفي الشرك، وأريد من الأمر المداومة

- وقد يخرج الترتيب عما عليه سياق الآيات، ليدلّ على أنّ المتأخر جاء نتيجة لما تقدّمه، والأوّل أفضى إلى ما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فالآية تتحدّث عن طبيعة العلاقة بين الرجل وزوجته، والحقوق التي جعلها الله لهما وعليهما، ولما ذكر الله صفات الزوجات الصالحات بدأ بأنّهن قانتات، أي مطيعات لله "وقدّمه هنا وإن لم يكن من سياق الكلام، للدلالة على تلازم خوفهنّ الله وحفظ حق أزواجهنّ، ولذلك قال: حافظات للغيب، أي: حافظات أزواجهن عند غيبتهن" (٢). وهذه لطيفة لم يذكرها غيره من المفسرين ممن قرأت لهم، فقد اكتفى الرازي بالتعليق على أنّ هذا التقديم، من باب تقديم حق الله تعالى، على حق الزوج، وقال: "قانتات، أي: مطيعات لله، حافظات للغيب، أي: قائمات بحقوق الزوج، وقدّم قضاء حقّ الله، ثمّ أتبع ذلك بقضاء حقّ الزوج" (٣).

- ويكون التقديم لبيان أنّ المتقدّم هو الأصل والأهم وما بعده فرع عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَّانِفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، يبيّن الله في هذه الآية وما بعدها قواعد القتال، فابتدأ بأمرهم بأخذ الحذر، لأنّها أكبر قاعدة لاتقاء مكر العدو وخداعه، فإذا أخذ الجيش حذره، تفنّن في مقارعة خصمه وتأهّب لذلك بشتّى الوسائل والأحوال، لذا أتبعه بقوله: ﴿فَافِرُوا ثُبَاتٍ أَوَّانِفِرُوا جَمِيعًا﴾، فأخذ الحذر هو الأصل، وما بعده فرع عنه (٤).

- ويكون التقديم أيضاً للتمهيد لما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿فَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ [النساء: ١٧١]، الخطاب في الآية للنصارى، والمقصود منه الأمر بالإيمان بجميع الرسل، وإثماً

على العبادة والاستزادة منها، فتقدّم، وورد النهي عن الشرك للتحذير مما كانوا عليه في الجاهلية. ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ٤٨.

١- ينظر: روح المعاني، ٣/ ١٧، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٧٠.

٢- التحرير والتنوير، ٥/ ٤٠.

٣- مفاتيح الغيب، ١٠/ ٧١.

٤- ينظر: التحرير والتنوير، ٥/ ١١٧-١١٨.

قدّم الأمر بالإيمان بالله ليصحّحوا إيمانهم ولیمهّد لهم للأمر بالإيمان بالرسول، "وأمرُوا بالإيمان بالله مع كونهم مؤمنين _أي النصارى_ لأنّهم لما وصفوا الله بما لا يليق فقد أفسدوا الإيمان، وليكون الأمر بالإيمان بالله تمهيداً للأمر بالإيمان برسله وهو المقصود..."^(١).

ج- ما قدّم في آية وأخر في أخرى:

لم يذكر ابن عاشور ما يندرج تحت هذا النوع من سورة النساء في تفسيره.

- ما يكون في مقطع الآية:

أ- التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية:

ذكر ابن عاشور موضعاً واحداً في سورة النساء، كان فيه التقديم لمراعاة الفاصلة، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، تقدم الجار والمجرور (في أنفسهم) على متعلقه (قولاً بليغاً)، "للاهتمام بإصلاح أنفسهم مع الرعاية على الفاصلة"^٢. وناقش غيره هذا الموضع من الجانب النحوي فقط، فذكروا الأقوال في جواز تقديم معمول الصفة على الموصوف، فقد أجاز ذلك الكوفيون، في حين منعها البصريون. قال الألوسي في تعليق الجار والمجرور (في أنفسهم): "وقيل: متعلق بـ (بليغاً) وهو ظاهر على مذهب الكوفيين، والبصريون لا يجيزون ذلك، لأنّ معمول الصفة عندهم لا يتقدم على الموصوف، لأنّ معمول إنّما يتقدّم حيث يصحّ تقدّم عامله، وقيل إنّما يصحّ إذا كان ظرفاً وقوّاه البعض"^٣.

١- التحرير والتنوير، ٦ / ٥٤.

٢- التحرير والتنوير، ٥ / ١٠٨.

٣- روح المعاني، ٣ / ٦٧، وتفسير البضاوي، ٢ / ٨١، وتفسير أبي السعود، ٢ / ١٩٦.

ب- التقديم والتأخير في تذييل الآية:

اهتمَّ ابن عاشور بتذليل الآيات في كلام الله تعالى، وكان يشير إلى ما فيه من تقديم وتأخير ويبين أثره على المعنى تارة، وأخرى لا يشير إلى هذا الأسلوب، ومن هذه المواضع:

- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، ذكر ابن عاشور أنَّ تذييل آية الموارث بقوله: (والله عليم حلیم) مناسب لما في الآيات من معان وتشريعات، ولم يوضح سبب تقديم العليم على الحلیم، وإن كان هذا يفهم من كلامه، فقد جاءت الآيات بإبطال ما كان عليه الناس في الجاهلية من حرمان النساء والأطفال من الميراث، فذُيِّلَت الآية بأنَّ الله عليم بعباده وما يصلح لهم، حلیم بهم يشترع ما فيه رحمة لهم فلا يمنع صغارهم حقوقهم. قال ابن عاشور: "وقوله: (والله عليم حلیم) تذييل، وذكر وصف العلم والحلم هنا لمناسبة أنَّ الأحكام المتقدِّمة إبطال لكثير من أحكام الجاهلية، وقد كانوا شرعوا موارثتهم تشريعاً مثاره الجهل والقساوة. فإنَّ حرمان البنت والأخ للأُم من الإرث جهل بأنَّ صلة النسبة من جانب الأُم مماثلة لصلة نسبة جانب الأب. فهذا ونحوه جهل، وحرمانهم الصغار من الميراث قساوة منهم"¹. وذكر غيره أنَّ التذييل متعلِّق بما ورد قبله مباشرة (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) وفيه وعيد لمن ظلم، ف"الله تعالى عليم بمن جار أو عدل في وصيته، حلیم على الجائر لا يعاجله بالعقوبة، وهذا وعيد"².

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]. ذكر ابن عاشور وجه مناسبة التذييل للآية من حيث المعنى، ولم يبيِّن أثر تقديم الجار والمجرور (بكل شيء) على عامله (عليماً) فقال: "وقوله: (إنَّ الله كان بكلِّ شيء عليماً) تذييل مناسب لهذا التكليف، لأنَّه

١- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٦٧. وقد اقتصر ابن عاشور في تذييل آية الموارث الأولى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْوَنَاءِ...﴾ [النساء: ١١] ببيان أنَّ التذييل واضح المناسب للآية. ينظر: التحرير والتنوير، ٤/ ٢٦٢.

٢- تفسير الرازي، ٩/ ٥٢٥، وتفسير البيضاوي، ٢/ ٦٤، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٥٣.

متعلّق بعمل النفس لا يراقب فيه إلا ربّه"¹ فالله وحده مطّلع على ما في النفوس، والتميّ الوارد في الآية قد يكون مخفياً في النفس لم يصرّح به صاحبه. وذكر غيره معاني أخرى، فجعل الرازي المعنى متعلّق بعلم الله تعالى بما هو أصلح للسائل فليقتصر في دعائه على العموم، ولا يعيّن ما يريده فربما كان فيه مفسدة، وعلق البيضاوي المعنى بعلم الله بما يستحقّه كل إنسان، فيفضل بعض الخلق على بعض حسب استعدادات وقدرات كل منهم².

- وفي قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَتْ قَوَّتُكَ حِفْظَكَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤]، جاء تذييل الآية لتهديد من يتعدّى حدود الله، فقوامة الرجل على المرأة هي قوامة حفظ ورعاية، ونصح وإرشاد، ومن استغل هذا الموقع فظلم زوجته ومن يليه فإن الله أقدر عليه من قدرته على من يلي أمورهنّ من النساء، فقدّم (العلي) لأنّ هذه الصفة تعين على امتثال أوامره تعالى، ثم جاءت صفة (الكبير) وهو القوي القادر للتحذير من عقوبته لمن يعصيه. قال ابن عاشور: "وقوله: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً) تذييل للتهديد، أي: إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ عَلَيْكُمْ، حاكم فيكم، فهو يعدل بينكم، وهو كبير، أي: قويٌّ قادرٌ، فبوصف العلوّ يتعيّن امتثال أمره ونهيّه، وبوصف القدرة يحذّر بطشه عند عصيان أمره ونهيّه"³. وأضاف الرازي معاني أخرى لهذا التذييل، وهي: "أنّه تعالى مع علوّه وكبريائه لا يكلفكم إلا ما تطيقون، فكذلك لا تكلفوهنّ محبّتكم، فإنّهنّ لا يقدرن على ذلك،.. [أو] أنّه مع علوّه وكبريائه لا يؤاخذ العاصي إذا تاب، بل يغفر له، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تقبلوا توبتها وتتركوا معاقبتها،.. [أو] أنّه تعالى مع علوّه وكبريائه اكتفى من العبد بالظواهر، ولم يهتك السرائر، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة، وأن لا تقعوا في التفتيش عما في قلبها وضميرها من الحبّ والبغض"⁴.

١- التحرير والتنوير، ٥/ ٣٢.

٢- ينظر: مفاتيح الغيب، ١٠/ ٦٧، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٢/ ٧٢، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٧٢.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ٤٢.

٤- مفاتيح الغيب، ١٠/ ٧٣، وينظر: تفسير البيضاوي، ٢/ ٧٣، وتفسير الآلوسي، ٣/ ٢٦.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]، جاءت هذه الآية بعد آيات تتحدث عن علاقة الرجل بزوجته، وطرق الإصلاح بينهما، واقتصر ابن عاشور بتعليقه على هذا التذييل، بقوله: "تذييل وتنهية للكلام في حكم النساء"^١. في حين فصل الرازي القول فيه فقال: "والمعنى أنه تعالى لما وعد كل واحد منهما بأنه يغنيه من سعته وصف نفسه بكونه واسعاً، وإثماً جاز وصف الله تعالى بذلك لأنه تعالى واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسع في كذا لاختص ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات... وقوله حكيماً.. يريد فيما حكم ووعظ"^٢، فتقديم الواسع لأنه متعلق بالحكم المذكور قبله، أمّا الحكيم فتتعلق بكل الأحكام السابقة، وبها خُتم الحديث عن النساء كما ذكر ابن عاشور.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]، المراد من الآية عموم المؤمنين، والمؤمنون من أهل الكتاب على وجه الخصوص، لأن سياق الآيات تتحدث عنهم، وتذييل الآية مشعر بذلك أيضاً، فقدّم ذكر المغفرة لأنّ المغفرة مقدّمة على الرحمة. قال ابن عاشور: "والمراد بالذين آمنوا المؤمنون كلّهم، وخاصّة من آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، فهم مقصودون ابتداءً لما أشعر به موقع هذه الجملة بعد ذكر ضلالهم، ولما اقتضاه تذييل الجملة بقوله: (وكان الله غفوراً رحيماً) أي: غفوراً لهم ما سلف من كفرهم، رحيماً بهم"^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّادِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]،

١- التحرير والتنوير، ٥ / ٢١٩.

٢- مفاتيح الغيب، ١١ / ٢٣٨.

٣- التحرير والتنوير، ٦ / ١٢، وينظر: تفسير البضاوي، ٢ / ١٠٦، وتفسير الألوسي، ٣ / ١٨١، وتفسير أبي السعود، ٢ /

صرّح ابن عاشور بالحكمة من تقديم وصف الله تعالى بالعزیز، على وصفه بالحكيم، ومناسبة هذا للآیات، فقال: "ومناسبة التذييل بالوصفين في قوله: (عزیزاً حكيماً)، أمّا بوصف الحكيم فظاهرة، لأنّ هذه الأخبار كلّها دليل حكمته تعالى، وأمّا بوصف العزیز فلأنّ العزیز يناسب عزّته أن يكون غالباً من كل طريق، فهو غالب من طريق المعبودية، لا يُسأل عما يفعل، وغالب من طريق المعقولية إذ شاء أن لا يؤاخذ عبیده إلا بعد الأدلّة والبراهين والآیات. وتأخير وصف الحكيم لأن إجراء عزّته على هذا التمام هو أيضاً من ضروب الحكمة الباهرة"^١. فالله تعالى عزیز لا يغالب في أمر من أموره، حكيم في جميع أفعاله والتي منها إرسال الرسل، وإنزال الكتب حسب ما تقتضيه الحاجة^٢.

٢- ما يكون على مستوى السورة القرآنية:

- ما يكون بين الآيات المتتابعة:

اهتمّ ابن عاشور ببيان مواقع الآيات في السورة الواحدة، فكلّ آية لها غرض تؤدّيه بموقعها من خلال السياق الذي وجدت فيه، فمن الآيات ما يكون كالنتيجة لما قبلها، أو تعقيماً على أمر لدفع توهم قد يحصل، ومنها ما يكون تمهيداً ومقدمة لما بعدها، ومنها ما يكون كالتأصيل والقاعدة لما بعده، ومنها ما يكون في موقع تحقيق أو استدلال لما قبله، ومن أمثلة ذلك:

١- التحرير والتنوير، ٦/ ٤٣- ٤٤. وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ذكر ابن عاشور مناسبة التذييل لما قبله بما يتناسب مع سياق الآيات، فالآيات تتحدّث عن رفع الله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام، فقال: "والتذييل بقوله: (وكان الله عزیزاً حكيماً) ظاهر الموقع، أنّه لما عزّ فقد حقّ لعزّه أن يعزّ أوليائه، ولما كان حكيماً فقد أتقن صنع هذا الرفع، فجعله فتنه للكافرين، وتبصرة للمؤمنين، وعقوبة ليهودا الخائن". فذكر العزة أولاً لأنها سبب الرفع، وأعقبها بالحكمة فهي التي جعلت للرفع غاية ومكانة. التحرير والتنوير، ٦/ ٢٤.

٢- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ١٠٩، وتفسير أبي السعود، ٢/ ٢٥٦.

- ما ورد في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ [النساء: ٧]، فقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي تبين حكم إيتاء الأموال لليتامى، وقبل آيات الميراث، فهي جارية "مجرى النتيجة لحكم إيتاء أموال اليتامى، ومجرى المقدّمة لأحكام الموارث" (١).

- وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، في موقع التمهيد لما بعده من تفصيل أحكام الفرائض (٢).

- وجاء قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، تعقيباً على لوم بعض المجاهدين، لقتله من نطق بالشهادتين اعتقاداً منه أنه غير مسلم ونطقه بالشهادتين ليحمي نفسه من القتل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]، فجاء التعقيب لتأكيد فضل وثواب المجاهدين في سبيل الله، لئلا يتوهم أحدهم انحطاط فضيلتهم في بعض الأحوال. يقول ابن عاشور: "ولما لام الله بعض المجاهدين على ما صدر منهم من التعمق في الغاية من الجهاد، عقّب ذلك ببيان فضل المجاهدين، كيلا يكون ذلك اللوم مؤهلاً انحطاط فضيلتهم في بعض أحوالهم، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة دفْعاً لليأس من الرحمة عن أنفس المسلمين" (٣).

- وورد قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، بعد بيان جملة من أحكام اليتامى والميراث والنكاح، فجاءت هذه الآية لبيان تشريعات في حقوق كل من الرجل والمرأة، فصارت أصلاً تشريعاً ومقدمة لما تلاها من تفصيل

١- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٤٧.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ٤/ ٢٥١.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ١٦٩.

الأحكام. يقول ابن عاشور في الآية: "استئناف ابتدائي لذكر تشريع في حقوق الرجال وحقوق النساء والمجتمع العائلي، وقد ذُكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لا سيما أحكام النساء، فقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أصل تشريعي كليّ تتفرّع عنه الأحكام التي في الآيات بعده، فهو كالمقدمة،..."^(١).

- وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، في موقع التأكيد والتحقيق لما جاء قبله من قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١]، فكلُّ ما في الكون هو من خلق الله سبحانه وتعالى، وعيسى من خلق الله ومن عباده المصطفين. وقد تكون في موضع الاستدلال لقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، فالله واحد لا شريك له، تعالى وتنزه عن أن يكون له ولد، وبقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ﴾ أقام الحجّة على النصارى، فعيسى لن يتكبر ويمتنع من أن يكون عبداً لله، وهذا موجود في أناجيلهم^(٢).

- ويكون تقديم بعض آيات الأحكام على بعض للاهتمام بالمقدّم، والتنبيه على ضرورة مراعاته لئلا يتهاون فيه الناس، من ذلك ما ورد في الآيات التي تبين حكم كفالة اليتيم ومتى تسلّم إليه أمواله، قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْحَيِّثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ثم قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]، فقدّمت الآيات الأمر بدفع المال إلى اليتيم أولاً، ثمّ جاء الأمر بعدم رد ماله إليه إن كان ليس أهلاً لذلك، والمتوقّع ذكر عدم التسليم أولاً ثمّ الأمر بالتسليم عندما يكون اليتيم أهلاً لذلك، لأنّ هذا هو الحاصل في الوجود، إلا أنّه عُدل عن هذا الترتيب لتأكيد ضرورة رد مال اليتيم إليه. يقول ابن عاشور: "وقد يقال: كان مقتضى الظاهر على هذا الوجه أن يقدّم هنالك حكم

١- التحرير والتنوير، ٥/ ٣٧.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ٦/ ٥٩.

منع تسليم مال اليتامى لأنه أسبق في الحصول، فيتجه لمخالفة هذا المقتضى أن نقول: قدّم حكم التسليم لأنّ الناس أحرص على ضده، فلو ابتدأ بالنهاي عن تسليم الأموال للسفهاء، لاتخذ الظالمون حجة لهم، وتظاهروا بأنهم إنّما يمتنعون الأيتام أموالهم خشية من استمرار السّفه فيهم...^(١).

- ويأتي التنبيه على أمر أيضاً بهيئة الكلام المعترض، ففي الحديث عن الجهاد ناسب المقام التذكير بحال فئة من المسلمين تمتّ الجهاد أول الأمر، فلما فرض عليهم هابوه، فلم يثبتوا على قولهم، فذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَكَفَّتْ عَنْهُمْ الْقِتَالُ إِذَا فِيقُ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، يقول ابن عاشور في هذه الآية: "تهياً المقام للتذكير بحال فريق من المسلمين اختلف أول حاله وآخره، فاستطرد هنا التعجيب من شأنهم على طريقة الاعتراض في أثناء الحثّ على الجهاد، وهؤلاء فريق يؤذون أن يؤذون لهم بالقتال...^(٢)".

- يهتّم ابن عاشور بذكر المناسبات بين الآيات، فتظهر بذلك الحكمة من تقديم المتقدّم وتأخير المتأخّر، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٨]، يذكر ابن عاشور الخيط الناظم لهذه الآيات، فقد ذكر سبحانه وتعالى خبر الذين ييخلون بأموالهم بعدما ذكر الأمر بوجوه الإحسان، للتحذير من البخل، "ومناسبتة إرداف التحريض على الإحسان، بالتحذير من ضده وما يشبه ضده من كلّ إحسان غير صالح، فقبل الخلق الذي دعاهم الله إليه

١- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٣٤.

٢- التحرير والتنوير، ٥/ ١٢٤.

بأخلاق أهل الكفر" (١) ثم أتبع هذا الخلق بآخر له نفس النتيجة، فكان حديثه عن المنافقين أموالهم رياء وسمعة، "لأنهم أنفقوا إنفاقاً لا تحصل به فائدة الإنفاق غالباً، لأن من ينفق ماله رياء لا يتوَحَّى به مواقع الحاجة، فقد يعطي الغني ويمنع الفقير، وأريد بهم هنا المنفقون من المنافقين المشركين" (٢).

- وقد تتأخَّر الآية، مع أنَّها المقصودة بالبيان، ولأجلها سيق ما تقدَّمها، ففي بيان كفارة القتل، بدأ الله بالقتل الخطأ، وأخَّر الحديث عن كفارة القتل العمد، وهو "المقصود من التشريع لأحكام القتل، لأنَّه هو المتوقع حصوله من الناس، وإنَّما أُخِّر لتهويل أمره" (٣).

- وقد تناول الآية موضوعاً ثمَّ تتوالى مواضيع آخر وتتوَّع، ثمَّ يعود القرآن لذكر ذاك الموضوع، فيسرد ابن عاشور الموضوعات الواردة ليبين مناسبة الآية الأخيرة لسابقتها، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٨ هَٰ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٩﴾ [النساء: ١٥ - ١٠٩]، في هذه الآيات ذكر للمنافقين، فيقول ابن عاشور: "اتصال هذه الآية بما قبلها يرجع إلى ما مضى من وصف أحوال المنافقين ومناصريهم، وانتقل من ذلك إلى الاستعداد لقتال المناوئين للإسلام، من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَانْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، وتخلَّل فيه من أحوال المنافقين في تربصهم بالمسلمين الدوائر،

١- التحرير والتنوير، ٥/ ٥٢.

٢- التحرير والتنوير، ٥/ ٥٣.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ١٦٣.

ومختلف أحوال القبائل في علاقتهم مع المسلمين. واستطرد لذكر قتل الخطأ والعمد، وانتقل إلى ذكر الهجرة، وعقّب بذكر صلاة السفر، وصلاة الخوف، عاد الكلام بعد ذلك إلى أحوال أهل النفاق^(١).

– ما يكون بين المقاطع المتتابعة:

تقدّم ذكر مقاطع سورة النساء، وهي ثلاثة عشر مقطع، فكيف وضّح ابن عاشور العلاقة بينها؟

جاء المقطع الثاني من السورة الكريمة بين الآيات (١٩ - ٢٨) للحديث عن تكريم المرأة وحقوقها كزوجة، بعد أن تقرّر في المقطع الأول وحدة أصل البشرية، ومنع العدوان على المال والنسل. يقول ابن عاشور بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، "استئناف تشريع في أحكام النساء التي كان سياق السورة لبيانها، وهي التي لم تزل آيها مبيّنة لأحكامها تأسيساً واستطراداً، وبدءاً وعوداً، وهذا حكم تابع لإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من جعل زوج الميت مورثة عنه"^٢. فالموضوع الأساس لسورة النساء، هو تنظيم المجتمع المسلم وضبط علاقاته الداخلية والخارجية، وأحكام الأسرة وحقوق النساء له موقع كبير فيها، فتأتي هذه الأحكام في المكان الذي يتنبّه القارئ لها فيه.

أما المقطع الثالث (٢٩ - ٤٣) فتناول الحديث عن حرمة الأموال والقوامة المالية في الأسرة، وبين ابن عاشور موقع هذه الآيات من السورة فقال بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، "استئناف من التشريع المقصود من هذه السورة، وعلامة الاستئناف افتتاحه بـ (يا أيها الذين آمنوا)، ومناسبته لما قبله أنّ أحكام الموارث والنكاح اشتملت على أوامر بإيتاء ذي الحق في المال حقه، كقوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾

١- التحرير والتنوير، ٥ / ١٩١.

٢- التحرير والتنوير، ٤ / ٢٨٢.

فَرِيضَةً ﴿ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤].. فانتقل من ذلك إلى تشريع عام في الأموال والأنفس"١.

وجاء المقطع الرابع بالحديث عن اليهود ودورهم التخريبي في المجتمع، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَلْتَمَسُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] وما بعدها، فبين ابن عاشور صلته بما قبله، حيث قال: "استئناف كلام راجع إلى مَهَيِّع الآيات التي سبقت من قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فإنه بعد نذارة المشركين وجّه الإنذار لأهل الكتاب، ووقعت آيات تحريم الخمر وقت الصلاة، وآيات مشروعَةِ الطهارة لها فيما بينهما، وفيه مناسبة للأمر بترك الخمر في أوقات الصلاة والأمر بالطهارة، لأنَّ ذلك من الهدى الذي لم يسبق لليهود نظيره، فهم يحسدون المسلمين عليه، لأنَّهم حُرِّموا من مثله وفَرَّطوا في هدى عظيم، وأرادوا إضلال المسلمين عداء منهم"٢. فابن عاشور بيّن هنا مناسبة الحديث عن اليهود بعد ما ذُكر من موضوعات.

وتناول المقطع الخامس من السورة الحديث عن طاعة الله وطاعة الرسول وأُتِمَّ أساس الدين، وذلك بين الآيات (٥٩ - ٧٠)، ثمَّ أعقبه بالحديث عن القتال في المقطع السادس بين الآيات (٧١ - ٩٤) من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْانْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، فبين ابن عاشور صلته بما قبله حيث قال: "استئناف وانتقال إلى التحريض على الجهاد بمناسبة لطيفة، فإنه انتقل من طاعة الرسول إلى ذكر أشدِّ التكاليف، ثمَّ ذكر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكان الحال أدعى إلى التنويه بشأن الشهادة دون بقيَّة الخلال المذكورة معها الممكنة النوال"٣. فهنا قدَّم الأمر بعموم الطاعة، ثمَّ خصَّ الجهاد بالذكر لأنَّه أشدُّ التكاليف.

وهكذا يمضي ابن عاشور في البيان، وحديثه هنا أقرب إلى بيان المناسبات بين الآيات المتتابعة، وإن كان يوضِّح أحياناً المناسبة بين موضوع الآية وما قبلها من مواضع. فهو لم يقسِّم السورة إلى عدَّة مقاطع، لكنَّه بيّن أوجه الصلة بين موضوعاتها.

١- التحرير والتنوير، ٥/ ٢٣.

٢- التحرير والتنوير، ٥/ ٧١. والمهَيِّع، هو: الطريق الواسع المنبسط. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (هَيِّع)، ٦/ ٤٧٣٧.

والمراد في قول ابن عاشور، هو: سياق الآيات.

٣- التحرير والتنوير، ٥/ ١١٧.

- المواضع التي لم يذكرها ابن عاشور في تفسيره لسورة النساء^١:

- في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]

أفاد تقديم الخبر (لهم) تأكيد نفي علم اليهود المختلفين في شأن عيسى عليه السلام بحقيقة ما حصل له^٢، والصحيح أنه لم يقتل ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

- وفي قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

أفاد تقديم خبر كان (للناس) أو (على الله) على اسمها (حجة) بيان الاهتمام بقطع الحجة عن الناس وانتفاء العذر لهم^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

اسم الاستفهام (فيم) في محل رفع خبر مقدم، وأفاد تقديمه توبيخ المخاطبين في الآية وتقريعهم لتهاونهم في امتثالهم لأمر الله تعالى^٤.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

أمر الله تعالى ورثة الميت أن يعطوا شيئاً ولو يسيراً من مال الميت للمحتاجين، و"قدّم اليتامى على المساكين لأنّ ضعف اليتامى أكثر، وحاجتهم أشد، فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم في الأجر"^٥.

١- هنا بعض من المواضع التي لم أذكرها في الفصل السابق المتعلق بالتقديم والتأخير عند الزمخشري.

٢- ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٣/ ٩٨٥.

٣- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ١٠٩، وتفسير أبي السعود، ٢/ ٢٥٦، وبلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي عون، ٣/ ١٠٠٠.

٤- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ٤٠.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

قدّم ذكر الإيمان بالله تعالى على الإنفاق من رزقه للاهتمام به وتخصيصه بالذكر، ولأنّه لا يصح عمل بدونه^٢.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

تبين الآية بيان خطئ المنافقين في ستر آثامهم بالكذب وتلفيق الأعداء، وعدم التوبة، وأفاد تقديم الظرف (إذ ظلموا) على الخبر (جاءوك) معنى المسارعة بالقدوم إلى النبي عليه السلام وتقديم الاعتذار الصادق^٣.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤].
قدّم الجار والمجرور (في سبيل الله) على الفاعل، لأنّه محل الاهتمام وعليه مدار الكلام^٤.

- وفي قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].
ذكرت الآية صفات المؤمنين من أهل الكتاب، فهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي محمد ﷺ، وبما أنزل من قبله، ويقيمون الصلاة، ويؤدّون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، فأخّر ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر و"قدّم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنّه المقصود بالآية"^٥.

١- تفسير الرازي، ٩/ ٥٠٤.

٢- ينظر: تفسير البضاوي، ٢/ ٧٤، وتفسير أبي السعود، ٢/ ١٧٧.

٣- ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ١٩٦.

٤- ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ٢٠١.

٥- تفسير البضاوي، ٢/ ١٠٩.

- وفي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].
وصف الله تعالى القرآن بالنور المبين، وأخبر بأنه أنزله هداية للناس، فقدم الجار والمجرور (إليكم)
على المفعول (نوراً) للاهتمام بالمخاطبين، ولأنَّ في تأخير المفعول تشويق له، ولمراعاة فواصل الآيات^١.

المبحث الرابع: كيفية تعامل ابن عاشور مع أسلوب التقديم والتأخير:

إنَّ تفسير التحرير والتنوير من التفاسير البلاغية المطوّلة، فابن عاشور يشرح ما في الآيات من
بلاغة، ويفصّل القول في كثير من المواضع، وهنا بيان لطريقة تعامله مع أسلوب التقديم والتأخير.
والنتائج المذكورة هنا إنما هي نتاج استقراء لمواضع أسلوب التقديم والتأخير في سورتي هود والنساء، من
خلال تفسير التحرير والتنوير.

- الخطوط العامة لتناول ابن عاشور لأسلوب التقديم والتأخير:

- اهتمَّ ابن عاشور بالجانب البلاغي لأسلوب التقديم والتأخير.
- وهو في تحليله لمواضع التقديم والتأخير في الآية، فإنَّه ييسط القول في أغراض هذا الأسلوب،
وبيِّن أثره على المعنى، وكثيراً ما يستنبط أكثر من غرض للتقديم في الموضع الواحد.
- وأحياناً يبيِّن الغرض من التقديم، وأثره على المعنى دون أن يصرِّح بذكر التقديم والتأخير.
- وقد يذكر أقوال غيره من العلماء في موضع من مواضع التقديم والتأخير، دون أن يعقِّب عليه.
- وقد يبيِّن إلى مواضع التقديم والتأخير، ويحلِّلها _ من غير تكلف _ مبيناً أثرها على المعنى، في
حين أنَّ غيره من المفسرين لم يؤوِّل الآية على التقديم والتأخير، وإنما جعلها على ترتيبها.
- اهتمَّ ابن عاشور بالمتشابه اللفظي، فنَبَّه إلى موضع واحد في سورة هود، وبيَّن الغرض من مغايرة
الترتيب في كلِّ من الآيتين، وبيَّن أثره على المعنى.

١- ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ٢٦٣.

- اهتم ابن عاشور ببيان المناسبات بين الآيات المتتابة، وكان يذكر أحياناً الغرض والفائدة من تقديم الآيات بعضها على بعض.

- في حين أنه لم يُعَنَّ بشكل واضح ودائم ببيان ما بين مقاطع السورة من تقديم وتأخير، ذلك لأنه لم ينطلق في تفسيره للصور من تقسيمها إلى مقاطع رئيسية، وإنما كان اهتمامه بالكشف عن المناسبات بين الآيات، يوضِّح الحكمة من تعاقب مقاطع السورة أحياناً.

- اهتمَّ بالفاصلة القرآنية، ولم يكتف بمراجعتها غرضاً للتقديم، وإنما يبيِّن الأثر المعنوي لها أيضاً.

- وكذلك اهتمَّ بالتذييل وأثره على المعنى في القرآن الكريم، وإن كان لا يشير إلى أثر التقديم والتأخير فيه على نحو دائم.

- آراء ابن عاشور في التقديم والتأخير، والأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب عنده:

- اهتمَّ ابن عاشور بأسلوب التقديم والتأخير في جانبيه اللفظي والمعنوي، وفي كثير من المواضع بيَّن الغرض من تقديم المبتدأ على الخبر.

- إنَّ تقديم المعمول على عامله لا يفيد التخصيص أو الحصر مطلقاً.

- وإنما الأمر في بيان الغرض من التقديم والتأخير عائد إلى سياق الآية، فهو الذي يحدِّد دلالة التراكيب وما يُراد منها.

- إنَّ ابن عاشور كثيراً ما يصرِّح بنفي الحصر أو التخصيص إذا كان الموضع يحتمله عادة، ويوضِّح سبب ذلك من خلال معنى الآية، ويشير إلى الغرض المراد من التقديم في ذلك الموضع.

- من آثار التقديم والتأخير عند ابن عاشور، الأثر النحوي، كما في قوله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هوداً..) فتقديم المجرور أفاد التنبيه على أنَّ العطف من باب عطف المفردات، لا عطف الجمل.

- ويرى أنَّ البلاغة تكون أيضاً في ترتيب الأحداث وفق ما جاءت عليه في الواقع، وذلك لمراعاة أغراض نفسية يشرحها في موضعها، كما في الآية (٧٧) من سورة هود.

- اهتمَّ ابن عاشور بالجانب النفسي للمتلقي، ونظر إليه كغرض من أغراض التقديم والتأخير، فالتقديم يكون لمراعاة حال السامع، أو لأنَّ المقدم أقرب إليه من غيره، أو لتشويقه للمتأخِّر، وغير ذلك مما ورد.

- وكذلك اهتمَّ بالسياق، فالتقديم والتأخير يكون لمراعاة السياق، كما أنَّ السياق هو الذي يحدِّد الغرض المراد من هذا الأسلوب.

- اهتمَّ ابن عاشور ببيان بلاغة النظم القرآني، فقد يكون الغرض من التقديم والتأخير تقريب ما يمكن تباعده من الكلام، كما في الآية (١٢) من سورة هود.

- إنَّ تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، قد يفيد الاختصاص، وقد يفيد الاهتمام، وأحياناً يكون لتقوية الحكم وتأكيده، وقد يكون لغير ذلك، وسياق الآيات هو الذي يحدِّد المراد.

- من الأغراض البلاغية لأسلوب التقديم والتأخير التي ذكرها ابن عاشور في سورتي هود والنساء:

الاختصاص، الاهتمام، التعظيم، التنبيه، التقوي، التشويق للمؤخِّر، التناسب المعنوي، التفنُّن، التمهيد، مراعاة الفاصلة، ترتيب الأولويات، تريق النفوس، الترقى من الأدنى إلى الأعلى.

الفصل الرابع: المقارنة بين جهود الزمخشري وابن عاشور في التقديم والتأخير:

- المبحث الأول: نقاط الاتفاق.
- المبحث الثاني: نقاط الاختلاف.
- المبحث الثالث: محاولة في التقويم.

بعد العرض السابق لمواضع التقديم والتأخير في سورتي هود والنساء، عند كلٍّ من الزمخشري وابن عاشور، يظهر جلياً الفرق بين كلا المفسرين من ناحية التوسع في الإشارة إلى هذا الأسلوب واستنباط دلالاته وأثره على المعنى، وهذا أمر بدهي يعود إلى طبيعة كل تفسير منهما فالكشاف تفسير موجز، بينما التحرير والتنوير ينحى إلى التفصيل والتطويل. وسيبين هذا الفصل نقاط الاتفاق والاختلاف بين كلا المفسرين في طريقة تعاملهما مع أسلوب التقديم والتأخير من خلال المواضع المشتركة في دراستهما لهذا الأسلوب.

المبحث الأول: نقاط الاتفاق:

اهتمَّ كلُّ من الزمخشري وابن عاشور بنوعي التقديم والتأخير (المعنوي واللفظي)

- في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

نبّه كلُّ من الزمخشري وابن عاشور إلى تقديم الظرف على عامله، وأجازا ذلك، إلا أنَّهما اختلفا في تحليلهما له كما سيأتي في المبحث الثاني.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

بيّن كلُّ منهما دلالة تقديم المسند إليه (هو) على (المسند) وهي تخصيص الله تعالى بالخلق والإنشاء، وكلاهما لم يصرّح بالتقديم في هذا الموضع، وإنّما اكتفيا ببيان دلالاته على المعنى. فقال الزمخشري: "هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" لم ينشئكم فيها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره^(١). وباللفظ نفسه عبّر ابن عاشور عن هذا المعنى^٢.

١- الكشاف، ١/ ٥٠٩.

٢- ينظر: التحرير والتنوير، ١٢/ ١٠٨.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

بيّن كلٌّ من الزمخشري وابن عاشور دلالة تقديم الاستغفار على التوبة، وتقاربا في بيانها، فتقديم الله تعالى للاستغفار على التوبة هو تقديم لما يجب أن يكون أولاً، فمعنى الترتيب في حرف العطف (ثم) مقصود، ومنه استنبط الزمخشري هذه الدلالة، حيث قال: "فإن قلت ما معنى (ثم) في قوله ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة"^(١).

وقد أضاف ابن عاشور معنى آخر، وهو تقديم الأهم، فقال: "و(ثم) للترتيب الرتبي، لأن الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام..."^(٢)، فلاستغفار اعتراف منهم بفساد فعلهم (عبادة الأصنام)، وهذا لا بدّ منه حتى تصح التوبة، فكان مقدّماً.

- وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١١].

تقدّم ذكر الوصية على ذكر الدين، رغم أنّها تُؤدّي من الميراث بعد ما تُؤدّي ديون المتوفّي، والغرض من هذا التقديم: كما يرى كلا المفسرين: تأكيد أهميّة الوصية، وتأكيد لزومها والحثّ على المسارعة في إخراجها، حتّى لا يتهاون الناس في أدائها.

قال الزمخشري: "فإن قلت لم قدّمت الوصيّة على الدين، والدين مقدّم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشقّ على الورثة

١- الكشف، ١/ ٤٩٥، والموضع الآخر في: ١/ ٥٠٧.

٢- التحرير والتنوير، ١١/ ٣١٧، وفي موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٌ اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، ينظر: ١٢/ ٩٦.

ويتعاضمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنةً للتفريط. بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدّمت على الدين، بعثاً على وجوبها والمسارة إلى إخراجها مع الدين^(١).

وأضاف ابن عاشور دلالة أخرى: وهي مراعاة حال السامع، فلا أحد يجهل حقيقة أنّ الدين مقدّم على غيره من الالتزامات المالية. يقول في ذلك: "والقصد هنا التنبيه على أهمية الوصية..، وإنما ذكر الدين بعدها تمييزاً لما يتعيّن تقديمه على الميراث مع علم السامعين أنّ الدين يتقدّم على الوصية أيضاً، لأنّه حقّ سابق في مال الميّت، لأنّ المدين لا يملك من ماله إلا ما هو فاضل عن دين دائنه"^(٢).

المبحث الثاني: نقاط الاختلاف:

إنّ الزمخشري في بيانه لدلالة التقديم والتأخير لا يصرح بآراء غيره من العلماء، في حين أنّ ابن عاشور قد يذكر آراء غيره من العلماء في الموضوع الذي يدرسه، وإن لم يعقب عليها.

إنّ الاهتمام بالفاصلة القرآنية كان أوضح عند ابن عاشور، وكما سبق فإنّ ابن عاشور لم يكتف بالجانب اللفظي من الفاصلة وإنما بيّن أثرها على المعنى أيضاً، في حين أنّ الزمخشري لم يُبد كثير اهتمام بالأمر فلم يرد في تفسيره لسورتي (هود والنساء) بيانه لغرض التقديم والتأخير بأنّه مراعاة الفاصلة.

وكذلك الأمر بالنسبة للمتشابه اللفظي في القرآن، فقد أورد ابن عاشور موضعاً في سورة هود، تقدّم في آية ما تأخّر في أخرى، وبيّن أثر ذلك على المعنى، في حين أنّ الزمخشري لم يتطرّق لهذا الأمر.

ومثل ذلك في الاهتمام بالترتيب بين الآيات المتتابعة، والمقاطع المتتابعة في السورة القرآنية، فكان اهتمام ابن عاشور بهذا الجانب أكبر، وكلّ ذلك مبين في الفصول السابقة.

١- الكشف، ١ / ٢٢١، ينظر: معاني القرآن الكريم، النحاس، ت: محمد علي الصابوني، ط ١ (مركز إحياء التراث الإسلامي،

١٩٨٨م) ٢ / ٣٢-٣٣، ومفاتيح الغيب، الرازي، ٩ / ٥١٨، ومحاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، ٥ / ١١٤٤.

٢- التحرير والتنوير، ٤ / ٢٦١.

إنَّ تقديم المسند إليه يفيد التخصيص عند الزمخشري، في حين أنَّ الأمر أوسع عند ابن عاشور، والمعوَّل عليه عنده هو السياق، فإن احتمل السياق معنى التخصيص كان، وإلا فقد يكون لتقوية الحكم وتأكيده، أو لبيان الاهتمام بشأنه، كما سبق تفصيله، "فالتركيب بذاته لا يفيد التخصيص، وإنما يستفاد من بعض مواقفه معنى التخصيص بالقرآن"^(١).

هذا على العموم، أمَّا الاختلاف في التحليل فيبيِّنه ما يلي:

- في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

حيث تقدَّم الظرف (يوم) على عامله (مصروفاً)، فجعل الزمخشري من هذه الآية شاهداً على جواز تقديم خبر ليس عليها، ولم يذكر الجانب البلاغي لهذا التقديم، فقال: "و﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنَّه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها، إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل"^(٢).

في حين أنَّ ابن عاشور بيَّن أثر هذا التقديم على المعنى، ولم يتطرق للخلاف النحوي الوارد، فقال: "وتقديم الظرف للإيماء بأنَّ إتيان العذاب لا شكَّ فيه حتى أنَّه يوقَّت بوقت"^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ [هود: ٩١].

تقدم المبتدأ (أنت) على خبره، والغرض من هذا التقديم عند الزمخشري: تخصيص صاحب الضمير (الرسول شعيب) بانتفاء عزته عند قومه. قال الزمخشري: "وقد دلَّ إيلاء ضميره حرف النفي، على أنَّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، وكأنَّه قيل: وما أنت علينا بعيز، بل رهطك هم الأعزَّة

١- الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة، دراسة تطبيقية، رسالة ماجستير إعداد: خالد العثيم، إشراف الدكتور: صالح الزهراني، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٨م، ص ٤٥٠.

٢- الكشف، ١/ ٤٩٧.

٣- التحرير والتنوير، ١٢/ ١١.

علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]، ولو قيل: (وما عززت علينا) لم يصح هذا الجواب^(١). ففي حال النفي يتقدّم بعده ما الكلام متجه إليه، وهو محلّ النفي، فلمّا نفى الكفار مكانة شعيب عليه السلام (رسولهم) قدّموا ذكره في كلامهم، فجاء الضمير المعبر عن الرسول بعد حرف النفي، ولم يقدّموا الفعل، فلم يقولوا (وما عززت علينا) فالإنكار والخذلان متّجه إلى ذات الرسول لأنّه جاءهم بما يحوّلهم عما كان عليه آبائهم^(٢).

في حين أنّ ابن عاشور لم ير في التقديم تخصيصاً ونفى احتمالاً، ويبيّن أثر التقديم على المعنى، فرأى أنّه تحذير من القوم لرسولهم من الاستمرار في دعوتهم إلى التوحيد، فقال: "فمعنى ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أنّك لا تستطيع غلبتنا، وقصدهم من هذا الكلام: تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه، بأنّهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه... وليس تقديم المسند إليه على المسند... بمفيد تخصيصاً ولا تقويّاً"^(٣).

- وفي قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّ﴾ [النساء: ١١].

قدّم بيان نصيب الذكر على الأنثى، فرأى في ذلك الزمخشري دلالة على فضل الذكر على الأنثى، ويبيّن دلالة أخرى أهم من هذه، وهو تأكيد حق الإناث في الميراث، فعادة العرب قبل الإسلام ألا يورثوا النساء، فدلت الآية بنظمها هذا أنّ نصيب الأنثى ثابت مقرّر، وجعلت نصيب الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى. يقول الزمخشري في هذا: "فإن قلت هلاًّ قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ قلت: ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظّه لذلك... ولأنّهم كانوا

١- الكشف، ١/ ٥١٦.

٢- ينظر: على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

٣- التحرير والتنوير، ١٢/ ١٥٠.

يُورثون الذكور دون الإناث — وهو السبب لورود الآية — فقل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يُتمادى في حظهنَّ حتى يُحرمن مع إدلائهنَّ من القرابة بمثل ما يدلون به" (١).

في حين أنَّ ابن عاشور لم يرَ في هذا التقديم بياناً للأفضلية، وإنَّما هو بيان وتأكيد لنصيب الأنثى من الميراث، وبهذا وافق المعنى الآخر الذي أشار إليه الزمخشري، يقول ابن عاشور في هذه الآية: "وتقديم الخبر على المبتدأ في هذه الجملة، للتنبيه من أوَّل الأمر على أنَّ الذكر صار له شريك في الإرث وهو الأنثى، لأنَّه لم يكن لهم به عهد من قبل، إذ كان الذكور يأخذون المال الموروث كلَّه ولا حظَّ للإناث" (٢).

المبحث الثالث: محاولة في التقويم:

في هذا المبحث نظرة على دراسة أسلوب التقديم والتأخير من جانبين:

الأول: التقديم والتأخير بين الزمخشري وابن عاشور مع غيرهما من المفسرين.

والثاني: التقديم والتأخير بين القرآن المكِّي والمدنيّ.

الجانب الأول: التقديم والتأخير بين الزمخشري وابن عاشور مع غيرهما من المفسرين:

مما سبق تبين أنَّ هناك مواضع عديدة للتقديم والتأخير في كلِّ من سورتي (هود والنساء) لم يذكرها الزمخشري ولا ابن عاشور في تفسيريهما، ولا عجب في ذلك فكلُّ مفسِّر لكلام الله تعالى يسير على منهج يحدِّده، فيستخدم تبعاً لذلك ما يحتاجه من أدوات في التفسير.

وإذا تساءلنا هل يمكن حصر مواضع التقديم والتأخير في السورة القرآنية بعدد معيَّن؟ فالجواب

كالتالي:

١- الكشف، ١/ ٢٢٠.

٢- التحرير والتنوير، ٤/ ٢٥٧.

إنَّ التقديم الذي على نيّة التأخير يمكن حصره بعدد معيّن في السورة، نظراً لكونه يقوم على مخالفة الترتيب المعهود للجملة، أمّا بالنسبة للتقديم الذي ليس على نية التأخير فإنّ السورة بأكملها تصلح لأن تكون محلاً لدراسة وبيان الغرض من تقديم الكلمات والجمل بعضها على بعض.

لا يكاد يخلو كتاب في التفسير من بيان التقديم والتأخير، وأثر السياق في فهمه، ذلك أنّ "القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ، ورصفها بجنب بعض دقّة عجيبة، فقد تكون له خطوط عامّة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كلّ ذلك مُراعى فيه سياق الكلام، والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة"^(١)، وإنّ كلّ مفسّر لكلام الله تعالى يتطرّق إلى بيان دلالة التقديم والتأخير بما يخدم غرضه من التفسير، فالزمخشري عرّج على بلاغة هذا الأسلوب، لأنّه قصد الإيجاز في تفسيره، فلم يأت على أغلب مواضعه، بينما نرى ابن عاشور الذي اهتمّ بالسياق العام للآيات قد تناول هذا الأسلوب بشكل أوسع، لما له من إثراء للمعنى.

وقد تطوّرت دراسة هذا الأسلوب عند ابن عاشور عما كانت عليه عند الزمخشري، من حيث ذكره لمواضع التقديم والتأخير، ومن حيث بيان دلالتها وأثرها على التفسير.

الجانب الثاني: التقديم والتأخير بين القرآن المكي والمدنيّ:

إنّ القرآن المكي يختلف عن القرآن المدني من عدة جوانب، يختلف من حيث الأسلوب، ومن حيث المخاطبون، ومن حيث الموضوعات المتناولة.

فلما كان الخطاب في القرآن المكي للناس كافّة مؤمنهم وكافرهم، وكانت الموضوعات حول إثبات ألوهية الله تعالى ووحدانيته ومختلف أمور العقيدة، ومحاجة الكافرين ورد شبههم، جاء أسلوب التقديم

١- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، ط ٣ (عمّان، دار عمار، ٢٠٠٤م) ص ٥٣، وينظر: وظائف السياق في التفسير القرآني، د. عقيد العزاوي، ود. محمد شاكر الكبيسي، ط ١ (دمشق، دار العصماء، ٢٠١٥م) ص ١٤٢.

والتأخير لخدمة هذا الغرض، فظهرت الوظيفة الحجاجية بصورة واضحة لإقناع الخصم ودحض الشبهات، وكثرت مواضعه مقارنة بالقرآن المدني، للفت الانتباه وجذب الأسماع لما يُراد تقريره.

أمّا القرآن المدني فكان يخاطب المؤمنين خاصة، ويشترع لهم أحكام دينهم، ويحذّرهم ممن حولهم من أعداء الدين، فنجد أنّ أسلوب التقديم والتأخير قد خدم هذه الأغراض، فترتيب الكلام في آيات الأحكام يدلّ على حكم فقهي.

إنّ القرآن المكي يختلف عن القرآن المدني في مدى استخدامه لأسلوب التقديم والتأخير، وأيضاً فإنّ دلالة هذا الأسلوب تختلف في المكي عما هي عليه في المدني، وذلك تبعاً لموضوعات كلّ منهما ولظروف التنزيل.

الخاتمة:

لا تخفى أهمية البحث في دلالة أسلوب التقديم والتأخير في استخراج درر الكلام وكوامنه، وهي تفتح الأبواب لمزيد من الدراسات، فلا يكفي في البحث البلاغي الإشارة إلى الأسلوب البلاغي الموجود، وإنما لا بدّ من توضيح دلالاته وبيان أثره على المعنى لتحقيق أكبر قدر من الفائدة، وقد حاولت إبراز جهود علمين من أعلام المفسرين اهتماماً بالجانب البلاغي، في الكشف عن دلالة أسلوب التقديم والتأخير.

وهنا أورد خلاصة ما جاء في البحث، لكن فيما يتعلّق بالمقارنة بين عمل كلّ من الزمخشري وابن عاشور فسأكتفي بما ذكر في الفصل الرابع، ولا داعي لتكراره هنا.

- لا يمكن للبلاغة أن تقوم دون الاعتماد على النحو، فالنحو يبحث في صحة التركيب وخطئه وربما تعرّض لبعض جمالياته، أمّا البلاغي فينطلق من قاعدة النحو لبحث عن القيم الجمالية في التراكيب.

- إنّ بذور نظرية النظم موجودة في دراسات السابقين للجرجاني، إلا أنّ الجرجاني يُعدّ المؤسس والشارح الأول لها بما بيّنه في كتابه (دلائل الإعجاز)، فقد جمع في طريقة دراسته للأساليب البلاغية ما تناوله البلاغيون مفرّقاً.

- إنّ أسلوب التقديم والتأخير جزء لا يتجزأ من النظم، فهو يهتمّ بطريقة ترتيب الكلام ليؤدّي المعنى المراد حسب ما يقتضيه الحال، وجوهر نظرية النظم يقوم على دراسة طرق ضمّ الكلام بعضه إلى بعض.

- إنّ للسياق دوراً كبيراً في تحديد الغرض المراد من التقديم والتأخير.

- إِنَّ بعض مواضع التقديم والتأخير لا يمكن تفسير الآية بدونها، فهي التي توجّه المعنى، والبعض الآخر (كالترتيب بين المعطوفات) فإن الكشف عن دلالاته يضيف معان أخرى للآية القرآنية، ويعطي إضاءات ولفترات بلاغية تزيد الرصيد البلاغي للمتلقّي.

- كثيراً ما يكون الغرض من التقديم هو الاهتمام، إلا أنّه لا يُقصد منه مطلق الاهتمام، إنّما هو الاهتمام في هذا الموضع وهذا الجزء من السياق.

- إِنَّ التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية لم يكن لمراعاة الجانب الجمالي أو الإيقاعي فقط، وإنّما له أثر على المعنى يقتضيه المقام، فكلّ كلمة في القرآن جاءت في مكانها لتؤدي معنى لا يستقيم الكلام بغيرها.

- إِنَّ دراسة أسلوب التقديم والتأخير عند ابن عاشور قد تطوّرت عما كانت عليه عند الزمخشري، من حيث ذكره لمواضع التقديم والتأخير، ومن حيث بيان دلالتها وأثرها على التفسير.

وختاماً لا بدّ من القول: إنّ الدراسة المسحية الشاملة للأساليب البلاغية في القرآن الكريم عند مفسر ما _ باستقراء كامل تفسيره _ هي الطريق الأمثل للكشف عن طريقة تعامله مع هذه الأساليب، وهذا ما توصي الدراسة به.

هذا ولا يسلم من العيب والنقص والزلل إلا كلام الله ﷻ وكلام نبيّه المصطفى ﷺ، وأستغفر الله عما وقع مني من خطأ أو زلل، وأسأله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبّله منّا بقبول حسن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الفهارس العامة

فهرس الآيات.

فهرس الأحاديث.

فهرس الأشعار.

فهرس المصطلحات.

فهرس الأعلام.

فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصحيفة
سورة الفاتحة		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾	٢	١٥٣، ٧٥
﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	٣	١٥٣
﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٤	١٥٣
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	١٥٣، ٩٣، ٦٧، ٥٧
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	١٥٣
سورة البقرة		
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾	١٠	١٤٨
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	٢٦	٦٣
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٤٣	٥٧
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾	٥٨	٧١
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾	٦٢	١٣٢
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	١١٩	١٠٩
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	٩٤
﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾	١٩٧	١٤٩
﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾	٢١١	١٤٨
﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	٢٣٣	٧٥
﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾	٢٥٥	٦٠
﴿يُودُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلِ﴾	٢٦٦	١٥٤
﴿وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوقَفَ إِلَيْكُمْ﴾	٢٧٢	٧٤
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾	٢٨٣	٦٣

٦٩	٢٨٥	﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾
٩٤	٢٨٦	﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾
سورة آل عمران		
٦٩	٣	﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾
٦٩	٤	﴿مَنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾
٥٨	١٤	﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾
١٣٠	١٨	﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
٥٨ ، ٣٣	٧٥	﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
٤١	٧٨	﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السَّيِّئِينَ بِالْكَلْبِ﴾
٧٠	١٠٦-١٠٧	﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾
١١٨	١٣٥	﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
٥٧	١٥٨	﴿وَلَيْنَ مُتَمِرًا وَقَتْلَتُمْ لِيَ اللَّهِ تُخْشَرُونَ﴾
سورة النساء		
١٩١ ، ١٨٨	٢	﴿وَأَتُوا الَّتِي تَمَى أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ﴾
١٢٦ ، ٦٩	٣	﴿مَتْنًى وَثُلْثَ وَرُبْعٍ﴾
١٩٢	٤	﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾
١٨٨	٥	﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾
١٢٧ ، ١٢٤	٦	﴿وَابْتَلُوا الَّتِي تَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾
١٨٧	٧	﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...﴾
١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٨٧ ، ١٩٣	٨	﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالَّتِي تَمَى وَالْمَسْكِينُ﴾
١٧٧	٩	﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾
١٢٤	١٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الَّتِي تَمَى ظُلْمًا﴾
٥٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣	١١	﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣		
١٢٣ ، ١٨٣	١٢	﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾
١٢٥	١٨	﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
١٩١	١٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾
١٢٦	٢٢-٢٣	﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾
١٩١	٢٤	﴿فَمَا تَوْهَنُ أَجُورُهُنَّ فَرِيضَةً﴾
١٧٧	٢٧	﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾
١٨٠ ، ١٩١	٢٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾
١١٧	٣١	﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾
١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٨٣	٣٢	﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
١٧٥	٣٣	﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَاتِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾
١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧	٣٤	﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾
١٧٥ ، ١٨٩ ، ١٩٢	٣٦	﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾
١٧٩	٣٧	﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٨٩	٣٨	﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾
١٣١ ، ١٩٤	٣٩	﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
١١٧	٤٠	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾
١١٧ ، ١٣١	٤١-٤٢	﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾
١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦	٤٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾
١٣٥ ، ١٩٢	٤٤	﴿الَّذِينَ ءَالَزُوا النَّاسَ أَوْ ءَانَصَبُوا مِنَ الْكِتَابِ﴾
٧٤ ، ١١٧	٤٨	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	٥٤-٥٥	١٣٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾	٥٩	١٢٩
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾	٦٣	١٨٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٦٤	١١٧، ١٩٤
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾	٦٩	١٢٧، ١٣٥
﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا حذرَكُمْ﴾	٧١	١٣٥، ١٨١، ١٩٠، ١٩٢
﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٧٤	١٩٤
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٧٥	١٣٣، ١٣٤
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾	٧٧	١٨٩
﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾	٨٦	١٢٨
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾	٨٧	١٧٧
﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾	٩٢	١٣١
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٩٤	١٢٥، ١٣٦، ١٨٧
﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾	٩٥	١٢٥، ١٣١، ١٣٥، ١٨٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمْ تَكُنْ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾	٩٧	١٩٣
﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾	٩٨	١٨٠
﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾	١٠١	١٣٣
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾	١٠٥-١٠٩	١٩٠
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾	١١٠	١١٧، ١١٨
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	١٢٣	١٣٢، ١٧٩
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾	١٢٤	١٢٥، ١٢٧، ١٣٢
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	١٢٦	١٢٥

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾	١٢٧	١٧٦
﴿وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلَّ مَنْ سَعَتِهِ﴾	١٣٠	١٨٥
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾	١٣٥	١٣٠
﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾	١٣٨	١٣٣
﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُجَادِلٌ وَسِيلًا﴾	١٤٣	١٣٤
﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾	١٤٧	١٢١
﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا﴾	١٤٨	١٢١
﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾	١٤٩	١٢١، ١٢٢
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ سَوَّلَ لَهُمْ يُقْرِئُوا بَيِّنَاتٍ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾	١٥٢	١٨٥
﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾	١٥٧	١٩٣
﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	١٥٨	١٩٣
﴿فَإِظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾	١٦٠-١٦١	١٢٨
﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾	١٦٢	١٩٤، ١٣٢
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾	١٦٣-١٦٤	١٨٥
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾	١٦٥	١٨٥، ١٩٣
﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾	١٧١	١٨٨، ١٨١، ١٢٨
﴿لَنْ يَسْتَكْفِيَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ﴾	١٧٢	١٨٨
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾	١٧٤	١٩٥
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾	١٧٥	١٢٩
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾	١٧٦	١٧٦
سورة المائدة		
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ﴾	٧	١٣٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾	٨	١٣٠
﴿وَاذْكَرُوا مَوْسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِمُوا أَدْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾	٢٠	١٥٤

﴿لَيْنُ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لَتَقْتُلَنِي﴾	٢٨	٧٦
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾	٣٧	٤٢
﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾	٦١	٥٨، ٣٤
﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾	١١٦	٩٥
سورة الأنعام		
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾	١	٦٩
﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا﴾	١٤	٦٥
﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِبِّ﴾	١٠٠	٦٣، ٥٨
﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾	١٠٤	١٥٥
﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾	١٢٦	١٥٦
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾	١٥١	٧٠
سورة الأعراف		
﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾	١٦١	٧١
﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا﴾	١٩٥	٥٩
﴿إِنَّ وَلِيَیَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾	١٩٦	٣٤
سورة الأنفال		
﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾	٨	١٥٦
سورة التوبة		
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ﴾	٣٤	٩٣
﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾	١٠١	٤٣
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾	١١١	١٣١
سورة يونس		
﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِهَمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾	٢٢	٩٣
﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾	٤٢	٧٤

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾	٥٩	٣٠
سورة هود		
﴿الرَّكِبِ أَحْكَمَتْ أَيْتُهُ وَثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾	١	١٠٢
﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾	٢	١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٦٢
﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُوبِيَكُمْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ﴾	٣	٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ١٦٢
﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٤	١٠٥ ، ١٥٧
﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾	٥	١٦٣
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾	٦	١٠٥ ، ١٥٨ ، ١٦٣
﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾	٨	٩٨ ، ١٥٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢
﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾	١٢	١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٣
﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾	١٣-١٤	١٠٨ ، ١١٤
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾	١٥	١١٤
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾	١٦	١١٤ ، ١٧٤
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾	٢١	١٠٩
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾	٢٣	١٠٩
﴿مِثْلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ﴾	٢٤	١٠٩
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾	٢٥	١٦١
﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾	٢٧	١١٠
﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾	٢٨	١١٠ ، ١١٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧
﴿وَلَكَئِي أَرْكُم قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾	٢٩	١٦٧

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾	٣٠	١٦٧
﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾	٣٣	١٠٦
﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيَإِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾	٣٤	١٦٧
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾	٣٥	١٦٧ ، ١٥٩
﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾	٣٦	١٦٧
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾	٣٩	١١٢
﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُدُهَا وَمُرْسِلَهَا﴾	٤١	١٠٦ ، ٩٦
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي﴾	٤٤	١٦٥ ، ١٠٨
﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾	٤٥	١٦٤
﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٤٧	١٦٣
﴿قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾	٤٨	١١٣ ، ١٠٨
﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾	٥٠	١٦١
﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾	٥٢	١٠٨
﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾	٥٣	١٧٣ ، ١٦٣
﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَآشْهَدُ وَأَنَا بَرِيءٌ﴾	٥٤-٥٥	١٦٣
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾	٥٧	١٠٣
﴿أَلَا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ﴾	٦٠	٩٦
﴿وَالِإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾	٦١	٩٩ ، ١٠٢ ، ١٦١ ، ١٩٩
﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾	٦٢	١١٠
﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾	٦٣	١٦٦ ، ١١٠
﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾	٦٤	١٠٠
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾	٦٦	١١٣
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾	٧٤	١٠٧

﴿وَأَنَّهُمْ أَتَيْهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾	٧٦	١٠٧
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ﴾	٧٧	١٦٥
﴿قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾	٧٨	١١١، ١٦٤، ١٧٣
﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾	٧٩	١٧٤
﴿قَالَ لَوْ أَنِّي يَكْفُرُ قُوَّةَ أَوْءَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾	٨٠	١٠٦
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾	٨٢	١١٢
﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾	٨٣	١١٢، ١٦٤
﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾	٨٤	١٠٤، ١٦٩
﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾	٨٥	١٠٤، ١١٢، ١٦٩
﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	٨٦	١٦٩
﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	٨٨	١١١
﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾	٩١	١٠٠، ١٦٠، ٢٠٢
﴿أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾	٩٢	١٠٠، ٢٠٣
﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾	٩٨	٤٧، ١٠١، ١٣٩
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾	١٠٢	١٠٦
﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾	١٠٣	١٠٦، ١٠٧، ١٧٠
﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾	١٠٤	١٧٠
﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾	١٠٥	٥٨، ١٠٩، ١٦٠، ١٧٠، ١٧٣
﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَّعَكَ﴾	١١٢	١٦٤، ١٧٠
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾	١١٣	١٧٠
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُقًا مِنَ اللَّيْلِ﴾	١١٤	٩٧، ١٠٣
﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	١١٥	١٠٣
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	١١٨	١٠٧، ١٥٧

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾	١١٩	١٥٧ ، ١٠٨ ، ١٠٧
﴿وَكَلَّا تَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾	١٢٠	١٧٢ ، ١٥٨
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾	١٢١-١٢٢	١١٤
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾	١٢٣	١٧٢ ، ١٥٩ ، ١١٤
سورة يوسف		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	٢	١
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾	١٠٨	١٤٦
سورة إبراهيم		
﴿وَضَرِبُ اللَّهِ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾	٢٥	٦٣
سورة الحجر		
﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾	٦٢-٦٤	١١١
﴿قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَقْضُحُونَ﴾	٦٨-٧١	١١١
سورة النحل		
﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾	٨٩	١٣١
سورة الإسراء		
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾	٣١	٧٠
﴿أَفَأَصْفِدُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾	٤٠	٣٠
﴿قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا﴾	٨٨	١٨
﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾	١٠٠	٩١
سورة الكهف		
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ فِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾	٦٣	٩٤
﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾	٨٨	١٣٢
سورة مريم		
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْبٍ﴾	٩	٧٦

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾	٦٠	١٣٢
﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهِنَّ﴾	٦٨	١٥٣
﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧١	١٥٣
سورة طه		
﴿طه ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾	٤-١	٦٦
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾	٥	٦٧
﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا تَسْعَى﴾	٦٦-٦٨	٦٧، ٥٥
﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾	٦٩-٧٠	٦١
سورة الأنبياء		
﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِنَايَا بَرِّهِمْ﴾	٦٢	٩١، ٣٠
﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ بَعْضُهُمْ وَأَخَذَتِ الْأَيْمَانُ بَيْنَهُمْ﴾	٦٣	٩١، ٣٠
﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾	٧٩	٥٩
﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾	٩١	٥٩
سورة الحج		
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾	٢٧	٧٢، ٦٩
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾	٤٦	٣٤
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾	٥٢	٦٩، ٦١
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾	٧٥	٧٤
سورة المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾	٤٩	٦٠
﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾	٥٠	٦٠، ٥٩
﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾	٨٢	٤٠
﴿لَقَدْ وَعَدْنَا لَكُنُوزًا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ﴾	٨٣	٤٠
سورة النور		

٥٨	٣	﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾
٦٢	٣٠	﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾
١٥٥	٣٩	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾
٧٢	٤٥	﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾
سورة الفرقان		
٤٢	٣	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾
٧٣ ، ٦١	٤٨-٤٩	﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً﴾
سورة النمل		
٤٠	٦٧	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا﴾
٤٠	٦٨	﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾
سورة القصص		
٦١	٧٠	﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾
سورة الروم		
٤٢	٤	﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾
٧٦	٢٧	﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾
سورة لقمان		
٣٧	١٨	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾
سورة الأحزاب		
٦١	٧	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾
١٠٩	٤٥	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
٦٨ ، ٦١	٥٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾
سورة سبأ		
١٤٨	٢٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾
٦٩	٤٦	﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾

سورة فاطر		
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	٢٨	٧٠
سورة الزمر		
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٩	٦١
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾	١١-١٥	٦٥
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾	٢٣	٩٢
﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾	٦٦	٥٠
سورة غافر		
﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾	١٦	٧٥
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾	٢٨	٥٥
﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَلْقَوْنَ أَتَّبِعُون أَهْدِكُمْ﴾	٣٨-٤١	٩٢
سورة فصلت		
﴿حَمْدٌ ۝ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١-٣	١١٠
﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾	٤	١٠٩
سورة الجاثية		
﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾	٧	٦٩
﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾	٣٦	٧٥
سورة محمد		
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾	١٥	٧٣
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾	١٩	٧٣
سورة الفتح		
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾	٢٩	٥٤
سورة الحجرات		
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾	١٣	٤١

سورة الذاريات		
١٥٧	٥٦	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
سورة النجم		
٦٠	٢٦-٢٤	﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ﴾
سورة الحشر		
٧٠	٢	﴿وَضَلُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾
سورة التغابن		
١٣٠	٢	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾
٥٦	١٢	﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾
سورة المدثر		
٦٠	٣٧	﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾
سورة القيامة		
٥٠	٢٣-٢٢	﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾
سورة النبأ		
٧٨	٧-٦	﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾
٧٨	٨	﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾
٧٨	١١-٩	﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا﴾
سورة الانفطار		
٦٠	٥	﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾
سورة الغاشية		
٥٧	٢٦-٢٥	﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتِبُهُمُ ﴿٢٥﴾ نُّعَرِّجُ عَنْهَا جِسَابَهُمْ﴾
سورة الشمس		
١٤٧	٨	﴿فَاللَّهُمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

سورة الكافرون		
٥٥	٦	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

فهرس الأحاديث

رقم الصحيفة:	طرف الحديث:
١١٧	اقرأ عليّ القرآن
٩٧	أن رجلاً أصاب من امرأة
١١٦	إن عمر بن الخطاب خطب يوم
١١٧	إن في النساء خمس آيات
٩٦	شيبتي هود، والواقعة
٥٨	ما تركت بعدي في الناس
١١٧	من أخذ السبع الأول
١١٦	وما نزلت سورة البقرة

فهرس الأشعار^(١)

بيت الشعر	رقم الصحيفة
رَدَدْتُ عَلَى عَمْرُو بْنِ قَيْسٍ قِلَادَةً	٥٥
وَكَانَتْ يَدَايَ مَلَأَى بِهِ ثُمَّ أَصْبَحْتُ	٥٠
وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَمْلُكًا	٥١
أَلْقَوْلٍ وَاشِ ظَالِمٍ أَقْصَيْتَنِي	٥٥
إِنَّمَا تَرَانِي قَدْ هَلَكْتُ فَإِنَّمَا	٥٦
وَالَّذِي حَارَتْ الْبَرِيَّةُ فِيهِ	٥٤
ثَلَاثَةُ تَشْرِيقِ الدُّنْيَا بَبَهْجَتِهَا	٤٢
وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جَسْمِي بِهِ	٤١
تَلَقَّيْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي	٢٤
غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ	٣٥
إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بِلَا عَدَدٍ	٨٢
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَى فَالزَمْ قِرَاءَتَهُ	٨٢
يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعِيكَ، فَقَدْ	٢٤
أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي	٣١
فِيَأْبَى فَمَا يَزِدَادُ إِلَّا لِحَاجَةً	٩٩
وَقَائِلَةٌ مَا هَذِهِ الدُّرُرُ الَّتِي	٨٣
فَقَلْتُ لَهَا الدُّرُّ الَّذِي كَانَ قَدْ حَشَا	٨٣
بِرَأْسٍ مِنْ جَشَمِ بْنِ بَكْرِ	٥٦

(١) تم ترتيب الأشعار على حرف الروي.

فهرس المصطلحات

المصطلح	رقم الصحيفة
الإدماج	١٦٩
الاستعارة	٩٣
الاستفهام الإنكاري	٣٠
الاستئناف البياني	١٤٩
الالتفات	٩٣
أم المنقطعة	٣٠
التخلص	١٥٣
التذييل	١٠١
الترتيب الرتي	١٦٢
التشبيه البليغ	١٥٥
التشبيه التمثيلي	١٥٤
التشبيه	١٥٤
التعريض	٣٥
التفنن	١٥٣
التكرار	٩٢
التورية	١٥٦
جناس الاشتقاق	١٥٦
الجناس	١٥٦

١٤٦	دلالة الالتزام
١٤٦	دلالة التضمن
١٤٦	دلالة المطابقة
٢٤	شعر الحماسة
٣٤	ضمير الشأن
٦٠	الفاصلة القرآنية
٩١	الفصل والوصل
١٥٢	القرينة
١٦١	قصر الأفراد
١٦١	قصر القلب
٣٥	الكناية
٩٣	المجاز المرسل
٩٤	المجاز
١٥٥	المحسنات البديعة
٩٤	المشاكلة
١٥٦	المطابقة (الطباق)
٥٠	المعاظلة

فهرس الأعلام

الاسم	رقم الصحيفة
ابن الأثير	١٢
الأصبهاني (أبو مضر)	٨٢
امرؤ القيس	١٩
الأندلسي (أبو حيان)	٨٩
الباقلاني (محمد بن الطيب)	١١
البحثري	١٩
البقاعي	٧٧
البقالي (محمد بن أبي القاسم)	٨٣
أبو بكر الأصم	٨٧
البيضاوي (ناصر الدين)	٨٩
التفتازاني (سعد الدين)	١٤٨
أبو تمام	٢٤
الجاحظ	٩
الجبائي (أبو هاشم)	٢١
الجرجاني (عبد القاهر)	١٢
جلال الدين القزويني	٩
ابن جني	٨٧
الحسين بن علي	٩٦
أبو الخطاب ابن البطر	٨٣

١١	الخطابي (أحمد بن محمد)
١٢	الخفاجي (ابن سنان)
١١	الرماني (علي بن عيسى)
٨٧	الزجاج
٦٨	الزركشي (بدر الدين)
٨٣	زينب بنت الشعري
١٤٣	سالم بوحاجب
١٥٠	أبو السعود العمادي
٣٧	السكاكي (أبو يعقوب)
٨٩	السكوتي (عمر بن محمد خليل)
٥٩	السهيلي (أبو القاسم)
١٤٨	السيالكوتي
١٤	سيبويه (عمرو بن عثمان)
٤٨	السيوطي
١٤٩	الشهاب الألوسي
١٥٠	الشهاب الخفاجي
١٤٢	الشيخ عمر بن الشيخ
٩٠	الشيرازي (قطب الدين)
٨٣	أبو طاهر السلفي
٨٩	الطبي (شرف الدين)
١١٦	عائشة (أم الممنين)
٩٦	ابن عباس

٢٠	عبد الجبار المعتزلي
١٢	العسكري (أبو هلال)
٣٦	الفخر الرازي
١٥٠	القرطبي (محمد بن أحمد)
١٤٩	القزويني (سراج الدين)
٨٧	المبرد
٣٥	المتنبي
٨٧	مجاهد
١٤٣	محمد الصادق بن محمد الشطي
١٤٢	محمد العزيز بوعتور
١٤٣	محمد الفاضل ابن عاشور
٩٧	ابن مسعود
١١٦	معدان بن أبي طلحة اليعمرى
٨٨	ابن المنير
١٥	النظام (إبراهيم بن سيّار)
٨٣	النيسابوري (الحسن بن المظفر)
١٥٠	ابن يعيش

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، محمد نور الدين المنجد، ط ١ (دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م).
- أبو بكر الباقلائي ومفهومه للإعجاز القرآني، أحمد جمال العمري، (الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة التاسعة، العدد ٣، ١٩٧٦م).
- إتقان البرهان في علوم القرآن، د. فضل حسن عباس، ط ٢ (الأردن، دار النفائس، ٢٠١٠م).
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ت: د. مصطفى البغا، ط ٥ (دمشق، دار ابن كثير، ٢٠٠٢م).
- أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)، أطروحة دكتوراه إعداد الطالب: مشرف الزهراني، إشراف الدكتور: أمين محمد عطية باشه، جامعة أم القرى، كلية أصول الدين، قسم الكتاب والسنة.
- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، (دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت).
- إملاء ما من به الرحمن، أبو البقاء العكبري، د. ط (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م).
- أساليب المعاني في القرآن، السيد جعفر الحسيني، ط ١ (مؤسسة بوستان كتاب، ؟).
- الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة، دراسة تطبيقية، رسالة ماجستير إعداد خالد العيثم، إشراف د. صالح الزهراني (المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٩٨م).
- أساس البلاغة، الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ).
- أسد الغابة، عز الدين ابن الأثير، د. ط (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م).
- الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكوّاز، ط ١ (دار الكتب الوطنية، بنغازي، ١٤٢٦هـ).
- الأسلوبية والبلاغة، محمد مطلوب، ط ١ (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٤م).
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية في تراث أهل العلم، د. محمد محمد أبو موسى، ط ٢ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٧م).

- الإعجاز البلاغي في القرآن دراسة تحليلية عند فخر الدين الرازي، عزيز الخطيب، ط ٢ (دار قتيبة، دمشق، ٢٠١٣م).
- إعجاز القرآن، الباقلائي، ت: السيد أحمد صقر، د.ط (دار المعارف، مصر، د.ت).
- إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، د.ط (دار الكندي، إربد، ١٩٩١م).
- الأعلام، الزركلي، ط ١٥ (دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١ (دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٢م).
- أطواق الذهب في المواعظ والخطب، الزمخشري، ت: أحمد عبد التواب عوض، د.ط (دار الفضيلة، القاهرة، د.ت).
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: إبراهيم شمس الدين، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م).
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: عبد المنعم خفاجي، ط ٣ (المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٣م).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ).
- الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية، عبد الرؤوف مخلوف، د.ط (دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م).
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، د.ط (دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ).
- البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، ت: سعيد بن جمعة الفلاح، ط ١ (دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢٨هـ).
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط (القاهرة، مكتبة دار التراث، د.ت).
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، د.ط (المطبعة النموذجية، القاهرة، د.ت).
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١ (المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٦٥م).

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ت: محمد علي النجار، (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦م).
- بلاغة القرآن في تذييل الآيات دراسة تأصيلية، أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي، مجلة تدبر، العدد الثاني، السنة الأولى.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى، د.ط (دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت).
- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ط ٩ (القاهرة، دار المعارف، د.ت).
- بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، علي أبو القاسم عون، ط ١ (دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م).
- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، ط ١ (منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م).
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط ١ (دار القلم، دمشق، ١٩٩٦).
- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، فضل حسن عباس، ط ٤ (دار الفرقان، إربد، ١٩٩٧م).
- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ط ١ (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٤م).
- البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد الأدبي، إعداد عبد الله بانقيب، إشراف د. صالح سعيد الزهراني (جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢م).
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، ت: بشار عواد معروف، ط ١ (دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م).
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط ٤ (دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م).
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، د.ط (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م).
- التعازي والمرثي والمواظع والوصايا، المبرد، ت: إبراهيم الجمل، د.ط (نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت).
- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، ط ٣ (دار عمار، عمان، ٢٠٠٤م).

- التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، ط ١ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ).
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم، ت: أسعد محمد الطيب، ط ٣ (مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ).
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: محمد حسين شمس الدين، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ).
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامي محمد سلامة، ط ٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م).
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، د.ط (دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت).
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ط ٢ (دار المنار، القاهرة، ١٩٤٧م).
- التفسير الموضوعي لسور القرآن، د. مصطفى مسلم، ط ١ (كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، الشارقة، ٢٠١٠م).
- والتفسير المحرر للقرآن الكريم، الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ط ١ (مؤسسة الدرر السنيّة، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٦م).
- التفسير من سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور (٢٢٧هـ)، ت: سعد بن عبد الله آل حميد، ط ١ (دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٧م).
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط ٧ (مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٠م).
- التفكير البلاغي عند العرب، حمادي الصمود، د.ط (المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٨١م).
- التقديم والتأخير بلاغة وإبلاغ، خلدون صبح، ط ١ (دار الينايع، دمشق، ٢٠٠٢م).
- التقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، محمد بن إبراهيم الحمد، د.ط (دار ابن خزيمة، د.ت).
- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: عبد الرحمن البرقوقي، ط ١ (دار الفكر العربي، ١٩٠٤م).
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ت: محمد خلف الله أحمد ود. محمد زغلول سلام، ط ٣ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م).

- الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى البغا، ط ٣ (دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م).
- الجملة العربية بناؤها وأقسامها، فاضل السامرائي، ط ٢ (دار الفكر، الأردن، ٢٠٠٧م).
- الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ط ١ (دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٠م).
- جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ت: د. يوسف الصميلي، د. ط (المكتبة العصرية، بيروت، د.ت).
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ت: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ).
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، ت: خليل إبراهيم خليل، د. ط (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت).
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط ٢ (دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧م).
- الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني، ابتسام حمدان، ط ١ (دار طلاس، دمشق، ١٩٩٢م).
- الحيوان، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، ط ٢ (مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٥م).
- خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، أطروحة دكتوراه إعداد إبراهيم علي الجعيد، إشراف: أ.د. محمد محمد أبو موسى، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، سنة ١٩٩٩م.
- الخطابي والإعجاز القرآني، عبد العاطي محمد شلبي، ط ١ (المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٦م).
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، د. ط (دار القلم، دمشق، د.ت).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عبد المعيد ضان، ط ٢ (مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد- الهند، ١٩٧٢م).
- درّة التنزيل وغرّة التأويل، الخطيب الإسكافي، ت: محمد مصطفى آيدين، ط ١ (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ٢٠٠١م).
- دلائل الإعجاز، الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، د. ط (مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت).
- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، د. منير محمود المسيري، ط ١ (مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م).

- دلائل التراكييب، د. محمد محمد أبو موسى، ط ٢ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م).
- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة: كمال محمد بشير، د. ط (مكتبة الشباب، النيرة، د. ت).
- ديوان امرئ القيس، ت: مصطفى عبد الشافي، ط ٥ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م).
- ديوان أبي تمام، ت: شاهين عطية، د. ط (المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٩م).
- ديوان الأقيشر الأسدي، ت: محمد علي دقة، ط ١ (دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م).
- ديوان البحترى، ت: حسن كامل الصيرفي، ط ٣ (دار المعارف، القاهرة، د. ت).
- ديوان جار الله الزمخشري، ت: فاطمة يوسف الخيمي، ط ١ (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨م).
- ديوان العباس بن الأحنف، ت: عاتكة الخزرجي، ط ١ (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م).
- ديوان عمرو بن كلثوم، ت: أميل بديع يعقوب، ط ١ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م).
- ديوان المتنبي، د. ط (دار بيروت، بيروت، ١٩٨٣م).
- الزمخشري المفسر البليغ، كامل عويضة، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م).
- الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، ط ٢ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د. ت).
- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي، ط ١ (مركز البحوث والدراسات، الشارقة، ١٤٢٧هـ).
- سقط الزند، أبو العلاء المعري، د. ط (دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م).
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط ٣ (مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م).
- سنن أبي داود، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، د. ط (المكتبة العصرية، بيروت، د. ت).
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ت: محمود الأرنؤوط، ط ١ (دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م).
- شرح ديوان أبي تمام، للخطيب لتبريزي، ت: راجي الأسمر، ط ٢ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م).
- شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، محمد الحبيب ابن الخوجة، د. ط (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٤م).

- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، بلقاسم الغالي، ط ١ (دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٦م).
- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن الميداني، ط ١٢ (دار القلم، دمشق، ٢٠١١م).
- طبقات الشافعية، جمال الدين الإسني، ت: كمال يوسف الحوت، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م).
- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ت: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط ٢ (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ).
- طبقات المفسرين، السيوطي، ت: علي محمد عمر، ط ١ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ).
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ٢ (دار المعارف، د.ت).
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، ت: عبد الحميد هندراوي، ط ١ (المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م).
- على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ط ١ (دار ابن كثير، دمشق، ٢٠١٧م).
- علم البديع، عبد العزيز عتيق، د.ط (دار النهضة العربية، بيروت، د.ت).
- علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، د. محمد أحمد قاسم، ومحي الدين ديب، ط ١ (المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس—لبنان، ٢٠٠٣م).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، حسن بن محمد النيسابوري، ت: الشيخ زكريا عميران، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م).
- الفرائض وشرح آيات الوصية، السهيلي، ت: د. محمد إبراهيم البناء، ط ٢ (المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ).
- في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وليد القصاب، ط ١ (دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م).
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ١٧ (دار الشروق، القاهرة، ١٤١٢هـ).
- فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، السيد خضر، ط ٢ (مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م).
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٥ (١٩٦٧م).
- في النقد الأدبي القديم عند العرب، مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، د.ط (مكة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨م).

- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ت: خليل مأمون شيخا، ط ٤ (دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩م).
- القرآن ونصوصه، عدنان زرزور، د.ط (مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ١٩٨٠م).
- قواعد التقديم والتأخير عند المفسرين (رسالة ماجستير)، إعداد: عمر عبد المجيد البيانوني، إشراف: صالح معتوق، جامعة بيروت الإسلامية، كلية الشريعة، ٢٠١٧م.
- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، د.ط (بيروت، دار الجيل، د.ت).
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، ط ٣ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ).
- الكشف، الزمخشري، ت: عبد الرزاق المهدي، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت).
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ت: عبد الجواد خلف، ط ١ (دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٠م).
- اللباب في قواعد اللغة، محمد علي السراج، ط ١ (دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م).
- لسان العرب، ابن منظور، ت: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، د.ط (دار المعارف، القاهرة، د.ت).
- لسان العرب، ابن منظور، ط ٣ (دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ).
- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، أحمد جمال العمري، د.ط (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م).
- مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، شوقي البوعناني، ط ١ (مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، ٢٠١٨م).
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.ط (المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، د.ط (دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ).
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١ (دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م).
- المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م).

- محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إيداد خالد الطباع، ط ١ (دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥م).
- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ت: د. أيمن الشوا، ط ١ (دار الفيحاء، دمشق، ٢٠١٠م).
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، ط ٢ (دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م).
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر، محمد محمد أبو موسى، ط ١ (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٨م).
- معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، محمد بركات حمدي، ط ١ (دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م).
- معاني القرآن الكريم، النحاس، ت: محمد علي الصابوني، ط ١ (مركز إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٨م).
- معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، ط ٣ (دار المنارة، جدة، ١٩٨٨م).
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، د. ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت).
- المعجم الأوسط، الطبراني، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن الحسيني، د. ط (دار الحرمين، القاهرة، د.ت).
- المعجم الكبير، الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ٢ (مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت).
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ط ٢ (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧م).
- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط ٣ (مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م).
- المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، ط ٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م).
- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ط ٣ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ).
- مفتاح العلوم، السكاكي، ط ٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان داودي، د. ط (دار العلم، دمشق، ١٤١٢هـ).
- مقالات الإسلاميين، الأشعري، ت: هلموت ريتز، ط ٣ (دار فرانز شتايز، ألمانيا، ١٩٨٠م).
- مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، د. ط (دار الفكر، ١٣٩٩هـ).

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيهه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، ابن الزبير الغرناطي، ت: سعيد الفلاح، ط ١ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م).
- الملل والنحل، الشهرستاني، د.ط (مؤسسة الحلبي، د.ت).
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م).
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ط ١ (مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م).
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، مسلم النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت).
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ط ١ (مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٧م).
- المناسبات القرآنية، دراسة لغوية بيانية، د. عقيد خالد العزاوي، ط ١ (دار العصماء، دمشق، ٢٠١٦م).
- من بلاغة النظم القرآني، دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبدیع في آيات الذكر الحكيم، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ط ١ (مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠١٠م).
- مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، رسالة دكتوراه إعداد عبد الله بانقيب، وإشراف: أ.د. محمد توفيق محمد سعد (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨م).
- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، ط ٢ (دار المعارف، مصر، د.ت).
- نتائج الفكر، السهيلي، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م).
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، كمال الدين الأنباري، ت: إبراهيم السامرائي، ط ٣ (مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ١٩٨٥م).
- نظرية عبد القاهر في النظم، درويش الجندي، د.ط (مكتبة نخضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، د.ط (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت).
- النظم القرآني وأثره في الأحكام، الصادق سالم أحمد الخازمي، ط ١ (المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس الغرب، ١٩٨٥م).
- النسق القرآني دراسة أسلوبية، محمد ديب الجاجي، ط ١ (شركة دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن، جدة - بيروت، ٢٠١٠م).

- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ت: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ط ٣ (دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م).
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط ١ (دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م).
- وظائف السياق في التفسير القرآني، د. عقيد العزاوي، ود. محمد شاکر الكبیسی، ط ١ (دار العصماء، دمشق، ٢٠١٥م).
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد راغب، ط ١ (فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ت: إحسان عباس، ط ١ (دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م).
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ط ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصحيفة
المقدمة	١
الفصل التمهيدي: مدخل إلى نظرية النظم.....	٨
المبحث الأول: نظرية النظم.....	٩
١ - النظم لغة.....	١٢
٢ - النظم اصطلاحاً.....	١٣
٣ - نشأة نظرية النظم.....	١٤
أولاً- النظم عند الجاحظ.....	١٥
ثانياً- النظم عند الخطابي.....	١٦
ثالثاً- النظم عند الباقلاني.....	١٨
رابعاً- النظم عند القاضي عبد الجبار المعتزلي.....	٢٠
خامساً- النظم عند عبد القاهر الجرجاني.....	٢٣
المبحث الثاني: موقع أسلوب التقديم والتأخير من النظم القرآني.....	٢٧
أولاً- أسلوب التقديم والتأخير عند الجرجاني.....	٢٧
ثانياً- أسلوب التقديم والتأخير عند العلماء بعد الجرجاني.....	٣٦
١ - الفخر الرازي.....	٣٦
٢ - السكاكي.....	٣٨
الفصل الأول: أسلوب التقديم والتأخير.....	٤٤
المبحث الأول: تعريف أسلوب التقديم والتأخير.....	٤٥
أولاً- الأسلوب.....	٤٥

٤٧	 ثانياً- التقديم والتأخير
٥٠	 ثالثاً- أحوال التقديم والتأخير
٥٣	 المبحث الثاني: أغراض أسلوب التقديم والتأخير
٥٣	 - أغراض أسلوب التقديم والتأخير في البلاغة العربية
٥٦	 - أغراض أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم
٦٢	 - وظائف أسلوب التقديم والتأخير
٦٢	 أولاً- الوظيفة الدلالية
٦٤	 ثانياً- الوظيفة الحجاجية
٦٦	 ثالثاً- الوظيفة الجمالية
٦٨	 المبحث الثالث: أنواع أسلوب التقديم والتأخير
٦٨	 النوع الأول: التقديم الذي ليس على نية التأخير
٦٩	 النوع الثاني: التقديم الذي على نية التأخير
٧٠	 النوع الثالث: ما قدّم في آية وأجر في أخرى
٧١	 مستويات التقديم والتأخير في هذه الدراسة
٧٢	 التقديم والتأخير في الآية القرآنية
٧٦	 التقديم والتأخير في السورة القرآنية
٨٠	 الفصل الثاني: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند الزمخشري
٨١	 تمهيد: التعريف بالزمخشري وتفسيره
٨١	 أولاً- التعريف بالزمخشري
٨٤	 ثانياً- التعريف بالكشاف
٩٠	 المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في الكشاف
٩٦	 المبحث الثاني: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود

أولاً- بين يدي سورة هود.....	٩٦
ثانياً- أسلوب التقديم والتأخير في السورة.....	٩٨
١- التقديم والتأخير في الآية القرآنية.....	٩٨
٢- التقديم والتأخير في السورة القرآنية.....	١٠٤
- المواضع التي لم يذكرها الزمخشري.....	١٠٥
المبحث الثالث: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.....	١١٦
أولاً- بين يدي سورة النساء.....	١١٦
ثانياً- التقديم والتأخير في السورة.....	١٢٠
١- التقديم والتأخير في الآية القرآنية.....	١٢٠
٢- التقديم والتأخير في السورة القرآنية.....	١٢٣
- المواضع التي لم يذكرها الزمخشري.....	١٢٤
المبحث الرابع: كيفية تعامل الزمخشري مع أسلوب التقديم والتأخير.....	١٣٨
الفصل الثالث: أثر التقديم والتأخير في التفسير عند ابن عاشور.....	١٤٠
تمهيد: التعريف بابن عاشور وتفسيره.....	١٤١
أولاً- التعريف بابن عاشور.....	١٤١
ثانياً- التعريف بالتحريم والتنوير.....	١٤٤
المبحث الأول: نبذة عن البلاغة القرآنية في التحرير والتنوير.....	١٥٢
المبحث الثاني: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة هود.....	١٥٧
١- التقديم والتأخير في الآية القرآنية.....	١٥٧
٢- التقديم والتأخير في السورة القرآنية.....	١٦٩
- المواضع التي لم يذكرها ابن عاشور.....	١٧٢
المبحث الثالث: أثر أسلوب التقديم والتأخير في سورة النساء.....	١٧٤

١٧٤	١- التقديم والتأخير في الآية القرآنية.....
١٨٦	٢- التقديم والتأخير في السورة القرآنية.....
١٩٣	- المواضع التي لم يذكرها ابن عاشور.....
١٩٥	المبحث الرابع: كيفية تعامل ابن عاشور مع أسلوب التقديم والتأخير.....
١٩٨	الفصل الرابع: المقارنة بين جهود الزمخشري وابن عاشور في التقديم والتأخير
١٩٩	المبحث الأول: نقاط الاتفاق.....
٢٠١	المبحث الثاني: نقاط الاختلاف.....
٢٠٤	المبحث الثالث: محاولة في التقويم.....
٢٠٤	التقديم والتأخير بين الزمخشري وابن عاشور مع غيرهما من المفسرين....
٢٠٥	التقديم والتأخير بين القرآن المكي والمدني.....
٢٠٧	الخاتمة.....
٢٠٩	الفهارس العامة.....
٢١٠	فهرس الآيات.....
٢٢٥	فهرس الأحاديث.....
٢٢٦	فهرس الأشعار.....
٢٢٧	فهرس المصطلحات.....
٢٢٩	فهرس الأعلام.....
٢٣٢	فهرس المصادر والمراجع.....
٢٤٣	فهرس الموضوعات.....